LES MISERABLES



البؤساء

فكتور هوغو

Victor Huho

إعداد:

انيغو - MEXAT - أنس

دمج PDF:

Sٳlvεя Fơx



لايعلم الناس من أمر الأب شارل فرانسوا ميريل اسقف (بريتول) إلا أنه انحدر من اسره كريمة في (إكس) وأن أباه كان عضواً في مجلس النواب وقد زوجه أبوه وهو في سن العشرين وعني بإعداده لكي يخلفُه في كرسي النيابه كما هي العادة في بعض الاسر .

لكن الفتي كان وقتئذ متين البناء ,رشيق القامة سريع الخاطر ممتلئا قوة و فتوة فأثر دنياه علي دينه و قضي أيام شبابه الأولي في إشباع شهواته الدنيوية .

ثم نشبت الثورة الكبرى و تبعثرت الأسر العريقة فرحل شارل ميريل بزوجته إلي ايطاليا . وهناك أصيبت الزوجة بذات الرئه وقضت نحبها دون ان تنجب.
ولا احد يعلم على وجه التحقيق نوع الأزمات و الكوارث التي تعرض لها شارل ميريل بعد ذلك فكل مايعرفه الناس عنه أنه عندما عاد من ايطاليا ,كان يرتدي ثياب القس كان قد تقدم في السن وركبته الشيخوخه و استحال رجلا اخر فأقام في بريتول مع أخته الآنسه "باتستين" و خادمته مدام (ماجلوار) لم تكن باتستين علي شئ من الجمال فهي طويله القامة نحيفة الجسم شاحبة اللون ولكنها وقفت كل حياتها علي العبادة و الابتهال و عمل الخير فخلع عليها ذلك كله مع تقدمها في السن شيئا من النقاوة و جمال التقوى
و أما مدام ماجلوار فقد كانت قصيرة بدينة لاهثة الأنفاس على الدوام لسببين احداهما نشاطها و خفة حركتها , وثانيهما إصابتها بأزمة تنفسية مزمنة .
أقام الأب ميريل في قصر الأبرشية وهو قصر عظيم شيد في بداية القرن السابق و أحيط بحديقة و اسعه وكان أول ما فعله أنه زار مستشفي المدينة فوجده قديما ضيقاً لايكاد يتسع للمرضي فأنتقل إلي المستشفي و نقل المرضى إلي القصر.

لم يكن الرجل ذا ثروة فقد عصفت الثورة بأملاك اسرته وبقي لأخته ابراد سنوي لايتجاوز خمسمائة فرنك و على هذا الايراد كان الاب ميريل يعتمد في نفقاته الشخصية. أما مرتبه بصفته أسقف بريتول و هو 15 الف فرنك في العام فإنه جعله مخصص لأعمال الخير و البر و الفقراء و إغاثة الملهوفين و رتب ميزانيته علي هذا الاساس و عرضها علي شقيقته باتستين فابتسمت ووافقت عليها في الحال ذلك لأن هذه المراة الملائكية كانت تري في الاب ميريل أخاها و قسها في وقت واحد فهي تحبه و تحترمه , و تحني راسها إذا تكلم و توافق إذا فعل.

ولكن للأسقف إيراد أخر غير محدود من المناسبات المتصله بأعمال الكنيسة كالزواج و العماد و غيرها ...و في هذه المناسبات كان الرجل يلح في تحصيل اجره من الأغنياء لا لشي إلا ليوزعه على الفقراء.

ثم كانت له بحكم عمله مركبه خاصه فتبرع بها لتنقل المرضى الى المستشفي وراح يقوم بزياراته الى كنائس ابرشيته المترامية الاطراف سيرا على قدميه. . وحدث ذات يوم ان ذهب لزيارة كنيسة مدينة (سينز) وكانت الرحلة شاقة و الطريق وعراً فاضطر أن يمتطي حماراً . وكان العمدة وبعض أعيان المدينة في انتظاره لتحيته و الترحيب به و قد توقعوا ان يروه قادما في المركبه الفخمة التي كان يستخدمها سابقةً فهالهم أن يروه ممتطياً حماراً وكانت المفاجاة من الغرابة بحيث

بحيث لم يتمالك بعض الحاضرين من الضحك فقال القس محدثا العمده ومن معه "معذرة ايها السادة لاشك أنه أدهشكم أن يجروء قس رقيق الحال مثلي على ركوب حيوان امتطاه السيد المسيح في احد الايام ولكني اوكد لكم أنني امتطية اضطراريا لا زهواً و خيلاء"

كانت للاسقف طريقته الخاصة في الحكم على الاشياء. فقد سمع ذات يوم بقضية تقرر النظر فيها أمام محكمة بريتول و هي قضية رجل ضاقت به الحياة فاصطنع تقودا زائفه لإطعام زوجته وولده وكانت عقوبة التزييف في ذلك العهد هي الاعدام ومن سوء حظ الرجل أن زوجته ما كادت تعرض للتداول أول قطعه صنعها حتي افتضح امرها و القي القبض عليها ولم يكن من دليل علي جرم الرجل إلا أن تعترف زوجته وترشد إليه و تسوقة الى التهلكه لكن المراه انكرت , و ضيق المحقق الخناق عليها فــ استمرت بالانكار واخيرا خطر للمحقق خاطر فأوهم المرأه أن زوجها يخونها وأنه اتخذ لنفسه من دونها خليلة و أقنعها برسائل اصطنعها لهذا العرض فدبت الغيرة في قلب المرأة دبيب الموت في الحياة و اعترفت بكل شئ وقدمت من الادله مايكفى لإدانة الزوج .وهكذا ضاع الزوج التعس و أرسل الى السجن انتظارا للمحاكمه و تحدث الناس ببراعة المحقق و بُعد نظرة و مدحوا دهاءه و مقدرته علي استغلال غيرة المرأة و تسخيرالعاطفة لإبراز الحقيقة وسمع الأسقف هذه القصة فسأل واين يحاكم الرجل و زوجته ؟

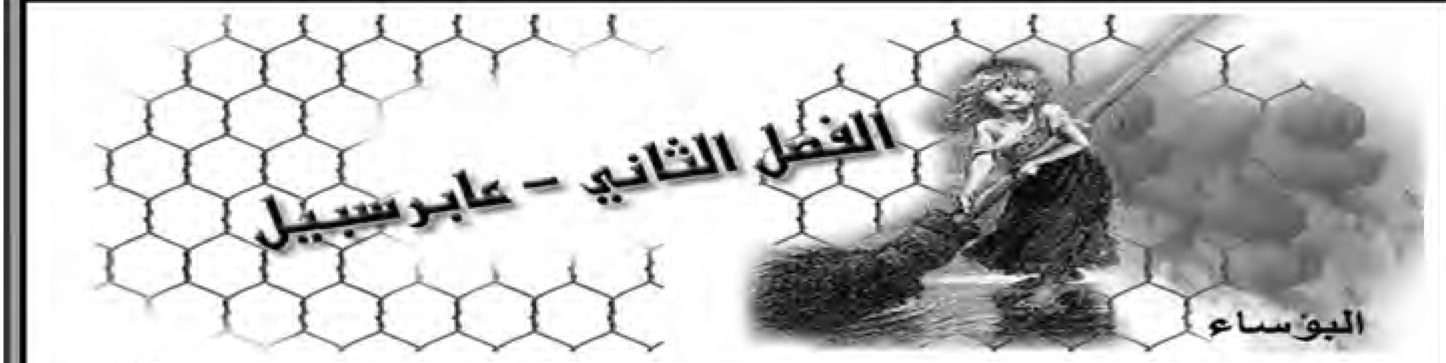
فاجيب أمام محكمة الجنايات

قال الاسقف : واين يحاكم المحقق؟

وكان الأب ميريل على استعداد في كل ساعه من ساعات الليل و النهار لتلبية دعوة المريض أو المحتضر بل لم يكن يترك للعائلات المنكوبه و الثكلى فرصه لدعوته لأنه كان يذهب إليها من تلقاء نفسه

كان يعرف كيف يجلس الساعات الطويله صامتا بجانب الزوج الذي فقد امرأته المحبوبه أو بجانب الأم التي اختطف الموت فلذة كبدها وكما كان يعرف متي يصمت كذلك كان يعرف متي يجب عليه أن يتكلم ليدخل السلوى و العزاء إلي نفس المنكوب و هو عندئذ لا يعمل على محو الحزن بالنسيان بل ينفخ في الحزن روح الامل فيجعل منه شيئا نبيلا ساميا و كان المنزل الذي يقيم فيه الأسقف يتالف من طابقين طابق أرضي فيه ثلاث غرف إحداهما للطعام و الثانية لنوم الأسقف و الثالثة لايواء الضيوف وطابق علوي تقيم فيه المرأتان .أما الغرفه الصغيرة القائمة في ركن الحديقة و التي كانت في ما مضي مطبخاً للمستشفي فقد وضع فيها الأسقف بقرتيه الحلوبتين اللتين اعتاد أن يرسل نصف البانهما إلي المستشفي في كل صباح ولما كانت غرفه نومه فسيحه جدا تصعب تدفئتها في الشتاء,وكان الخشب نادراً غالي الثمن فانه وضع في حظيرة البقرتين حاجزاً شطرها الى شطرين جعل أحدهما للبقرتين و اتخذ الثاني مخدعاً لمبيته في الشتاء أما أثاث المنزل فكان متناهيا في البساطة و أثمن مافيه بعض الصحون الفضية و شمعدانان من الفضه ,ورثهما الأسقف عن عمته فاذا جاء ضيف لتناول طعام العشاء اسرعت مدام ماجلوار فأضاءت الشمعدانين و وضعت الصحاف الفضية على المائدة

ومتي رفع الطعام أعيد الشمعدانان إلي مكانهما فوق الموقد و وضعت الصحاف في خزانة جرت العادة ان يترك بابها مفتوحا ولاعجب في ذلك فالأبواب في منزل الأسقف كانت تترك مفتوحه ليل نهار كانت لهذه الأبواب مزاليج من حديد ولكن الأسقف أزالها جميعا ليتمكن عابر السبيل من الدخول في كل وقت وقد ذُعرت المرأتان خافتا من هذه الابواب التي لا تغلق ابداً فقال الأسقف في هدوء : بابان يجب الا يُغلقا باب الطبيب و باب القس



كانت الشمس قد مالت إلي المغيب عندما دخل بريتول عابر سبيل يمشي على مهل و ينتزع قدميه من الأرض انتزاعا وكان بعض سكان المدينة الصغيرة يطلون من نوافذهم فنظروا إلي القادم بعيون ملؤها الخوف و القلق ذلك لأن أحداً منهم لم يرى أنساناً في مثل ثيابه الباليه وهول منظره كان الرجل متوسط القامة متين البنية قوي العضلات يُخيل للناظر إليه أنه في السادسة أو الثامنه و الأربعين من عمره وهو يرتدي ثوبا أصفر اللون يكشف عن صدر تنمو فيه غابة من الشعر الأسود وسروالاً ازرق تطل منه احدى ركبتيه و قبعه عريضه تُخفي نصف وجهه الذي لفحته الشمس وقد أمسك بيده عصا طويله كثيرة العقد وتدلت فوق ظهره حقيبة منتفخه بمافيها ولابد أن يكون الرجل قد قضى النهار سائراً على قدميه تحت أشعه الشمس المحرقة فقد كان ضعيفا منهوك القوى و الغبار يعلو ثيابة و العرق يتصبب على وجهه ولابد أنه كان يشعر بظمأ شديد فقد ابصرته بعض النساء وهو يغترف الماء من نافورة تحت الأشجار في شارع "جازندي " ثم أبصره الغلمان وهو يزدرد الماء من نافورة أخرى في وسط المدينة وما إن بلغ الرجل شارع "بواشفير" حتي انحدر إلي اليسار ودخل مكتب البوليس و قضي هناك ربع ساعه تقريبا وكان بـ باب المكتب شرطي قد جلس على مقعد حجري هناك فرفع الرجل قبعته و حيا الشرطي باحترام و خضوع ولم يرد الشرطي تحيته بل نظر إليه طويلا ثم نهض من مكانه و دخل المكتب قصد عابر السبيل حانة كبيرة يملكها رجل يدعى "لابار" وكان لمطبخ الحانه باب يؤدي الي الشارع فنفذ الرجل إلي المطبخ و ألقي بنفسه بين طائفة من الافران و المواقد تتلظي فيها النيران تحت شرائح اللحم و أواني الطعام وشعر صاحب الحانه بدخول الرجل فرمقة بنظرة سريعه ثم سأله دون أن يحول عينيه عن أواني الطعام : ماذا تطلب ياسيدي؟

فأجاب الرجل : أطلب طعاما و فراشاً

- ليس أيسر من ذلك

و رفع الرجل عينية مرة اخرى و استطرد ليس أيسر من ذلك ما دمت تملك الثمن ,

فأخرج الرجل من جيبة كيسا مليئا بالنقود و أجاب أن معي نقوداً

قال لابار : إذاً أنا في خدمتك .

فأعاد الرجل كيس النقود إلي جيبه ورفع الحقيبة التي تثقل كاهله ووضعها على الأرض و جلس علي مقعد منخفض بالقرب من احدى المواقد .

و استمر صاحب الحانه في عمله دون أن يكفّ عن النظر إلي الرجل خلسة

سأله الرجل : هل أعددت طعاماً؟

-سأعد فوراً

وحول الرجل بصره إلي الباب لمراقبة الماره فتناول صاحب الحانة قلماً ,وأقتطع قصاصة من جريدة قديمة كان يغطي بها احدى الموائد ,و كتب علي القصاصة سطراً أو سطرين ثم طواها و دعا خادمه ,و دفع بها إليه و همس في اذنه كلاماً ..

تناول الخادم القصاصة و اسرع بها إلي مكتب مدير البوليس ..

ولم ير عابر السبيل شيئاً من ذلك , وسأل للمرة الثانية عما إذا كان الطعام قد أُعد .

عاد الخادم بورقة دفعها إلي سيدة فتناولها هذا بلهفة , وقرأها بإمعان ثم هز راسه وقف لحظة مفكراً..

وأخيراً قصد إلي حيث كان الزائر وقال له :

ليس في أستطاعتي أن أجد لك مكاناً في حانتي ياسيدي فتحول إليه الرجل ببطء وقال : ماذا تعني ؟ أتظن أنني ساحتال عليك وأخدعك ؟ أتريدنني أن أدفع الأجر سلفاً إن معي نقوداً كما قلت لك .
- ولكن ليس في الحانة في فراش لك .
فقال الرجل في هدوء : إذاً دعني أنام في الإسطبل ؟
يكفيني أذاً كومة من القش أرقد عليها فوق السطح على أننا نستطيع إرجاء الكلام في هذا إلي ما بعد الطعام
-ليس في استطاعتي أن أقدم لك طعاماً .
-ماذا تقول ؟ إنني أكاد اموك جوعاً إنني اسير علي قدميَ منذ بزوغ الشمس وقد قطعت أثني عشر فرسخاً إنني أطلب طعاماً...
وأستطيع أن أدفع الثمن .
فأجاب صاحب الحانه بلهجة حاسمة لا طعام عندي .
فأنفجر الرجل ضاحكاً وقال وهو يلوح بيده نحو شرائح اللحم :
- لاطعام عندك ؟! ماكل هذا إذاً ؟
- هذا طعام نزلاء الحانة.
- وكم عدد هؤلا النزلاء ؟
- اثنا عشر
- هذا الطعام يكفي عشرين شخصاً
وتنهد ...واستطرد في هدوء إنني في حانه و اشعر بالجوع فكيف يُراد مني أن أظل جوعان ؟
عندئذ أنحني صاحب الحانة وقال له في همس : خير لك أن تتصرف!
فرفع الرجل راسه بحدة و فتح فمه ... و هم بالكلام .
ولكن صاحب الحانه قاطعه بان استطرد بذلك الصوت الخافت :
- كفى ! أتريدني ان اذكر لك اسمك ؟
إ ن اسمك جان فالجان . أتريد أن أقول لك من أنت ؟
لقد ارتبت في أمرك عندما رايتك فأتصلت بمكتب البوليس و جاءني هذا الرد ... أتعرف القراءة ؟
قال ذلك وبسط الورقه أمام عيني الزائر و تابع بعد صمت قصير :

- إنني تعودت أن أعامل جميع الناس بالحسنى لذلك أرجوك أن ترحل . فنهض الرجل و اقفا و حمل حقيبته و عصاه ...و انصرف !
مشى يلتصق بالجدران ببطء مشيئة الرجل الحزين الذليل
لم يلتفت يمنه أو يسره ولم ينظر وراءه ولو فعل لراي صاحب الحانه واقفا بباب حانته وحوله زبائنه وبعض الماره وهو يتحدث إليهم ويشير نحوه .
ولو رأى نظرات الذعر و الارتياب التي ارتسمت في عيون القوم و هم يُصغون إلي حديث صاحب الحانه لأدراك أن وجوده لن يلبث أن يصبح حديث الناس جميعاً في المدينة .
علي أنه لم ينظر وراءه كما ذكرنا لأن البؤساء لا ينظرون وراءهم فهم يعلمون أن الشخص يلازمهم , وأن الشقاء يطاردهم.
قضى الرجل وقتاً طويلاً وهو يسير في طرقات لايعرفها ونسى تعبه لأن الحزن ينُسي التعب , على أنه ماا لبث أن شعر بوطأة الجوع ورأي الظلام يحيط به , فأدار البصر حوله في البحث عن مكان يلجأ إليه
ورأي مصباحاً مضيئاً في آخر الشارع , فقصد إليه ووجد أنه مصباح صغير فوقف أمام نافذة الحانه وأرسل بصره إلي الداخل فإذا بعض الناس يحتسون الخمر وإذا صاحب الحانه يحرك طعاما في آنية فوق الموقد .
وكان للحانه بابان : أحدهما كبير يؤذي إلي الشارع والآخر صغير إلي فناء ضيق !
ولم يجرؤ عابر سبيل على الدخول من الباب الكبير بل تسلل إلي الفناء ووقف قليلاً بالباب الصغير , ثم تشجع , و دفعه بيده و دخل .
وعندئذ هتف صاحب الحانه : من هذا ؟
- فكان الجواب : رجل يطلب طعاماً و مرقداً !

- هذا حسن .... ستجد مطلبك هنا .
وتحولت جميع الأنظار إلي الرجل و هو يرفع الحقيبة عن عاتقة .
قال له صاحب الحانه : إن الطعام في الموقد فاقترب من النار وتدفأ إذا شئت .
فجلس الرجل علي مقعد و مد قدميه المتورمتين من تأثير التعب . وأمتلأت خياشيمه بالرائحه الشهية المنبعثة من وعاء الطعام , و ارتسمت على وجهه علامات الارتياح ممتزجه بتلك الكآبه التي يخلقها الشقاء الدائم .
وكان بين الموجودين رجل قضى قبل ذلك بعض الوقت في حانه "لابار" وسمع حديث هذا الأخير عن ذلك الزائر الغريب المُريب فدعا إليه صاحب الحانه و همس في اذنه كلاماً...أصغى إليه صاحب الحانه باهتمام ثم قصد إلي حيث كان الزائر وألقى بيده علي كتفه وقال : يجب أن تنصرف من هنا .
فتحول إليه الزائر و هتف بلطف آه ...أنت تعلم ...
- نعم
- لقد طُردت من الحانة الآخرى .
- وستُطردُ من هذه الحانه كذلك .
- وأين تريدني أن أذهب ؟
- أذهب إلي أيّ مكان آخر .
فحمل الرجل حقيبته و عصاه و انصرف .
وكان بباب الحانه بعض الصِبيه الذين تعقبوه منذ غادر الحانه الأولي , فما كاد يخرج من الباب حتي راحو يقذفونه بالحجارة فتحول إليهم الرجل , و هددهم بعصاه فتفرقوا بسرعة كما يتفرق سِربٌ من الطيور . مر الرجل بباب السجن , ودق الجرس فأطل الحارس من كوُة صغيرة بالباب .قال الرجل وهو يرفع قبعته بتواضع :سيدي هل تتفضل بأن تفتح لي الباب لأقضي ليلتي هنا؟
فأجاب الحارس بصوت أجش : أن السجن ليس حانة , دعهم يلقون القبض عليك فأفتح لك الباب عن طيب خاطر .ولم يكن الرجل يعرف شوارع المدينة فراح يضرب في الطرقات على غير هدى ولا يعلم إلي اين يذهب .
ومر بالكنسية فلوّح بقبضة يده مهدداً .كان التعب و الياس قد هذا قواه فتهالك على مقعد حجريّ بالقرب من الكنسية .وخرجت من الكنسية سيدة متقدمة في السن ,و رأت هذا الرجل الممتد في الظلام , فسألت في رفق ماذا تفعل هنا ايها الصديق ؟
فأجابها بقسوة و خشونة : ها أنت ترين أنني أطلب النوم
- أتنام على هذا المقعد الحجري؟!
فأجاب الرجل : منذ تسعة عشر عاماً و أنا أنام على قطعة من الخشب و هأنذا الآن أرقد على حجر .
- هل كنت جندياً؟
- نعم سيدتي ...
- ولما لاتذهب إلي الحانة ؟
- لأنني لا املك نقوداً...
فقالت المرأة في حزن وأسفاه , ليس لدى من النقود سوى "سنتمين"
- في استطاعتك على كل حال أن تتكرمى بهما عليّ
وتناول السنتمين .
وقالت المرأة هذه المبلغ الزهيد لايكفي لمبيتك في الحانة , ولكن يجب أن تجرًب فأنت جوعان بغير شك ... و الليل هنا شديد البرودة , ومن المحتمل أن تجد من يُطعمك ويُوويك على سبيل الإحسان
- أنني طرقت جميع الأبواب .
- وماذا كانت النتيجة ؟
- لقد طردني الجميع .
فالقت المراة بيدها علي ساعده , و قالت و هي تشير إلي منزل صغير بجوار الكنيسة :
تقول إنك طرقت جميع الأبواب و فهل طرقت هذا الباب ؟
- لا
- اطرقه اذاً



كانت مدام ماچلوار تتحدث بحدة وحماسة , وباتستين تصغي إليها في هدوء ودعه و وكان موضوع الحديث تلك المزاليج الحديدية التي أمر الأسقف بإزالتها ,

و الظاهر أن مدام ماچلوار كانت قد خرجت لابتياع بعض الحاجات فسمعت أحاديث الناس عن ذلك الشريد المريب الذي هبط على المدينة .

وكان راي الأسقف أخطأ حين أزال مزاليج الأبواب , ولا سيما أن الأمن في المدينة مضطرب بسبب الخلاف بين العمدة ومدير البوليس فكلّ من الرجلين يسرهُ أن تتعدد الحوادث المزعجة ليُلقيّ المسؤليه علي الآخر .

ودخل الأسقف في هذه الأثناء وسمع الشطر الأخير من محاضرة مدام ماجوار عن وجوب الأخذ باسباب الحيطة و الحذر .

و لكنه لم يلقى بالاً إلى حديثها لأنه كان في شغل بالتفكير في أعمال اليوم التالي .

و أرادت باتستين أن تُرضي مدام چلوار دون أن تزعج أخاها ,

فقالت للأسقف :

- أَسَمِعتَ حديث مدام ما چلوار يا أخي ؟

فأجاب الأسقف في لطف :لا ,لا , ماذا كانت تقول ؟

فردت مدام ما چلوار قصتها في كثير من المبالغة ...

قالت : إن متشرداً مريباً عاري القدمين مخيف المنظر قد هبط على المدينة و أراد النزول في حانة لابار فطرده صاحب الحانه وإن هذا المتشرد قد شوهد وهو يتسلل في شوارع المدينة تحت جنح الظلام

- أحقاً ماتقولين يا مدام ماچلوار

- نعم ياسيدي و من رأيي ورأي الأنسه ...

فقاطعتها باتستين إنني لا ارى غير مايراه أخي .

فقالت مدام ماچلوار بحده : من رأيي أن هذه المنزل ليس مأموناً , وإذا أراد سيدي , فأنني أنطلق في الحال إلى "بولان" الحداد وأطلب منه إعادة المزاليج إلى أماكنها في الأبواب .

نعم سيدي ,يجب ان توصد الأبواب ولو هذه الليلة فقط فإن في استطاعة اي عابر سبيل أن يدفع الباب الخارجي بيده ويدخل ... وهذا مخيف ثم أن سيدي قد اعتاد أن يقول للطارق "أدخل" قبل أن يتحقق من أمره ... فإذا حدث في منتصف الليل أن ...

و في هذه اللحظة سمعوأ طرقاً على الباب فقال الأسقف :

أدخل .

فنفتح الباب بقوة ودخل الرجل الذي رايناه يبحث عن مأوى .

كان لا يزال حاملاً حقيبته و عصاه , و علي وجهه علامات التعب و السأم و في عينيه نظرة صارمة شرسة ابصرته مدام ما چلوار فارتجف جسمها , ولم تقوُ حتي على الصياح .

وحوّلت باتستين عينيها نحو القادم فَشَل الذعر حركتها لحظة لكنها مالبثت أن نظرت إلي اخيها وبدا و جهها يعود إلي هدوئه و البساطة.

أما الأسقف فإنه نظر إلي الزائر ببساطة و فتح فمه ليسأله عما يريد .

ولكن الزائر لم يترك له فرصه للكلام , بل نظر إلى المرأتين بسرعة ثم اسند يديه على عصاه وقال محدثاً الأسقف بصوت مرتفع :

- إن أسمي جان فالجان . وقد خرجت من "الليمان "بعد أن قضيت فيه تسعة عشر عاماً . خرجت منذ أربعة ايام

و اعتزمت الوصول إلي "بونتارلييه "ومنذ اربعة ايام وأنا أسير علي قدمي و قد قطعت اليوم أثنتي عشر مرحلة , و وصلت الليلة إلى هذه المدينة فقصدت الحانه ولكنني طردت منها لأنني أحمل التذكرة الصفراء التي يحملها سجين سابق ولانني أبرزت هذه التذكره في مكتب البوليس كما يتعين عليّ أن أفعل في كل مكان اصل إليه .

ولما ذهبت إلي حانة أخرى طردني صاحبها أيضا.

جميع الناس يطردونني و ولا أحد يريد أن يتصل بي .

وقد قصدت السجن , ولكن السجان رفض ايوائي ولجأت إلى حظيرة الكلاب ولكن الكلب عضني و طردني كانه إنسان وكأنه يعرف حقيقة أمري .

وخطر لي أن انام في الحقل , ثم تذكرت أن السماء قد تمطر وأنه لايوجد إله يمنع المطر من أن يهطل وأخيراً تمددت على حجر أما الكنيسة حتي مرت بي أحدى

النساء واشارت إلى بيتك , وقالت لي : "أطرقت بابه" .

فأي بيت هذا ؟ و هل هو حانة؟!

- انني أملك مائة و تسعة فرنكات و خمسة عشر سنتيماً ربحتها من عمل تسعة عشر عاماً في "الليمان" وأنا على استعداد لأن أدفع الأجر .

إنني متعب ...وجوعان . فهل تسمح لي بالبقاء هنا؟

فقال الأسقف : مدام ماچلوار ضعي صحن آخر على مائدة الطعام .

فاقترب الزائر خطوة أخرى و وهتف كأنه لم يفهم :

- صبراً لحظة... ألم تسمعني ياسيدي ؟ لقد قلت لك إنني سجين سابق , وإنني قادم من "الليمان ".

وأخرج من جيبة ورقة صفراء كبيره فبسطها بين يديه و أردف :

- هاهي تذكرتي الشخصية , إنها صفراء كما ترى . و فيها الكفاية لطردى من كل مكان اذهب إليه . هل تريد أن تقرأها دعني أتلو عليك ماجاء فيها , فأنني تعلمت القراءة في " الليمان" .

إليك ماجاء فيها ياسيدي ! " جان فالجان... مولود في "فافيرول" قضى في" الليمان" تسعه عشر عاماً , منها خمسة أعوام لا رتكابه جريمة السطو , و أربعة عشر عاماً لمحاولته الفرار أربع مرات ... وهو رجل شديد الخطر"

هل سمعت ياسيدي , إنني رجل شديد الخطر , و جميع الناس يجتنبوني و يطردونني فهل ترغب مع ذلك في إيوائي ؟!

هل تقدم لي طعاماً و فراشاً ؟ هل لديك اصطبل أقضي فيه ليلتي ؟

فقال الأسقف : مدام ماچلوار ...ضعي غطاء نظيفاً علي فراشي .

ولم تكن المرأتان تعرفن غير الطاعة , فأنصرفت مدام ماچلوار وتحول الأسقف إلى الزائر وقال إجلس بجانب الموقد ياسيدي وتدفأ . ستتناول طعاماً في التو و اللحظة.

فذهل الرجل و ظهر على وجهه مزيج من الشرود و الشك .

ثم هتف كالمجنون أحقاً تقول ؟! أتسمح لي بالبقاء ؟ وتقول لي "ياسيدي " بدلاً من أن تصيح بي و تصرخ في وجهي اذهب ايها الكلب "؟!

لقد كنت و اثقاً من أنك ستطردني كما طردني الآخرون , ولذلك صارحتك بحقيقة أمري .

وإذاً سأتناول طعاماً وسأرقد على فراش كما يرقد سائر الناس!

إنني لم أنم في فراش !

إنني لم أنم في فراش منذ تسعة عشر عاماً أنت في الحق رجل حسُن الخلق و سأدفع لك الأجر بسخاء ولكن بهذه المناسبة من أنت ؟! و مأسم هذه الحانة؟!

فأجاب الأسقف إنني قسّ , و أعيش في هذا البيت

- قسّ ؟! مأطيب قلبك ايها القس وما أشد غباوتي ! كان يجب أن الاحظ من ثيابك أنك من رجال الكنيسة.

وكان و هو يتكلم قد وضع الحقيبة و العصا في أحد الأركان , و أعاد الورقة الصفراء إلى جيبه , واستطرد : إنك رجل رحيم لا تحتقر الآخرين ياسيدي , فما أجمل أن يكون القسّ رحيماً ! إذاً ليس من الضروري أن أدفع أجراً !

فأجاب الأسقف : كلا , احتفظ بنقودك . في كم من الزمن ربحت هذه المائة و التسعة فرنكات ؟

- في تسعة عشر عاماً

- تسعة عشر عاماً !
و أفلتت من فم الأسقف آهة عميقة
ومضى الرجل في حديثه فقال : مازال المبلغ كله معي , وقد أنفقت , في هذه الأيام الأربعة , خمسة و عشرين سنتيماً ربحتها من تفريغ عربات النقل في "جراس"
وفي هذه اللحظة , دخلت مدام ماجلوار ووضعت على المائدة ملعقة من الفضة .
قال الأسقف : مدام ماجلوار , أرجو أن تضعي المائدة بالقرب من الموقد .
ثم التفت إلى الزائر وقال : إن الريح شديدة هذه الليلة , ولابد من أنك تشعر بالبرد ياسيدي ...
وكانت اسارير وجه الرجل تنبسط كلما سمع كلمة "سيدي" كان شديد الحاجة الى الاحترام تعطش الظمآن إلى الماء
قال الأسقف : هذا المصباح يرسل ضوءاً ضئيلاً يامدام ماجلوار.
فأدركت مدام ما جلوار غرضه و جاءت بالشمعدانين الفضيين واضاءتهما
قال الرجل : إنك رجل كريم ياسيدي الأسقف , فأنت لا تحتقرني , وتستقبلني في بيتك كأنني صديقك , وتضيء هذه الشموع الكثيرة إرضاء لي كل ذلك على الرغم من أنني صارحتك بحقيقة أمري وذكرت لك من اين أنا قادم
- فمسك الأسقف يده بلطف وقال :
لم تكن ثمة ضرورة لأن تذكر لي من اين أنت قادم , فهذا البيت ليس بيتي و لكنه بيت الله , و هذا الباب لا يسأل الداخل عن اسمه وإنما يسأله عن همومه ومتاعبه , وأنت رجل متعب وجائع , فأهلا بك سهلاً و ليس لك أن تشكرني أو تزعم أنني استقبلك في بيت , فهذا بيت كل من يحتاج إلى ملجأ , هذا بيتك أكثر منه بيتي , وكل مافيه لك , فما حاجتي إلى معرفة اسمك وماضيك ؟! وبعد , فأنني كنت أعرفك قبل أن تذكر لي شيئاً من أمرك .
ففتح الرجل عينيه في دهشة و هتف : أحقا إنك تعرفني ؟!
فأجاب الأسقف : نعم أعرف أنك أخي .
فهتف الرجل : ياسيدي الأسقف , إنني كنت اشعر بالجوع عندما دخلتُ هذا المكان , ولكنني اصبحت من كرمك لا أدري بماذا اشعر الآن !
فنظر إليه الأسقف طويلاً , ثم سأل :هل عانيت كثيراً؟!
فصاح الرجل : أتسألنني كم عانيت من ثقل السلاسل ؟ ومن البرد و الحر , و الضرب و اللطم , و الاحتقار و المذلة ,و العمل الشاق ؟! لقد كانت الكلاب اسعد مني.
- نعم إنك قادم من مكان مليء بالأحزان و لكن أصغِ إليَ , إن في السماء من السعادة للمجرم التائب أكثر مما فيها لمائة من الشرفاء الأمناء . فإذا خرجت من الدنيا بقلب مفعم بالحنق على إخوانك البشر فإنك تكون جدير بالاشفاق وإذا خرجت منها بقلب مليء بالسلام و الطمأنينة , كنت حقيقاً بأضعاف مايستحق أي و احد منا .
وفي هذه الأثناء كانت مدام ماجلوار قد اعدت الطعام , وهو يتألف من الحساء و اللحم و الجبن و الخبز و قليل من التين .
فهتف الأسقف وقد انبسطت اسارير وجهه النبيل .
هلموا إلى المائدة .
ولكنه ماكاد يستوي في مقعده حتي أردف :
- يُخيل إلي أن المائدة ينقصها شيء .
و الواقع أن مدام ما جلوار لم تكن قد وضعت على المائدة إلا الضروري جداً من الصحاف الفضية . وقد جرت العادة إذا جاء زائر أن تحفل المائدة بالصحاف الفضية جميعاً حيلة بريئة كانت تُكسب فقر الأسقف مظهراً من الغنى .
وفهمت مدام ماجلوار . و انطلقت من الغرفة , ثم عادت بعد قليل وبين يديها طائفة من الملاعق و الصحاف .
أقبل الرجل على الطعام يلتهمه بنهم دون أن ينطق بكلمة أو يلقي بالاً إلى أحد .
ولكنه قال بعد الطعام :
- ياسيد ي الأسقف إنني قانع بهذا الطعام , ولكني لا أكتمك أن الطعام الذي يقدم لنزلاء الحانة أفضل من هذا بكثير .
فرفعت باتستين حاجبيها قليلاً , وأجاب الأسقف :
- لعل نزلاء الحانة يؤدون عملاً اشق من عملي؟
فقال الرجل : كلا إنهم أكثر منك مالاً .
و إني أرى في وضوح

أنك فقير , بل وربما لم تكن اسقفاً كما تزعم ولو كانت في السماء عدالة لوجب أن تكون اسقفاً
فأجاب الأسقف في هدوء : إن في السماء عدالة.
و استطرد بعد لحظة :
- انك قلت يامسيو جان فالجان إنك تقصد إلى بونتارلييه ؟!
- نعم . ويجب أن استانف رحلتي قبل بزوغ الشمس . و هي رحلة شاقة , لأن الجو شديد الحرارة نهاراً بقدر ماهو شديد البرودة ليلاً.
فقال الأسقف : إذاً فأنت في اشد الحاجة إلى الراحه .
و تناول أحد الشمعدانين , وقدم الشمعدان الآخر إلى ضيفه و قال :
- دعني أدلك على فراشك .
و اجتاز به الغرف المجاورة , حيث فراشة وحيث كانت مدام ما چلوار تعيد الصحاف الفضية إلى مكانها في الخزانة , ونفذ به إلى الغرفة التالية , حيث الفراش الذي أُعِدَّ للضيوف .
قال الأسقف محدثاً ضيفة :
- أتمنى لك ليلة سعيدة ياسيدي و آمل ألا ترحل غداً قبل أن تتناول قدحاً من اللبن .
فأجاب الرجل شكراً لك ياسيدي .
ثم انقلبت سحنته فجأة , و انبعث من عينيه الثاقبتين نظره مخيفة
لو ابصرتها المرأتان لصعقتا هلعاً و خوفاً , و قال محدثاً الأسقف , وقد عقد ساعدية فوق صدره :
-ما هذا ؟ أتسمح لي بالمبيت بالقرب منك؟
و أفلتت من فمه ضحكة و حشية و استطرد :
- هل فكرت في الأمر ملياً؟ ما يدريك أنني لم أرتكب جريمة قتل ؟
فأجاب الأسقف : ذلك من شؤون الله .
و تمتم صلاة قصيرة , و بسط يده نحو الرجل و باركه و لكن الرجل لم يحنى راسه كما هي العادة .
و انصرف الأسقف دون أن ينظر وراءه .
وبعد لحظة كان يمشي في الحديقة مشية الحالم المتأمل المفكر في الاسرار الرائعة التي اودعها الله في جوف الليل .
أما الرجل و قد أثر به التعب فلم يفكر في التخلص من ثيابة الباليه . وما كاد يطفئ الشموع ويتمدد على الفراش المريح حتي غلبه النوم
و حول منتصف الليل استيقظ جان فالجان

كان قد انحدر من عائله فقيرة في فافيرول , ومات عنه ابواه و هو صغير فكفلته أخته وما زالت تعنى به حتى مات زوجها و ترك لها سبعة أولاد أكبرهم لايتجاوز الثامنة من عمره و اصغرهم لايزال في الشهور الأولى وكان جان فالجان قد بلغ الخامسه و العشرين من عمره , فحل محل الوالد , و توفر جهد طاقته على مساعدة الأخت التي ساعدته و فعل ذلك ببساطة و بدافع الشعور بالواجب .
وهكذا قضى الفتى ايام شبابه كما يقضى الفقراء الكادحون أيامهم لقاء أجْرٍ لايكاد يكفى قوت رجل بمفرده فضلاً عن أخته و أبنائها السبعة , و كان يعود في المساء متعباً
منهوك القوى , فيتناول الحساء الدافئ و قطعة من الخبز دون أن ينطق بكلمة و كثيراً ما كانت أخته تلتقط من صحنه أفضل قطعة من طعامه فتقدمها إلى ابنها و ابنتها ويرى جان فالجان ذلك ويتظاهر بأنه لايرى .

كان يشتغل بالتحطيب و الحصاد و حراثة الأرض و يفعل كل ما يستطيع لإطعام ذلك الجيش المحزن من الأطفال الجياع , إلى أن جاء شتاء شديد القسوة لم يوفق فيه جان إلى عمل فبات الأطفال بلا طعام .
سبعة أطفال في البرد القارس , وليس في الدار قطعة من الخبز و ذات ليلة كان "موبير" الخباز يستعد للنوم حين سمع صدمة هنيفة تحطم نافذه حانوته . و راى يداً تمتد من الزجاج المحطم . و تختطف رغيفاً . فصاح به مستنجداً و انطلق في أثر اللص , وامسك به كان اللص قد ألقى الرغيف و لكن بعد أن خدش الزجاج ساعده و اسال دمه و سجل عليه جرمه .
كان هذا اللص جان فالجان .

و حوكم جان فالجان بتهمة السّطو وحُكم عليه بالسجن خمسة أعوام . و قال أحد الذين أبصروه حين غلّ عنقة بحلقة من حديد تمهيداً لنقله إلى " ليمان طولون" إنه كان واجماً دهشا و لايكاد يفهم شيئاً ما يدور حوله , و عندما فرغ حداد السجن من تطويق عنقة و بكى حتى خنقته العبرات , و راح يتمتم بين الفينة و الفينة :
- لقد كنت أشتغل بالتحطيب فى فافيرول ...
ثم شوهد وهو يرفع يده اليمنى و يخفضها سبع مرات بالتدريج , كمن يمسُ رؤوس سبعة أطفال على التوالى وكأنه أراد أن يقول أنه مهما تكن جريمته , فأنه لم يرتكبها إلا لإطعام الاطفال السبعة .
و و صل طولون بعد رحلة استغرقت سبعة و عشرين يوماً . و هناك زالت الحياة التي اعتادها , بل زال الزيّ الذي عُرف به فاصبح رقماً بعد أن كان إنساناً

وفي نهاية العام الرابع تمكن جان فالجان من الفرار و هام على و جهه في الحقول يومين كاملين , ثم قبض عليه و أعيد إلى ليمان . و حُكم عليه بالسجن ثلاثة أعوام أخرى لاقترافه جريمة الفرار . و أعاد الكرَة في العام السادس و هرب للمرة الثانية و لكنه لم يدر إلى اين يذهب و وجده مطاردوه مختبئاً في سفينة ماتزال قيد البناء فاعتقلوه , و حكم عليه في هذا المرة بالسجن خمسة ايام .حاول الفرار مرتين بعد ذلك . وأخفق و عوقب بالسجن ثلاثة أعوام عن كل محاولة .
وبعد تسعة عشرة عاما أُطلق سراحه من السجن الذي دخله لأنه سرق رغيفاً
دخل السجن باكياً خائفاً مرجّفاً و غادرة متجهماً ناقماً
ولم يفقد خلال ذلك شئياً من قوتة البدنية التي كانت مضرب المثال كان يحمل الأثقال مايعجز عنه اربعة رجال و يستخدم ظهره في كثير من الأحيان في مايستخدم الاله الرافعه لحمله .
وكان قليل الكلام , لايضحك إلا نادراً وإذا ضحك انبعث منه صوت كقهقهة الأبالسة , و في ماعدا ذلك كان دائم الوجوم , كمن ينظر دائماً إلي شئ بعيد مخيف . و الواقع أنه كان منصرفاً عقله المتعب و نفسه المحطمة و حواسه الشاردة إلى تأمل ذلك الصرح المخيف الذي يوشك أن ينقض عليه و يهشمه و تلك الأكوام الهائله من القوانين و الحقائق التي تخيفه و التى هي الهرم الذى نسميه "المدنية" كان يتأمل ذلك كله ويفكر فيه ... و يحاول أن يفهمه , و لكن هل تستطيع حبُة الحنطة أن تفهم لماذا وُضعت بين شقي الرحى ؟

كانت تأملاته و أفكاره حلقة مفزعه تنتهي إلي حيث بدأت وتبتدئ
من نقطة و أحدة لا تتغير هي كراهة القوانين البشرية . تلك الكراهة التي تتطور مع الزمن كراهة للمجتمع , ثم كراهة للبشر . فكراهة للخليقة , تعبر عنها رغبة ملحة مهمة في إلحاق الأذى باي إنسان .
وهكذا لم يبالغ القوم حين سجلو عليه الورقة الصفراء انه رجل شديد الخطر .
وقد مات ضميره بالتدريج و أخذت مشاعره و أحساساته في الذبول حتي جفت
ومن جفت مشاعره نضبت دموعه و قد انقضى تسعة عشر عاماً منذ بكي جان فالجان للمرة الاخيرة .
ولما قيل له "اذهب فانت حر " تألق فى ظلمات نفسه شعاع من الأمل و الايمان بحياة جديدة حرة, لم اضمحل هذا الامل و تلاشى حين فهم معنى هذه الحرية المحدودة بورقة صفراء و امتزج اليأس في نفسه بالمرارة فقد قدر اجره عن عمله في الليمان بمائه و سبعين فرنكاً و فاته أن ايام العطله و الأعياد لا اجر لها فلما نقدوه مائه و تسعة فرنكات فقط و لم يستطع تعليل ذلك و توهم أن القوم قد سرقوه أخيراً كما ظلموه اولاً . استيقظ جان فالجان حول منتصف الليل لسبب واحد هو أن الفراش كان وثيراً ولم يكن قد رقد في فراش و ثير منذ عشرين عاما فأقلقته هذه النعمه و أقضت مضجعه . فتح عينيه و دار بهما في الظلام ثم أغمضها و حاول أن ينام مرة أخرى ولكنه لم يستطع .
و تزاحمت في راسه الأفكار و الخواطر و لكنها تبددت جميعاً أمام خاطر واحد ملأ ذهنه وشغل عقله .
كان قد راى مدام جلوار وهي تضع الملاعق و الاوانى الفضيه في الخزانة . و لفتته بصفه خاصة اواني الحساء الكبيرة التي تساوي مئتي فرنك على الأقل اي ضعف المبلغ الذي ربحه بعرق جبينه خلال تسعة عشر عاماً و ازعجه أن يشعر بوجود هذه الثروة على مقربة منه فكر طويلاً في هذه الصحاف وقام في نفسه صراع , ولكنه كان نضالاً قصير الأجل .
و دقت ساعة الكاتدرائية ففتح عينيه فجأة و استوى جالساً على حافة الفراش . و بقى كذلك ساعة أو بعض ساعة .
و هو بين مقُدم و ممتنع و تلك الخواطر الشريرة المغرية تحتل ذهنه تارة و تجلو عنه تارة أخرى و لكي تعاوده اثبت قدما و اشد تغلغلاً إلى اعماقه إلى أن دقت الساعة ثلاث دقات فوثب من مكان كمن لدغته عقرب ... وكأن دقات الساعة هاتف خفي يهتف به " هلم إلى العمل " ووقف لحظة أخرى اسير الضياع ثم أنصت بدقة كان الهدوء شاملاً فلا صوت ولا

حركة .. و القمر يطل من بين السحب تارة و يحتجب وراءها تارة اخرى .
ومشى جان فالجان إلي نافذه الغرفه .. و فحصها فوجدها خاليه من القضبان الحديدية و حديقة المنزل تترامي تحتها .
و اكتسح الحديقة بعينيه الحديديتين فألفاها محاطة بجدار منخفض يسهل اجتيازه
خلع حذاءه , ووضعه في حقيبته , و تناول من الحقيبة قضيباً
حديدياً صغيراً اطبق عليه اصابعه بقوة و تسلل إلي الغرفه الجاورة وهو يحبس أنفاسه .
و دفع الباب بيده بلطف فانفتح ولكنه أحدث صوتاً ثقب أذنيه كأنه صوت الصور في يوم الدينونية . و خيل إليه في ذعره أن الحياة قد دبت في الباب فنبح كالكلب لايقاظ النيام و تحذير الغافلين .
جمد في مكانه ... و دوت نبضاته في أذنيه كدوي المطارق ,و خيل إليه أن أنفاساً تنطلق من رئيته في زئير كزئير الريح في اشرعة السفينة . ومرت بضع دقائق ظل الباب في خلالها مفتوحاً
ثم أجال جان فالجان البصر في جوانب الغرفة فألفى كل شيء هادئاً ساكنا .
إذا لم ينبه صرير الباب أحداً ؟ وإذا قد زال الخطر؟!
و على الرغم من الأضطراب الذي كان مايزال يعصف في اعماقة فإنه لم ينكص علي عقيبة بل لم يفكر في أن يفعل ذلك .كان كل تفكيره منصبا على الفراغ باسرع مايمكن من المهمة التي حزم عليها رايه .
دخل الغرفه فوجد فيها كل شيء هادئاً وراي في الظلام اشياء غير و اضحه فتقدم بهدوء وحذر و اجتنب جهد الطاقة لئلا يصطدم بالاثاث . وسمع أنفاس الأسقف النائم و هي تتردد في هدوء و انتظام .
ثم وقف فجاة ,فقد وجد نفسه لصق الفراش . كان قد بلغ إليه باسرع مما توقع .

ثم مدت البيعه إصبعها و للطبيعه حكمتها الخفية...فإنها تمد إصبعها في بعض الأحيان في الوقت المناسب كأنما تتحملنا على التفكير و التروّى في مانحن فاعلون .
كانت السحب الكثيفة تحجب السماء خلال الساعة الأخيرة ولكن ماكاد جان فالجان يقترب من فراش الأسقف حتي تبدو السحب كأنما عَمْدًا و أرسل القمر من خلال النافذة شعاعاً اضاء و جهه الأسقف الهادئ.
كان الرجل نائما نوم الأبرار وراسه مسند إلى الوساده في هدوء و طمأنينة ويده اليمنى مدلاة من جانب الفراش و وجهه النبيل مشرعا بنور الأمل و الثقة و الايمان .
و وقف جان فالجان في الظلام و القضيب الحديدي في يده و أذهله هذا الوجه الهادئ المضئ . لم ير في حياته و جهاً كهذا الوجه و لا ثقة و طمأنينة كثقة هذه الشيخ و طمأنينته فـ أدهشة ما رأى . و أكبر الظن أن أحداً لم يشهد منظراً أروع من هذا منظر ضخم مقبل على جريمة يطل على ضمير هادئ طاهر مطمئن.
وظل الأسقف في نومه الهادئ رغم النظرة المخيفة التي حدجه بها المجرم .
وسقطت اشعة القمر على تمثال المسيح المصلوب فبدا باسطاً دراعيه كأنما ليبارك أحد الرجلين ويصفح عن الأخر .
و فجأة , تحرك جان فالجان و مر بالفراش بسرعة دون أن ينظر إلى روعة الأسقف
واقترب من الخزانة و رفع القضيب الحديدي في يدة استعداداً ليخلع بابها ولكنه وجده مفتوحاً , فاختطف سلة الأواني الفضية , ليسرع إلي غرفته وأفرغ محتويات السلة في حقيبته , و ألقي بالسلة من النافذة . ثم حمل الحقيبة ووثب إلى الحديقة و لاذ بالفرار .

لما اشرقت شمس الصباح كان الأسقف يسير في حديقته حين أقبلت عليه مدام ماجلوار و هي تلهث ,وعلى وجهها علامات الفزع .
صاحت : أتعرف اين سلة اللآواني ياسيدي ؟
فأجاب : الأسقف : نعم .
- حمدلله !... فإنني لم أعلم ما حدث لها .
وكان الأسقف قد وجد السلة بين الأزهار فقدمها إلى مدام ماجلوار و هو يقول
ها هي السلة ؟
- أنها فارغة ... فأين الصحاف ؟
فهتف الأسقف : آه ! أنت منزعجة من أجل الصحاف ؟ إنني أعرف مكانها .

- يا إلهي ! أذا فقد سُرقت وسارقها هو الرجل الذي زاره أمس .
و اسرعت إلى الغرفة التي قضي فيها جان فالجان ليلته ثم عادت مسرعة .
وكان الأسقف يعالج عوداً من الزهر حطمته السلة فصاحت به مدام ما جلوار :
-سيدي لقد ذهب الرجل و أختطف الصحاف!
و وقع بصرها على الأزهار و الأعشاب التي حطمتها اقدام الرجل و استطردت : إنه فر من هنا بعد أن سرق الصحاف
فصمت الأسقف لحظة : ثم قال بلطف :
- بهذه المناسبة و هل كانت الآواني هي لنا ؟
فصمتت مدام ماجلوار , واستطرد الأسقف بعد سكون قصير :
يا مدام ماجلوار , إنني كنت مخطئاً حين احتفظت بهذه الصحاف التي هي ملك للفقراء , ومن كان الرجل الذي قضى الليلة في ضيافتنا ؟ إنه ملك الفقراء بغير شك .
فهتفت مدام ماجلوار : يا إلهي ! إن ضياع الصحاف لايهمني وكذلك لايهم الآنسه باتستين . و لكننا نشعر بالأسف لك ياسيدي
أو كيف تتناول طعامك بعد أن سُرقت الملاعق الفضية .
فنظر الأسقف في دهشة وسأل : كيف ؟ الا توجد ملاعق من طين؟
فقلبت مدام ماجلوار شفتيها بازدراء وقالت : إن للطين رائحة عتيقة .
- ألا توجد ملاعق من حديد ؟
- إن للحديد طعماً غير مقبول .
- إذاً لتكن ملاعق من خشب .
وبعد بضع دقائق كان الأسقف يتناول طعام إفطاره , فقال مداعباً مدام ماجلوار :
- أرى أن الإنسان ليس بحاجة حتى إلى ملعقة من خشب لكي يغمس قطعة من الخبز في قدح اللبن .
فهتفت مدام ماجلوار : ياإلهي ! ... كيف استقبلت هذا الرجل يا سيدى وسمحت له أن ينام في غرفة قريبة منك ؟
إنني أحمد الله على أنه قنع بارتكاب جريمة السرقة .
وكان الأسقف يهم بالنهوض عن مائدة الطعام حين سمع طرقاً على الباب فقال في هدوء:
- أدخل ! وفتح الباب فرأى الأسقف منظراً غريباً صاخبًا
رأي ثلاثة من رجال الشرطة يدفعون أمامهم رجلاً عرف فيه الأسقف جان فالجان .
وتقدم واحداً منهم و قال و هو يؤدّي التحية للأسقف :
- طاب يومك ياسيدي الأسقف .
وهنا هتف جان فالجان في ذهول تبلد إذا فهو اسقف حقاً
وصاح به الشرطي : صه ياهذا !
وكان الأسقف قد نهض من مقعده و اقترب بالسرعه التى تسمح بها شيخوخته .
قال و هو ينظر إلى جان فالجان أهدا أنت ياسيدي ؟! يسرّني أن اراك . لقد أعطيتك الشمعدانين و هما أيضاً من الفضة و ثمنهما لا يقل عن مائتي فرنك , فلماذا لم تأخذهما مع الآواني ؟
ففتح جان فالجان عينيه . ورمق الأسقف بنظره تعجز لغة البشر عن التعبير عنها .
قال الشرطي :إذا قد قال هذا الرجل الصدق ياسيدي ؟ إننا قابلناه في الطريق و خيل إلينا أنه يفر فشككنا في أمره و ألقينا القبض عليه . و وجدنا معه هذه الصحاف التي ..
فقاطعه الأسقف و على شفته ابتسامة .
وقال لكم أنه حصل على هذه الصحاف من قس عجوز استضافه في
في منزله هذه الليله .. فجئتم به إلىّ أليس كذلك ؟ لقد أخطأتم .
قال الشرطي : وفي هذه الحاله هل يجب أن نطلق سراحه ؟
فأجاب الأسقف طبعاً.
فترك الشرطي ساعدّي جان فالجان فترنح هذا في مكانه كالسكران و غمغم بلهجه لاتكاد تُفهم و بصوت من يتكلم وهو نائم:
أحقاً إنني حرّ؟

فقال أحد الشرطة : نعم ..ألا تفهم ؟
قال الأسقف : ايها الصديق يجب أن تأخذ الشمعدانين قبل أن تذهب .
وجاء بالشمعدانين وقدمهما إلى جان فالجان .
وشهدت المرأتان كل ذلك ولم تأتِ إحداهما بحركة أو تنطق بكلمة تزعج الأسقف .
وكان جان فالجان يرتجف من قمة راسه إلى أخمص قدميه فتناول الشمعدانين بحركة آليه , و في عينيه نظره شاردة .
قال الأسقف والآن اذهب بسلام ايها الصديق وإذا عدت فلا ضرورة لأن تسلك طريق الحديقة إذ في استطاعتك أن تدخل من الباب الأمامي فهذا الباب مفتوح لك ليل نهار .
ثم تحول إلى الشرطة وقال : في استطاعتكم أن تنصرفوا ايها السادة.
فأطاعوا . وبدا على جان فالجان كانه يوشك أن ينهار و يفقد الرشد .
فاقترب منه الأسقف وقال له بصوت خافت :
- و لا تنس ابداً ياصديقى أنك وعدتني بأن تجعل من هذا المال سبيلك إلى الأمانه و الشرف .
فلزم جان فالجان الصمت .
لم يذكر أنه وعد الأسقف بشئ من هذه .
و استطرد الأسقف و هو يتمهل عند كل كلمة كانما ليؤكدها :
- جان فالجان , يا أخي .. إنك لن تكون بعد الآن من أهل الشر . إنني الآن ابتاع روحك و أنقذها من الضياع و الهلاك و أردّها إلى الله .
وكان جان فالجان ذاهلا متبلداً فانصرف دون أن ينطق بكلمة ومشى بين الحقول مسرعاً على غير هدى . و قضى النهار شارداً منجولاً ولم يتناول شيئاً من الطعام ولكنه لم يشعر بالجوع .
كانت جمجمته ميداناً لحرب شديدة مهلكة وأحس بنوع من الغضب ولكنه لم يدر على أي إنسان يصب جام غضبه .
وقضى النهار كله تتنازعه مشاعر و أحساسات لا توصف . و أقبل الليل فتهالك على الأرض وسط الشجر الملتف خارج المدينة .و استمر يفكر ويتأمل حتى أزعج تأملاته صوت مرح أخذ يدنو من الأشجار فحول رأسه , و راى غلاماً في نحو العاشرة يحمل قيثارة ويغني بصوت طروب .كان من أولئك الغلمان المرحين الذين يطوفون بالقرى و يمتعون الآذان بغنائهم و موسيقاهم . يعيشون بما يجتمع لهم من كرم الناس .
وكان الغلام يكف عن الغناء بين الفينة و الفينة ليعبث بقطعة من النقوذ الفضية لعلها كل ثروته فيقذف بها في القضاء ثم يتلقفها على ظاهر يده . وقذف الغلام بقطعة النقود الفضية و أراد أن يتلقفها ولكنها انزلقت من يده وتدحرجت نحو جان فالجان فوضع هذا قدمه فوقها.
ولكن الغلام أبصره ولم يدهش , وقصد تواً إلى جان فالجان . كان المكان مهجوراً لاترى فيه العين غير الأشجار و الأعشاب المتعانقه و الطريق الضيق المؤدي إلى القريه و ليس من صوت غير تغريد اسراب الطير على اغضان الشجر .
قال الغلام ببساطة الأطفال : أعطني نقودي ياسيدي .
فسأله جان فالجان : ما أسمك؟
- أسمي "جرفيه "ياسيدي
- اذهب في سبيلك .
أرجو أن تعطيني نقودي ياسيدي .
فأطرق جان فالجان برأسه ولم ينطق بكلمة.
صاح الغلام : أعطني نقودي ياسيدي , أعطني قطعتي الفضية .
وبدا على جان فالجان أنه لم يسمعه , لأن الغلام مالبث أن أمسك بكتفيه , وراح يهزه بشدة , ويحاول في الوقت نفسه أن يزحزح القدم الثقيلة التي استقرت فوق قطعة النقود .
صاح الغلام بصوت يرتجف : أريد نقودي! أريد قطعتي الفضية !
وبدأ يبكي . فرفع جان فالجان رأسه .
كان لايزال جالساً على الأرض ... فنظر إلى الغلام بعينين شاردتين وارتسم على وجهه شئ من الدهشة . ثم مدّ يده نحو عصاه و صاح بصوت مخيف : من هذا !؟
فأجاب الغلام : أنا جرفيه ياسيدي . أرجوك أن ترد إلى نقودي أتوسل إليك أن ترفع قدمك .
وبقى جان فالجان جامداً في مكانه كالصنم ... وصرخ الغلام غاضباً :

- ألاترفع قدمك؟!

فصاح جان فالجان : أما زلت هنا؟!

ووثب و اقفاً . و أردف وقدمُه ما تزال على قطعة النقود :

- الا تريد أن تنصرف ؟!

فذعر الغلام و بدأ يرجّف من قمة راسه إلى أخمص قدميه .

وبقي في ذهول وذُعر لحظة . ثم أطلق ساقيه للريح دون أن يجروء على الصياح أو التحول إلى الوراء .

وانحدرت الشمس نحو الأفق , وبدأ الظلام يخيم حول جان فالجان. لم يكن قد تناول شيئاً من الطعام طوال ذالك اليوم , ولعله كان محموماً . وأخيراً أحس ببرودة الليل . فخرج من جموده فجأة وأرخى قبعته على رأسه و تناول عصاه , و هم بالسير .وعندئذ وقع بصره على قطعة النقود الفضية , و كانت تلمع بين العشب فمرت في جسده رجفة قوية ارتد إلى الوراء خطوة دون أن يحول بصره عن قطعة النقود ثم انحنى و التقطها , وراح ينظر حوله بين الأشجار ويرجّف كوحش قادم يبحث عن مأوى .ولكنه لم ير شيئاً فقد هبط الظلام وحجب الاشياء التي تُرى عن ناظرية .

و فجأة تحرك من مكانه , وشرع يسير في ناحية من المؤكد أنها الناحية التي توارى فيها الغلام .و اجتاز مسافة قصيرة ثم وقف ونظر حوله , و صاح بكل قوته

- جرفيه ... جرفيه...

وصمت ... وانتظر ... و أرهف أذنية ... ولكنه لم يسمع جواباً.

فأستأنف السير , ثم شرع يعدو ويقف بين الفنية و الفنية , و يصيح بصوت المحتضر: جرفيه ... جرفيه...

ولو سمع الغلام صوته لاستولى عليه الذعر .. و منعه الخوف من تلبية ندائه .

عندما انصرف جان فالجان من بيت الأسقف , كان في حاله يعجز فيها عن تقديم حساب عن العواطف المختلطة التي تعصف في أعماقه . و قد حاول المرة بعد الأخرى أن يصم أذنيه عن الكلمات الكريمة التي صبَّها الأسقف في مسمعيه حين قال :

"لاتنسَ أبداً ياصديقي أنك و عدتني بأن تجعل من هذا المال سبيلك إلى الأمانه و الشرف .

إنك لن تكون بعد الآن من أهل الشر . إنني الآن ابتاعُ روحك وأنقذها من الضياع و الهلاك و أردها إلى الله "

كما حاول أن يهدم مغزاها النبيل بمعول الكبرياء التي هي ملجأ الشر في نفس الأنسان و لكن هذه الكلمات ظلت تدوي في أذنيه دويّ الرعد و ظل نورها يشق ظلمات نفسه كوميض البرق في الليلة الحالكة .أحس بالفطرة أن عفو الأسقف كان عاصفة هزت كيانة هزًا عنيفاً , وأن صلابته أمام هذه العفو هي سبيله الأوحد للاحتفاظ بالكراهية للمجتمع , تلك الكراهية التي تملأ نفسه ارتياحاً وشماته , وأن المعركة التي بدأت تنشب بين خبثه وطيبة الأسقف هي المعركة الفاصله في تعزيز مصيره , فإما النصر و إما الهزيمة , إما طريق الشر , وإما طريق الخير .

وهكذا قضى النهار و هو يمشي مشية النمل , و لايعلم غير الله ماذا كان يفعل في قرارة نفسه و لعله كان يصغي إلى ذلك الهاتف الخفي الذي يحرك ضمير الأنسان في بعض مراحل حياته . و لعله شعر بأنه صار في مفترق طريقين لا ثالث لهما : إما أن يصبح شريراً , وأما أن يسمو فوق الأسقف نفسه , أو ينحطَّ إلى مرتبة دون مرتبة السجين الخارج من " الليمان"

على أن شيئاً واحداً كان مؤكداً وهو أنه صار في خلال هذه المعركة الفاصله رجلاً غير الرجل , و لم يكن في استطاعته أن ينكر أن الأسقف تحدث إليه , وأنه شّد على يديه .وبينما كانت المعركة في عنفوانها قابل جرفيه الصغير و اخذ قطعته الفضية فلماذا فعل ذلك ؟! لم يكن في استطاعته أن يفسر هذه الجريمة ولعله ارتكبها بالفطرة أو لعله لم يرتكبها على الإطلاق وإنما ارتكبها الشيطان الخبيث القابع في ركن نفسه المظلمة فما أن استيقظ ضميره حتى هالته هذه الفعله الوحشية الخاطئة فصرخ ألماً و فزعًا .

بكى جان فالجان طويلاً كما تبكي المرأة الضعيفه وكما يبكي الطفل المذعور و أزال البكاء عن صدره عبئاً ثقيلاً وظهر ذهنه من السحب المظلمة التي تخُيم عليه فبدا يفكر في جو من الهدوء و استعرض حياته الماضيه و غلطته الأولى و تفكيره الطويل وإطلاق سراحه , وما اقترن به ذلك كله من نقمة و موجدة ورغبة في الانتقام .

وفكر في ما حدث في بيت الأسقف ثم في عدوانه على نقود الغلام , و بدت هذه الجريمة الأخيره في نظره أدل على الوحشية و الحقارة من كل جريمة ارتكبها قبل ذلك لانه اقدم عليها بعد عفو الأسقف .استعرض كل ذلك في ضوء جديد لم يرهُ قبل ذلك ونظر إلى حياته في هذا الضوء الجديد فبدت له هائلة مزعجة وتغلغل في أعماق نفسه , فراها مظلمة مخيفة.كان كمن يرى الشيطان على ضوء الجنة .و لا أحد يعلم كم بقي جان فالجان هكذا . و لا أحد يعلم ماذا فعل و إلى اين ذهب بعد ذلك .. و لكن قيل في العام التالى إن أحدي مركبات البريد وصلت إلى "بريتول" في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي , وإن هذه المركبه مرت أمام الكنيسة , فرأى سائقها رجلاً راكعاً على الأرض أما باب الأسقف , وقد هبط رأسه فوق صدره كمن يصلي ويبتهل إلى الله .



كانو أربعة من الشبان لايختلفون عن أمثالهم من طلاب العلم في باريس , فهم نماذج عادية من الشباب الذين لاقيمة لهم و الذين تصادفهم في طريقك كل يوم ,

واسماءهم :"تولومس" و "لستوليبه" و " فاميل"و "بلاشفيل" , و كانت لكل منهم عشيقة بطبيعة الحال .

فبلاشفيل يحب "فافوريت" و لستوليبه يحب " داليا"و فاميل يحب "جوزفين" , "و " تولوميس يحب "فانتين".

وفافوريت و داليا و جوزفين و فانتين هن أربع فتيات حسان , تعلو و جوههن أثر ظاهر من الكد و العناء , ويضئ في نفوسهن شعلة من الأمانة التي تعمر في المرأة بعد السقطة الأولى .

وكانت بينهم واحده تلقب بالصغيرة لأنها أصغر رفيقاتها سنًا و أخرى تلقب بالعجوز لانها اكبرهن سنًا , وإن لم تتجاوز الثالثة و العشرين . فأما الكبيرات فكن أعلم بشؤون الحياة من الصغيرة فانتين ,

وأكثر منها تجارب , وأدرى بطبائع الخلق , و أما فانتين فإن مغامرتها مع "تولوميس "كانت السقطة الأولى .

برزت "فانتين "من أوحال الحياة , وخرجت من قرارة المجتمع و على وجهها طابع الماضي التعس , و المستقبل المجهول .

ولدت في قرية "مونورميل" ولكن من أي ابوين ؟ لا احد يعلم ولا هي تعلم .

وعُرفت باسم "فانتين "لأنه الأسم الذي أطلقة عليها عابر سبيل رآها تعدو في الشارع عارية القدمين .

و اشتغلت "فانتين" بالخدمة في المنازال و الفلاحة في الحقول . و بلغت الخامسة عشرة من عمرها , فرحلت إلى باريس " لتجرب حظها" وكانت على جانب من الرشاقة و الجمال , و لها ثروة عظيمة من ذهب شعرها و لالى أسنانها .

وقد اختفظت بجمالها و طهارتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً فأشتغلت لتُشبع جوعها ثم أحُبت لتشبع قلبها , وكانت مغامرتها مع "تولوميس" تسلية بالنسبة إليه , و جنوناً بالنسبة إليها.

و تكونت من بلاشفيل و فاميل و لستوليه عصبة تزعمها تولوميس لأنه كان أوسع الجميع حيلة و اسرعهم خاطراً و أقدمهم في طلب العلم و قد تجعد و جهه وفقد اسنانه وسقط شعر راسه وهو مايزال يطلب العلم .

قال تولوميس لرفقائه ذات يوم : لقد مضى عام منذ و عدنا فانتين و داليا و جوزفين و فافوريت بمفأجاة طريفة , و هن يتحدثن دائماً عن هذه المفاجاة ويُطالبنا بالوفاء بوعدنا .ثم إن اباءنا يكتبوب إلينا على الدوام و يحثوننا على العودة إلى أحضانهم و أعتقد أن الوقت قد حان لكي نقوم بدور الأبناء البَررَة , فما قولكم في اقتراح يُتيح لكل منا أن يضرب عصفورين بحجر واحداً ؟

وتلاقت رؤوس الفتيان الأربعة ... وراح تولوميس يدُلى باقتراحه العظيم ..

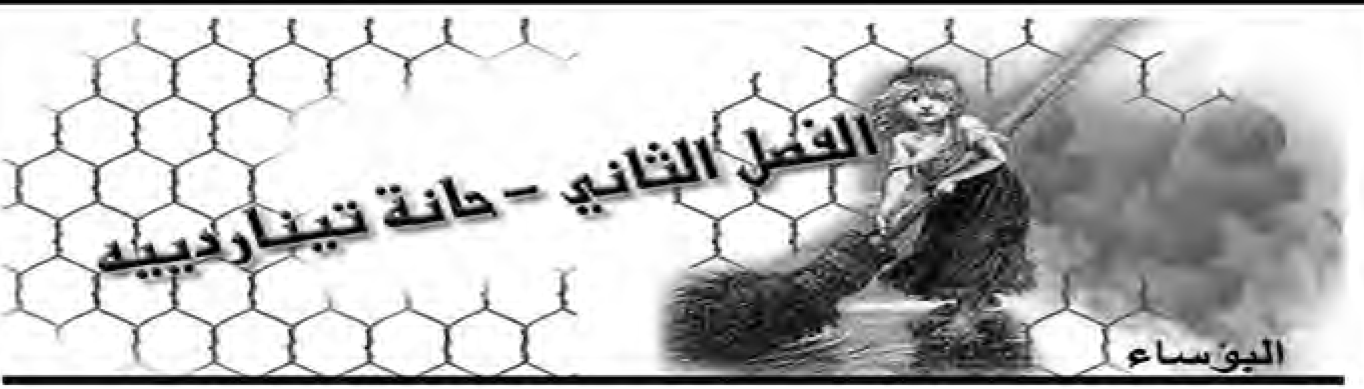
وفي يوم الأحد التالى , خرج الفتيان الأربعة و عشيقاتهم للنزهة في " "نيوتي" .

كانت تبدو عليهم جيمعاً مظاهر الغبطة و السعادة . وكانت فانتين بصفة خاصة اسعد الجميع , واشدهم فرحاً , فهي تتابط ساعد تولوميس و تبتسم في وجه النسيم الذي يداعب شعرها الثمين , و تجيب عن دعابات صاحبها بضحكات رنانه ظروب منبعثة من نفس تحررت من هموم الحياة و متاعبها .كانت بمرحها وسذاجتها اشبه بالطهارة طافية على سطح الخطيئة . نعم العشاقُ بالشمس و النسيم و الحقول و الأزهار و الأشجار ورقص الفتيان , و غنت الفتيات , وراحت فافوريت تسال بين الفنية و الفينة , ولكن اين المفاجأة؟!

فيجيبها تولوميس صبراً ! فسوف تكون مفاجأة عجيبة .

ثم تناولوا طعام الغذاء في حانة "بومباردا" ومالت فافوريت نحو صاحبها بلاشفيل و قد ثملت بنشوة الخمر و غمغمت إنني أعبدك يا بلاشفيل .

فسألها : و ماذا تفعلين إذا هجرتك يا فافوريت ؟
فهتفت : إذا هجرتني ! يا إلهي , لاتقل ذلك حتي على سبيل الدعابة إذا هجرتني فإنني اطاردك و أعدو في اثرك و اصب الماء على راسك واسوقك إلى السجن .
فابتسم بلاشفيل ابتسامة الرجل الذي يعرف قدر نفسه , وهمست داليا في أذن فافوريت في همس كذلك : إنني أمقته فهو شديد البخل وإني أوثر عليه الشاب الذي يقطن في المنزل المقابل لمنزلي فهل تعرفينه ؟ غنه شاب ظريف و قد بدأت أحبه و ولكن ذلك لايمنعني من أن اقل لــ بلاشفيل إنني اعبدة .ثم تحولت إلى تولوميس وسالت بصوت مرتفع ولكن اين المفاجأة ؟ وكانو قدر فرغوا من الطعام فأجاب تولوميس : هذا صحيح و لقد حان الوقت ايها السادة لتقديم المفأجاة التي و عدنا بها السيدات فهلموا بنا .
قال بلاشفيل : إنها مفاجأة تبدا بقبلة .
فأردف تولوميس : على الجبين .
وطبع كل منهم قبلته على جبين صاحبة و انصرفوا الواحد في إثر الاخر .
صفقت فافوريت بيديها و صاحت: ستكون مفأجاة طريفة حقاً كل الدلائل تُشير إلى ذلك.
و دعت فانتين الفتيان الأربعة بقولها : و لكن لا تبطئوا , فأننا في انتظاركم .
قالت جوزفين : لاشك إنهم سيفاجئوننا بهدايا ثمينة .
فأجابت داليا : كل رجائي أن تكون هدايا من ذهب .
وراحت الفتيات يتحدثن و يضحكن , حتي انقضت ساعه أو بعض ساعه .
و طال بهن الأنتظار و ساتولى عليهم الملل . فقالت فافوريت بلهجة من يستيقظ من نوم عميق : ولكن اين المفاجأة ؟
فهتفت داليا : نعم ,اين المفاجأة؟
وقالت فانتين : لقد طالت غيبتهم .
وتنهدت ...
و في تلك اللحظة أقبل عليهم أحد الخدم وبيده رسالة , فصاحت فافوريت : ماهذا ؟
فأجاب الخادم : هذه رساله تركها أصحابكن .
- ولماذا لم تجئ بها في الحال ؟
- لأنهم أوصوني بأن أقدمها إليكن بعد انقضاء ساعة .
و اختطفت فافوريت الرسالة و فحصتها , وقرأت على غلافها هذه الكلمات :
"هذه هي المفأجاة الموعودة"
و فتحت الرسالة بسرعة و قرأت فيها مايلي: " أيتها الحبيبات ...
يجب أن تعلمن أن لنا آباء و أمهات . و أن هؤلاء الآباء يزعمون أنهم أحقّ بنا من هواهم , و يصفوننا بالعقوق و يطالبوننا بالعودة إلى أحضانهم و لما كنا من أبرّ الأبناء بآبائهم فأننا نسارع إلى تلبية ندائهم . و ستصلكن هذه الرسالة و نحن في طريقنا إلى أهلنا و المركبة تقطع بنا الأرض بسرعة مبتعدة عن الهاوية و الهاوية هي أنتن ايتها الصغيرات العزيزات .
"نعم إننا نعود الآن إلى المجتمع ,و إلى الواجب و النظام بسرعه تسعة أميال في الساعة , إذ من الضروري لوطننا العزيز أن نصبح كغيرنا - آباء و جنوداً و موظفين , فالتضحية من جانبنا جسيمة و جديرة بإعجابكن و إكباركن و من الخير لكن أن تجففّن دموعكن , و أن تستغضن عنا بسوانا باسرع ما تستطعن .... وداّعاً "
الإمضاء
بلاشفيل , فلاميل , لستوليبه , تولوميس .
" ملحوظة لقد دفعنا ثمن الطعام "
حملقت كل فتاة في وجه الأخرى ثم تكلّمت ثم تكلمت فافوريت اخيراً فقالت :
- إنها في الحق دعابة بارعة , وأكبر ظني أنها من ابتكار بلاشفيل , و أظنني قد بدأت أحبه .
فقالت داليا : كلا . إنها دعابة تولوميس ذالك واضح جليّ.
فأجابت فافوريت : إذاً ليسقط بلاشفيل , وليحي تولوميس .
و انفجرن ضاحكات , فضحكت فانتين كذلك , ولكن لم تمض ساعة على عودتها إلى غرفتها حتي انفجرت باكية .
كانت تلك المغامرة - كما قلنا مغامرتها الأولى , وقد اسلمت المسكينة نفسها لتولوميس كما لو كان زوجها .
و شعرت بثمرة الخطيئة تتحرك في أحشائها .



راحت الطفلتان تلهوان بالسلسلة الحديدة الضخمة التي تسدّ جانبياً من الطريق المؤدي إلى الحانه كانت طروبين ترى على و جهيهما إشراقة الصحة , و يتالق في عيونهما بريق السرور و المرح .وقد جلست امهما بباب الحانة , و راحت تشتغل بتنظيف بعض الخُضّرة , و ترمق طفلتيها من وقت لاخر بعينين تسيل نظراتهما عطفاً و حناناً .وكانت الأم ماتزال في شغل بتنظيف الخضرة حين سمعت فجأة صوتاً يقول :

- ما أجمل طفلتيك ياسيدتي !

فرفعت الأم عينيها , ورأت بالقرب منها شابة تحمل بين يديها طفلة صغيرة و حقيبة ثقيلة .كانت الصبية ترتدي ثوباً خشناً كثيات العاملات , وتضع على رأسها غطاء يحجب شعرها ويبرزُ تقاطيع و جهها الحزين.كانت ما تزال في مقتبل العمر ولكن خشونة ثوبها , و الغطاء الأسود الذي يحجب رأسها و شعرها جعلا من المتعذر تحديد نصيبيها من الجمال .

أما عيناها فكانتا و اسعتين عميقتين , يُخيل للناظر إليهما أن دموعهما لم تجف منذ وقت طويل .

هذه المخلوقة المتقعه المتهدمة الحزينة , التي تسعل من وقت لآخر من تأثير الضعف و سوء التغذية هي فانتين التي عرفناها جميله سعيدة طروباً باسمة. وجدت فانتين نفسها و حيده بعد فرار تولوميس , وكانت حياة العبث التي الفتها في معاشرة تولوميس قد جعلتها تنفر من حياة الكد و العمل و حقّرت في نظرها مهنة الخياطة و التطريز , فأنفت خياطتها و انقطعت الصلة بينها و بين مواطن العمل .وكانت تقرأ بصوبة و لا تكتب غير اسمها , فلجأت إلى أحد الكتبة العموميّين و طلبت منه أن يكتب لها رسالة إلى تولوميس , ثم أتبعتها برسالة ثانية , فثالثة, و لكنها لم تتلقَّ رداَ . و حارت المسكينة ماذا تفعل في أمرها ؟ و إلى أين تولّى و جهها ؟

لم تكن تعرف أحداً تلجأ إليه و أحسّت كأنها على شفا هوة توشك أن تبتعلها , ولكنها لم تفقد شجاعتها .خطر لها أن تعود إلى موتفورميل مسقط رأسها . فهناك قد يعرفها بعض الناس , فيجدون لها عملاً .ولكن من الضروري قبل كل شئ أن تخُفي زلتها .وفكرت في ضرورة الافتراق عن طفلتها فشعرت بقلبها يتمزق على أن ذلك لم يضعف عزمتها ولم يهدم شجاعتها .صنعت من فساتينها الحريرية الجميله ثوباً لابنتها و باعت أمتعتها القليلة , وقامت بسداد ديونها الصغيرة , وبقى لها ثمانون فرنكاً .

و في صباح يوم من ايام الربيع , خرجت فانتين من باريس حاملة ابنتها و حقيبتها .

وكان منظرها مثيراً للرحمة و الشفقة . فالأم لا تملك من الحياة غير طفلتها و ليس للطفله في الحياة غير أمها .

و شعرت فانتين بالتعب فقطعت بعض رحلتها في إحدى المركبات ثم عادت تواصل السعيَ على قدمها , فوصلت حوالى الظهر إلى تلك الحانه حيث وجدت الطفلتين تعبثان بالسلسلة الحديدة و تترجّحان عليها . وطاب لها أن ترة الطفلتين في عبثهما .كانت كل الدلائل تشير إلى أنهما سعيدتان موفورتا الحاجة و الصحة , فهمست تحدث أمها :

- ما أجمل طفلتيك ياسيدتي !

و ليس مايرضى الأم مثل أن تسمع ثناء على طفلها , فرفعت الأم راسها و شكرت الصبية و دعتها إلى الجلوس فجلست , وراحت المرأتان تتجاذبان اطراف الحديث .

قالت المرأة : أنني أدعى مدام تيناردييه , و نحن نملك هذه الحانه .

كانت مدام تيناردييه في نحو الثلاثين من عمرها و لكنها تفتقر إلى كل أنواع الجمال التي تميز المرأة عن الرجل .كانت و قتئذ جالسة , فلم تَر فانتين قامتها الهائلة و تكوينها الذي يضعها في صفوف العمالقة ,ولو رات ذلك لحَل الحذر في نفسها محل الثقة ولأستحال وقوع كثير من الحوادث في هذه القصة .ولكن شاءت الاقدار أن تتعلق مصائر بعض الناس بجلوس شخص أو وقوفه !

قصّت فانتين قصتها بشئ من التحرر فزعمت أنها من العاملات وأن زوجها توفي بعد أولدها هذه الطفله , وأنها الآن في سبيلها إلى مسقط رأسها لتبحث هناك عن عمل بعد أن سدت أبواب العمل في باريس في وجهها . وقالت إنها تقصد إلى "مونفورميل" وإنها قطعت بعض المسافة سيراً على الأقدام و وكانت الطفله تسير معها في بعض الأحيان , ولكن لمسافات قصيرة , لأنها ماتزال صغيرة وفي ما عدا ذلك فإنها كانت تحمل الطفلة طول الوقت .قالت ذلك و نظرت إلى ابنتها بشغف وطبعت على شفتيها قبلة أيقظتها .و فتحت الطفلة عينيها الواسعتين الزرقاوين و نظرت حولها , ثم انزلقت من بين ذراعي أمها بنشاط الطفل الذي يريد أن يلعب و يلهو .و ما كادت قدماها الصغيرتان تستقران على الأرض حتي وقع بصرها على الطفلتين و هما تترجّحان فوق السلسلة الحديدية , ففتحت عينها و فمها في دهشة .

قالت مدام تيناردييه تحدثها : إلعبى معهما يا بنية.

وما اسرع تألف الأطفال في مثل هذه السنّ ! فقد رحُبت الطفلتان بزميلتهما . ز ما هي إلا لحظة حتي كانت الطفلات الثلاث يملأن المكان صخباً و صياحاً.و استأنفت المرأتان الحديث فسألت مدام تيناردييه : ما أسم ابنتك؟

- اسمها كوزيت -- وعمرها؟

- إنها في الثالثة.

- كابنتي الكبرى .

ونظرت إلى الأطفال و استطردت :

- حقاً ! إنه يُخيل للناظر أنهن ثلاث شقيقات .

و كأنما كانت هذه العبارة هي الشرارة التي تنتظرها فانتين , لأنها أمسكت يد محدثتها في الحال , و قالت و هي تنتظر في وجهها بإمعان هل تستطعين العناية بابنتي ؟

فبدرت من المراة حركة عنيفة تدل على الدهشة , ولكنها لا تفيد الرفض و لا تفيد القبول و استطردت فانتين اطغي إلىّ إنني لا استطيع الذهاب بابنتي إلى مسقط راسي فإنه يتعذر على المرأة و جود طفلها أن تحصل على عمل , و لا شك أن العناية الإلهية قد ساقتني إلى هذه الحانة . إنني قلت لنفسي حين رأيت طفلتيك نظيفتين سعيدتين : "هذه أم تعطف على أولادها , وقد صدق ظنى و فهل لك في أن تجعلي من ابنتي شقيقة لابنتيك حتي أعود فاستردها ؟

فأجابت مدام تيناردييه : هذه مسألة تحتاج إلى تفكير .

- إنني على استعداد لأن ادفع سته فرنكات شهرياً .

و هنا صاح رجل في داخل الحانة:

- بل يجب أن تدفعي سبعة فرنكات على الأقل , وأجرة ستة اشهر مُسبقاً

فقالت مدام تيناردييه : اي 42 فرنكاً

فأجابت فانتين : سادفع هذا المبلغ .

قال الرجل :

كذلك يجب أن تدفعي خمسة عشر فرنكاً للنفقات الإضافيه و الطوارئ .

فقالت مدام تيناردييه : فيكون المجموع سبعة و خمين فرنكاً .

قالت فانتين : سأدفع هذه المبلغ إن معي ثمانين فرنكاً . و في استطاعتي الوصول إلى مونفورميل سيراً على قدميّ , وسوف اجهد نفسي في العمل حتي إذا اجتمع لي قليل من المال عدت لاسترداد عزيزتي الصغيرة .فسأل الرجل بصوت خشن : هل للصغيرة ثياب ؟

وقالت مدام تيناردييه : إن المتكلم هو زوجي !

فأجابت فانتين : لقد أدركت ذلك .

ثم أجابت الرجل بقولها:

- نعم إن لعزيزتي الصغيرة كثيرا من الثياب . لها اثنتا عشرة قطعة من كل نوع و ولديها عدد كبير من الفساتين الحريرية كأي سيدة جميله مثلها و وهذه الثياب في حقيبتي .

قال الرجل : يجب أن تتركي هذه الثياب .

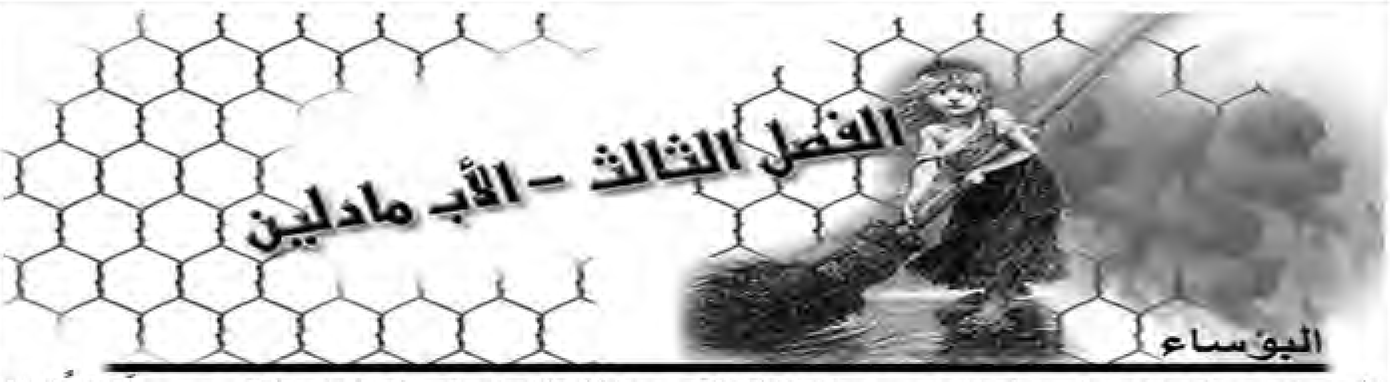
فأجابت الأم : ساتركها طبعاً . من المضحك أن تظنّ أنني ادع ابنتي عارية .

وعندئذ خرج الرجل من الحانة وهو يقول : هذا حسن , لقد اتفقنا إذاً .

و تمت الصفقه و ودفعت فانتين المبلغ المطلوب و وقضت ليلتها في الحانة , و انصرفت في الصباح الباكر تاركة ابنتها , وفي نيتها أن تعود إليها في أقرب فرصة.جرت العادة أن يتم مثل هذا الفراق في هدوء و سكينة و أن يجرّ.

وراءه ذيول الحزن و الياس , و قد تحدثت امراة تقيم بالقرب من الحانة إلى جارة لها فقالت :
- إنني رايت اليوم صبية تسير في الشارع و تبكي كما لو كان قلبها يتفتت .
وما إن رحلت فانتين حتي قال تيناردييه لزوجته :
- لقد حسبت المسكينة العناية الإلهية ساقتها إلى هنا لكي نعتني بابنتها , ولكني اعتقد ان العناية الإلهية إنما قادتها إلى هنا لكي تنقذنا مبلغاً من المال نحن في اشد الحاجة إليه لسداد ديوننا , و لولا ذلك لبيعت الحانة غداً .
و هكذا تجنب تيناردييه بيع حانته . ولكنه احتاج إلى مبلغ آخر من المال , في الشهر التالى . فبعث بأمراته إلى باريس حتي باعت ثياب كوزيت , وقبضت ثمنها ستين فرنكاً . وما كاد الرجل و امراته ينفقان هذا المبلغ حتي بدأ يشعران بأن الطفلة حمل ثقيل عليهما وبانهما يطعمانها لوجه الله . و على هذا الراي تطورت معاملتهما , فصارت ترتدي من الثياب الممزقة البالية التى تبقي بعد استعمال الطفلتين و وتأكل من الطعام مايتخلف عن الجميع و وتحيا حياة اسوا من حياة هر وأفضل قليلاً من حياة كلب.
و في كل شهر , كان تيناردييه يستلم رسالة من فانتين تستفسر فيها عن ابنتها فيجيبها على الفور بان الطفلة على أتم مايرام .و انقضت الأشهر السنه الأولى , وبدأت الأم ترسل سبعة فرنكات شهرياً بانتظام. وفي نهاية العام الأول ضرب تيناردييه المائدة بقبضة يده و صاح :
- ماذا تريدنا هذه المراة أن نصنع بسبعة فرنكات ؟
وكتب إلى فانتين يطلب اثني عشر فرنكاً شهرياً , اطمأنت الأم إلى أن طفلتها موفورة الصحة فرضخت و بعثت إلى تيناردييه بما طلب ، على أن شقاء كوزيت لم يقتصر على العرى و الجوع . كانت مدام تيناردييه من اولئك الناس الذين يجمعون بين الحنان و القسوة , ولايستطيعون أن يحبوا من ناحية . إلا بقدر مايكرهون من ناحية أخرى , وقد و قفت كل حبها على طفلتيها فكان طبيعاً ان تصب كل كراهيتها على الطفلة الغريبة . ومما لاشك فيه أنه لولا وجود كوزيت لأصاب الطفلتين من قسوة أمهما مثلما يصيبهما من حنانها , و لكن كوزيت وفرت عليهما هذه القسوة , فاحتكرتها لنفسها , و احتكرت الطفلتان الحنان .كانت تُضرب و تُنْهَرُ و تعاقب من دون سبب . و ترى في الوقت نفسه نفسه طفلتين مثلها تنعمان بالحياة هانئتين سعيدتين و فلا تفهم المكسينة سبباً لشقائها و سعادة الأخرين .
و انقضى العام الأول .. وقال أهل قرية "بولاجيه" حيث تقع الحانة .
- ما أكرم تيناردييه و زوجته ! إنهما فقيران ولكنهما مع ذلك يُعنيان بالطفلة المسكينة التي هجرتها امها.
أما تيناردييه فإنه أدرك بذكائه أن الطفله لابد ان تكون ثمرة خطيئة تورطت فيها الأم , و أن الأم يهمها بطبيعة الحال أن تكتم خطيئتها .. فكتب إلى فانتين يطلب خمسة عشر فرنكاً شهرياً لأن الطفله تنمو وتترعرع و تحتاج الى المزيد من العناية و الطعام , و هدّد بإرسالها إليها إذا لم تذعن فأذعنت الام و زادت الأجر الشهري إلى 15 فرنكاً.

ومرت الأعوام ... و ترعرعت كوزيت , وتضاعف شقاؤها وراحت مدام تيناردييه تعاملها كخادمها , فهي التي تنظف الحانة و تكنس الشارع و هي التي تغسل الاواني و توقد النار في الغرف , وهي التى تحتطب و تجمع العشب .و اشتد بطش القوم بها عندما بدات فانتين تتخلف عن الدفع في الموعد المقرر . ولوعادت الأم إلى الحانة في نهاية الأعوام الثلاثة الأولى لما عرفت ابنتها فقد استحالت كوزيت المسكينة إلى هيكل عظمي , و اصبحت تمثالا حياً للبؤس و ولم يبق لها , من جمال الطفولة غير عينين واسعتين و يطل منهما اكبر جانب من الحزن الذي يعصر حياة الأبنة المكسينة.بل كان مما يمزق قلب الإنسان , أن يرى الطفله التعسة , أمام الحانة قبل بزوغ الشمس و هي ترتعد من شدة البرد و المكنسة في يدها و والدموع تملأ عينيها الكبيرتين .
ولكن ماذا حدث للأم التي يعتقد أهل بولاجيه انها هجرت ابنتها في حانة تيناردييه ؟
بعد أن غادرت فانيتن الحانة , واصلت السير على قدميها حتي بلغت إلى مونفورميل و مسقط راسها . ولم تكن قد زارت المدينة و منذ غادرتها للمرة الأولى قبل عشرة اعوام . و في خلال هذه الأعوام العشرة و بينما أخذت فانيتن في الانحدار من هوة إلى هوة كانت مونفورميل تنتعش و تزدهر بالتدريج حتي بلغت غاية مجدها قبل عامين ,وذلك عل اثر و ثبة و ضعتها أولى المدن الصناعية.



اشتهرت مدينة مونفورميل منذ زمن بعيد بصناعة الخرز الاسود و الحليّ الزجاجية ولكن إنتاجها كان محدوداً نظراً لقلة المواد الأولية . فلما عادت فانتين إلى مسقط رأسها , أدهشها التطور العظيم الذي طرأ على هذه الصناعة و الذي لم يقتصر على مضاعفة الانتاج فحسب ,بل تعداه الى الصناعة نفسها فقلبها من اساسها . ويرجع الفضل في تطور هذه الصناعه و انتعاشها إلى رجل غريب وفد إلى المدينة منذ بضعة ايام , وخطر له أن يستعيض عن المواد الأولية النادرة بالصموغ و الباغة "مادة صلبة شفافة"

وقد نتج عن هذه الابتكار أن قلت نفقات الانتاج وأمكن زيادة أجور العمال بربح كثير .

و لم تنقض ثلاثة اعوام , حتى كث مال صاحب الابتكار , وانتعشت اسواق المدينة , و شمل الرخاء جميع المتصلين بهذه الصناعة المبتكرة . كان صاحب الابتكار اجنبياً عن المدينة كما ذكرنا , فلا أحد يعرف نشأته و ماضيه , وكل مايعلمه الناس من أمره أنه عندما جاء إلى المدينة كان يتكلم بلهجة العمال , وأنه ابتدأ مشروعه ببضع مئات من الفرنكات .

و الظاهر أنه في الليلة التي دخل فيها المدينة و حقيبته على ظهرة و عصاه في يده شبت النار في دار البلدية و اندلعت ألسنتها و هددت بتدمير المدينة كلها فجازف الرجل وألقى نفسه وسط النيران و انقذ غلامين ظهر في مابعد أنهما ابنا رئيس الشرطة . ثم ساهم في إخماد النار , فلم يفكر أحد بعد ذلك في الأطلاع على أوراقة الشخصية , وكل ما هنالك أنهم سألوه عن اسمه فقال أنه يدعى الأب مادلين. وأدخل الأب مادلين على صناعة الخرز و الحلى المقلدة ذلك التجديد المبتكر الذي رفع هذه الصناعة القديمة من سقوطها واصاب الرجل من ابتكاره و من نشاطه و جدّه ربحاً بعد العام الأول من إقامة مصنع جديد كبير . وصار في استطاعة إي عاطل عن العمل أو جائع أن يقصد هذا المصنع فيجد على الفور عملاً و طعاماً ولم يكن الأب مادلين يشترط في العامل غير الأمانة و في العاملة غير الطهارة و الفضيلة و قد قسم المصنع إلى قسمين أحدهما للعمال والآخر للعاملات , ذلك صوناً للفضيلة أن تُمتهن باختلاط الجنسين . وقبل , بعد عامين إن الرجل اذخر 360 ألف فرنك في بنك "لافيت" .

و الواقع أنه أدخر هذه المبلغ ولكن بعد أن أنفق نيفاً و مليون فرنك في أعمال الخير , و بعد أن انشا مستشفي جديداً وشيد مدرستين و افتتح ملجأ لعله كان الأول من نوعه في فرنسا. في العام الثالث شاع أن الأب مادلين سيعين عُمدة , أعترافا بفضله على المدينة فقال حاسدوه الذين اتهموه بالأنانية و الجشع " ألم نقل ذلك ؟" ولكن ما كاد النبأ يعلن في الجريدة المحلية «مونتير" حتي اعتذر الب مادلين ولم يقبل المنصب . و في ذلك العام ايضا , عرض ابتكار الأب مادلين في معرض الصناعات الوطينة في باريس و حاز الاعجاب , ومُنح المخترع و سام جوقة الشرف " اللجيون دوتور"

وقال حاسدوه في المدينة " "هذا ما كان يبغي" !

ولكن الأب مادلين اعتذر ايضاً ولم يقبل هذا الشرف , فقال الناس:

- إنه رجل غامض .

وقال حسدوه : ماهو إلا مغامر

و في اليوم الخامس , كان من المستحيل على ذي عينين أن ينكر على الأب مادلين خدماته للمدينة و مرافقها وأهلها و اتفق الرأي على أنه أحق الناس بمنصب العمدة فعرض عليه هذه المنصب للمرة الثانية فاعتذر ولكن مدير البوليس لم يقبل اعتذاره و دار به الناس في الطريق و ألحوا عليه القبول , و اصر الأب مادلين من ناحيته على الرفض إلى أن سمع إحدى النساء تقول :

- إن من واجب الإنسان إلا يتقهقر أمام أعمال الخير التي يستطيع القيام بها

وعندئذ فقط عدل الأب مادلين على إصراره و رفضه

وعُرف الأب مادلين بالبساطة و التواضع ولم تغير الثروة أو المنصب من طباعة شيئاً فهو بعينه كما رآه الناس للمرة الأولى , رجل قوي البنية ثاقب النظر اشيب الشعر نحاسي البشرة له و جه مفكر كوجوه الفلاسفه يرتدي ثوباً أسود

يحجب جسمه حتي العنق ,وقبعه سوداء عريضة تحجب جبهته و عينيه ويحب العزلة و قراءة الكتب , و يقيم وحده في منزل عتيق الأثاث , اثمن مافيه شمعدانين قديمان لعلهما من الفضة .و في احد الأيام نقلت جريدة "مونيتير" عن إحدى الصحف الاقليمية نبا وفاة الأب فرانسوا شارل ميريل اسقف بريتول , وذكرت أنه توفي في الثانية و الثمانين من عمره , بعد أن فقد حاسه الإبصار منذ بضعة أعوام . ولوحظ في اليوم التالي لإذاعة هذا النبأ أن الأب مادلين قد وضع على قبعته شارة الحداد وفهم الناس من ذلك أن له بالأسقف اصره قرابة , فزاد احترامه , وارتفع قدره في نظر الناس .

وسألته أحدى السيدات ذات يوم :

- لابد أن سيدي العمدة هو ابن عم المرحوم اسقف بريتول؟

فأجابها : كلا ياسيدتي.

قالت : ولكنك ترتدي شارة الحداد حزناً عليه .

فأجابها : ذلك أنني كنت في وقت ما خادماً لأسرته .

ومع مرور الايام , هدأ غضب الحاسدين و تراجعت ألسنة الفضوليين واصبح الأب مادلين موضوع ثقة أهل المدينة جميعاً ولم يبق في المدينة سوى رجل واحد لم تصل إليه عدوى هذه الثقة.

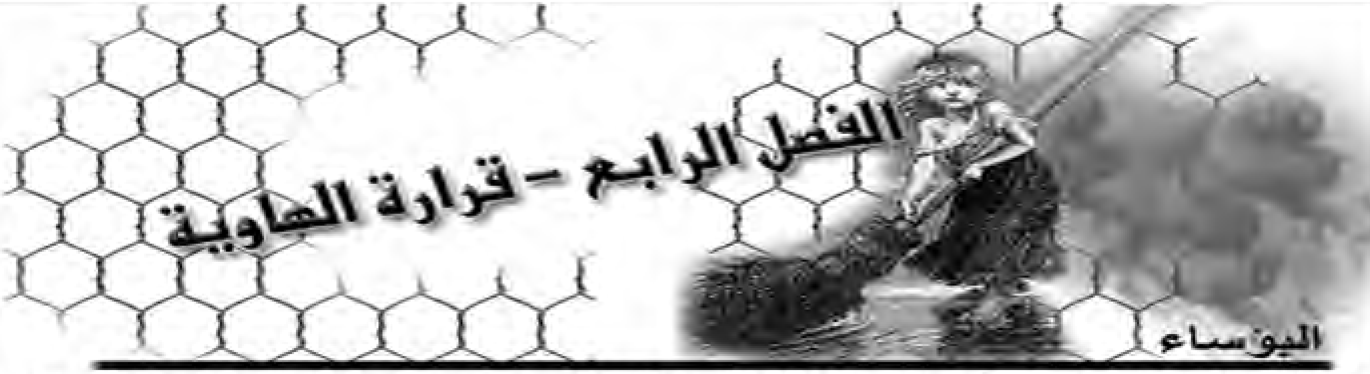
كانت غرائز هذه الرجل تنفر من احترام الأب مادلين و تتمرد على الثقة به فإذا و قع بصره عليه جمد في مكانه و قلب شفتيه و وعقد ساعدية فوق صدره و شيعه بعينين كعيني الصقر و وقال لنفسه :

- من هو هذا الرجل ؟! إنني رايته قبل الآن ولكن متى , وأين؟!

كان اسم هذه الرجل جافير , ومهنته مفتش للشرطة .ولم يكن جافير قد رأي بداية الأب مادلين لأنه جاء إلى مونفورميل بعد أن شيدد مادلين صرح مجده و ثروته .

ولد جافير في السجن و لما بلغ مبلغ الرجال احس أنه نكرة و اشفق على نفسه أن يجرفه تيار المجتمع ولا حظ جافير أن الهيئة الاجتماعية تنفر من طبقتين من الناس طبقة العابثين بها و طبقة المحافظين عليها , و وجد لزاماً عليه أن يختار لنفسه إحدى هاتين الطبقتين وشعر في الوقت نفسه بأنه مطبوع على الصلابة و حب النظام ,فالتحق بخدمة البوليس و قضى بعض سني خدمته حارساً في السجون و ارتقى في سن الأربعين إلى وظيفة مفتش !و امتاز جافير بإيمانه العجيب بمبداين : احترام النظام و كراهية العصيان وكان يحترم حراس النظام و القانون من رئيس الوزراء إلى الحارس , ويرى أن السرقة و القتل و غيرهما من الجرائم ضرب من العصيان و التمرد على النظام ويحتقر إلى حد الكراهية كل إنسان خرق النظام و تخطي عتبة القانون ولومرة و احدة في حياته .كانت شخصيته تعبر عن المهنة التي خلق لها , مهنة الرجل الذي يتوارى عن العيون و كله عيون ترقب الناس , فجبهته مختفية دائماً في ياقته ويداه مدفونتان في جيبيه , وعصاه مختفيه تحت معطفه فإذا حان وقت العمل ,برز الرجل من مخبئة و ظهرت جبهته الضيقة ولمعت عيناه بقسوة و خرجت يداه الضخمتان من جيبيه .وقد كان جافير اشبة بعين لا تتحول ابداً عن مادلين , عين تنبعث منها نظرات الشك و الإرتياب و أحسّ مادلين بهذه النظرات , و لكنه لم يفهم معناها , و لم يُقم لها وزناً , بل لم يفكر في اجتنابها أو الفرار منها وصمد أمامها دون أن يبدو عليه أن يشعر بها , وظل يعامل جافير كما يعامل سائر الناس بالرفق و الحسنى و الاحترام.ولكن في أحد الأيام , حدث أن ترك سلوك جافير اثراً عميقاً في نفس الأب مادلين فقد اتّفق ذات يوم أن كان الأب مادلين يجتاز شارعاً غير معبد مليئاً بالأوحال بعد الأمطار الغزيرة التي هطلت في اليوم السابق , فسمع جلبة غير عادية ورأي في نهاية الشارع جماعة من الناس تبدو عليهم علامات الاضطراب و شيخاً متقدماً في السن يئنُ تحت عربته التي انقلبت فوقه .كان هذا الشيخ يُدعى فوشليفان , و هو أحد الأعداء القليلين الذين ظلّوا يبغضون البا مادلين حتي ذلك اليوم , لا لشئ إلا لأن الأب مادلين اصبح ثرياً بعد فقر, وشبع بعد جوع شديد , و احتل في المدينة تلك المكانة الرفيعة بعد أن كان نكرة لم يشعر به أحد , وذلك في الوقت الذي اضاع فيه فوشليفان مركزة و ثروته , و انحدر من كاتب عقود إلى رجل مفلس لا يجد قوت يومه , واضطر إلى استخدام مركبته و جوداه لنقل ما يطلب إليه نقله . وكان الجواد قد انزلق فانكسرت ساقاه و عجز عن الوقوف فيما رزحت العربه بثقلها فوق صدر الشيخ فغرزته في الأوحال .و أنّ الشيخ أنيناً مزعجاً , وحاول بعض المارة إخراجه من مأزقه و اجتذابة من تحت العربه فذهبت محاولاتهم ادراج الرياح. كان لابد لإخراجه من أن تُرفع العربة من مكانها . كان جافير قد وصل إلى مكان الحادث فأسل في الحال في طلب رافعه لرفع العربة .و ابصر الناس الأب مادلين و هو يقترب فأفسحوا له الطريق في احترام و صاح فوشليفان : النجدة ! إليس بينكم رجل كريم ينقذ شيخاً من الهلاك؟و أجال مادلين البصر حوله ,

وسأل : أليست لديكم رافعة ؟
فأجاب أحد الناس : لقد أرسلنا في طلبها .
- ومتي ينتظر إحضارحا ؟
- بعد ربع ساعة على الأقل , سيؤتي بها من حانوت "هانشيد" الحداد فهتف الأب مادلين في ذعر : بعد ربع ساعة !
وكانت العربة قد انقلبت في حفرة مليئة بالأوحال و فاخذت عجلاتها تغوص بالتدريج وضغط العربة يشتد على صدر الرجل .كان من الواضح أنها ستحطم ضلوعه وتكتم أنفاسه قبل أنقضاء خمس دقائق أخرى . فصاح الأب مادلين و هو ينضر حوله:
- من المستحيل الانتظار ربع ساعه أخرى . اصغوا إلي ! لايزال تحت العربة مُتَّسَع لجسم آخر أفلا يستطيع أحدكم أن ينزلق تحت العربة ويرفعها فوق ظهره؟
هذه العملية لا تستغرق نصف دقيقة و عندئذ يمكن اجتذاب هذا الشيخ التعس .
أليس بينكم رجل قوي العضلات ؟ أليس بينكم من يريد أن يربح عشرة جنيهات ؟
فأطرق السامعون رؤوسهم . وقال قائل :
- يجب أن يكون الإنسان قوياً لكي يرفع هذه العربة ثم إنه سيكون عرضة لأن يتهشم جسمه .
فقال مادلين مرة أخرى : عشرون جنيهاً لمن يؤدّي هذا العمل الكريم .
فساد الصمت .
قال جافير : إن القوم هنا لاتنقصهم الشجاعه و حسن النية بقدر ماتنقصهم القوة , والرجل يجب أن يكون على جانب عظيم من القوة البدنية لكي يتمكن من رفع هذه العربة فوق ظهره . ثم نظرالى الأب مادلين بحدة . و قال ببطئ كمن يريد أن يؤكد كل كلمة ينطق بها : يامسيو مادلين ... إنني لم أرَ في حياتي غير رجل واحد يستطيع القيام بمثل هذه المهمة . فرفع مادلين راسه بحدُه و استطرد جافير بقُله اكتراث ودون أن ينظر في عيني مادلين : وقد كان هذا الأخير سجيناً في "ليمان طولون" . فتغير و جهه مادلين .
و في هذه الأثناء كانت العجلات تغوص في الأوحال باستمرار فصاح فوشليفان :
- إنني أختنق , إن ضلوعي تتمزق ... يا إلهى ! أين الرافعه؟
فنظر مادلين حوله و هتف مرة أخرى : ألا يوجد رجل على استعداد لأن ينقذ هذا الشيخ ويربح عشرين جنيهاً؟
فلزم الجميع الصمت . وقال جافير مردداً ك قلت لك إنني لم أرَ في حياتي رجلاً يستطيع أن يجعل من جسمه رافعه , إلا ذلك السجين فصاح فوشليفان : ربّاه إن جسمي يتهشم .
فرفع مادلين راسه , و التقت عيناه بعيني جافير اللتين ترمقانه كأنهما عينا صقر ثم تنهر في حزن و ركع على ركبتيه دون أن ينطق بكلمة أخرى .و قبل أن يدرك الناظرون غرضه قد انزلق تحت العربة, و انقضت لحظة انتظار مخيفة.
حاول الأب مادلين وهو منبطح على بطنه أن يرفع العربة فوق ظهره , وأن ينهض على يديه و ركبتيه و كرر هذه المحاوله مرة أخرى ولكن بغير جدوي .
وصاح الناظرون : أخرج ايها الأب مادلين.
وقال فوشليفان نفسه : أخرج الأب مادلين, لقد اصبح موتة محققاً , فلا تقتل نفسك معي .
فلم يُجب مادلين و ظلت العجلات تغوص بالتدريج من تحت العربة .
صار من المستحيل على الأب مادلين نفسهه أن يخرج من تحت العربة .
و فجأة أهتزت العربة هزة عنيفة , وبدأت العجلات ترتفع من الأوحال و هتف صوت مختنق : النجدة .. أسرعوا!!
كان ذلك صوت الأب مادلين و هو يبذل جهداً أخيراً . فخرج القوم من ذهولهم وهجموا على العربة لأن شجاعة الرجل الواحد تثير شجاعة الآخرين . و هكذا امتدت عشرات السواعد المفتوله و رفعت العربة , فنجأ فوشليفان وبرز مادلين من الأوحال , وهو شاحب اللون , و العرق يتصبب على جبينه و وقد تمزقت ثيابة و تلطخت بالأوحال .و أقبل فوشليفان على منقذه , و راح يقبل ركبتية فيما تحول مادلين إلى جافير , و نظر إليه في هدوء وسكينة على وجهه مسحة من الألم النبيل.و أمر الأب مادلين فنُقل فوشليفان إلى المستشفي لمعالجته .
و في صباح اليوم التالى وجد فوشليفان في فراشه و رقة ماليه ذات ألف فرنك , و رفعه بخط الأب مادلين عليها هذه الكلمات "ثمن العربه و الجواد الذين ابتعتهما" و اندملت جروح فوشليفان ولكنه اصيب بعرج فأستعان مادلين بنفس المدينة و بالراهبات اللائى يعتنينا بالمرضى في المستشفي . و اوجد لفوشليفان عملاً كبستاني في دير سان انطونيو بباريس.



عادت فانتين إلى مونفورميل فلم تجد هناك من يتذكرها أو يعرفها ولكن من حسن الحظ أنها و جدت مصنع الأب مادلين مفتوحاً أمامها كساعدي الصديق الحميم.تقدمت إلى المصنع و طلبت عملاً فأرسلت في الحال إلى قسم العاملات .
و كانت المهنة غريبه عنها جديدة عليها فمُنحت أجراً يوازي خبرتها و إنتاجها ولكنها قنعت بهذا الأجر لأنها و جدت فيه الكفايه و فرحت الفتاة المسكينة حين شعرت بإنها تستطيع أن تعيش من كدّها و عرق جبينها و عاودها نشاطها السابق و انتعشت فيها الرغبة في العمل , فأبتاعت مرآة صغيرها لتنعم فيها بتأمل شبابها و شعرها الذهبي و أسنانها اللؤلؤية و نسيت في فرحتها اشياء كثيرة و اصبح كل تفكيرها منصباً على صغيرتها كوزيت و على السعادة التي تستطيع أن توفرها لها من أجرها المحدود.و ستأجرت غرفة صغيره و جلبت لها اثاثاً و عدت أن تدفع ثمنه من أجرها على أقساط .ولما لم يكن في استطاعتها أن تزعم أنها متزوجه فإنها حرصت كل الحرص على كتمان أمر ابنتها . وراحت ترسل إلى تيناردييه بانتظام الأجر الذي اتفقا عليه .كان اسمها هو الكلمة الوحيده التي تعرف كيف تكتبها ,فاضطرت أن تلجأ إلى أحد الكتبة العموميين , ولوحظ عليها ذلك في المصنع , فتهامست بعض الخبيثات :
- إن فانتين تكتب بانتظام إلى صاحب حانة بولاجية ومن سوء حظها أن الكاتب العمومي كان من اولئك الذين لا يملأون بطونهم بالخمر دون أن يفرغوا جعبتهم من الاسرار وكانت النتيجة ان ذاع بين العاملات في المصنع أن لفانتين ابنة . و دفع الفضول 'حدى العاملات فتطوعت للصفر إلى بولاجية و عادت تقول إنها رأت الطفلة بعيني راسها .على أن ذلك كله استغرق و قتاً .و في أحد الأيام , بعد أن قضت فانتين في المصنع أكثر من عام , جاءت العاملات و أعطتها خمسين فرنكاً باسم مادلين , عمدة المدينة و صاحب المصنع , وقالت لها إن المصنع في غنى عن عملها و إن العمده ينصحها بمغادرة المدينة . حدث ذلك في الشهر نفسه الذي حسم فيها تيناردييه أن يكون الأجر خمسة عشر فرنكاً بدلاً من اثني عشر .
ذعرت فانيتن ...لم يكن في استطاعتها أن تبرح المدينة فهي تدين لصاحب المنزل بعض المال , و لم تدفع ثمن الاثاث غير القليل و الفرنكات الخمسون لاتكفي لسداد هذه الديون . عمغمت بضع كلمات على سبيل التوسل و الاستعطاف و لكن رئيسة العاملات طلبت إليها في خشونة أن تبرح المصنع في الحال , لأن المصنع ليس في حاجة إلى فتيات من طرازها .
و انصرفت فانتين و العار يكاد يسحق جسمها النحيل .
إذاً قد افتضح امرها و عرف الجميع زلتها , فماذا تفعل ؟
نصحتها إحدى صديقاتها أن تقابل العمدة و تستعطفة و تثير عاطفه الرحمة في نفسه الكريمة و لكنها خجلت أن تفعل ذلك.وبعد .. ماذا تستطيع أن تقول له ؟ ألا يكفي أن الرجل أعطاها خمسين فرنكاً على سبيل الأحسان ؟!
و لكن في الواقع أن الأب مادلين لم يكن يعلم من أمرها شيئاً فإنه اعتاد أن يتجنب قسم العاملات و قد كلف هذا القسم بامرأة جاءه بهاالقس وأوصاه بها خيراً فأولاها ثقته و ترك لها حرية التصرف و قد ظنت هذه المرأة حين أتهمت فانتين و حاكمتها , قضت في أمرها, أنها لم تفعل إلا مايقضي به الواجب إخلاصاً بالثقة التي وضعها مادلين فيها .
أما الخمسون فرنكاً التي قدمتها إلى فانتين , فإنها أقتطعتها من مبلغ وضعه الأب مادلين بين يديها خصصه لـ عمل الخير و الإحسان , و لم يكن لزاماً عليها أن تقدم عنه حساباً وحاولت فانتين أن تجد عملاً في أحد المنازل , ولكن الناس جميعاً تجنبوها , و رفضوا مساعدتها .و لم تستطع مغادرة المدينة فقد قال لها صاحب الأثاث
- إذا حاولت الفرار , أبلغت أمرك إلى الشرطة كأنك سارقة
وقال لها صاحب المنزل :
- إنك ما زلت في مقتبل العمر و حسناء و في استطاعتك أن تدفعي .
وزعت فانتين الفرنكات الخمسين بين صاحب المنزل و صاحب الاثاث و استغلت بتطريز القمصان لجنود حامية المدينة لقاء آجر زهيد لا يكاد يشبع جوعاً و في هذه الفترة , بدأ تخلفها عن إرسال النقود إلى تيناردييه .ولما قل ربحها , اضطرت أن تشرك معها في الغرفة عجوزاً تدعى مرغريت .وشعرت بالحنين إلى ابنتها و خطر لها و سط هذا الشقاء أن ترسل

في طلبها .ولكن كيف تأتي بها و هي تدين لتيناردييه بمبلغ جسيم , ولا تملك أجر المركبة التي تحمل إليها ابنتها ؟!

كانت فانتين قد طردت من المصنع في نهاية الشتاء , فانقضى الصيف و عاد الشتاء التالي .
وفي الشتاء يتجمد ماء السماء و تتحجر قلوب الناس , فضّيق الدائنون الخناق على المرأة التعسة لآن أرباحها تضاءلت و ديونها تضاعفت و في الوقت نفسه اشتد إلحاح تيناردييه و توالت رسائله .
وقد كتب إليها أن تنقذ ابنتها من الموت برداً و فعليها أن تسارع إلى إرسال عشرة فرنكات على الأقل ثمناً لثوب من صوف .
وقد ظّلت فانتين ممسكة بهذه الرسالة طول النهار و لما هبط الليل قصدت حانوت الحلاق في ركن الشارع و حلت جدائلها فانسدل شعرها البديع حتي مّس فخديها .
هتف الحلاق : ما أجمل هذا الشعر !
فسألته : كم تدفع ثمناً له ؟
- عشرة فرنكات .
-قُصّه إذاً.
و ابتاعت لا بنتها ثوباً من الصوف بعثت به إلى تيناردييه . و ضج تيناردييه غاضباً و هدد لأنه كان يريد الفرنكات العشر . وأعطى الثوب لابنته الكبرى و وظلت كوزيت ترتعد من البرد .
وقالت فانتين لنفسها :
-لن تشعر ابنتي بقساوة البرد الآن فقد كسوتها بشعر رأسي .
ووضعت على رأسها قلنسوة صغيرة أخفت جمجمتها الملساء التي لم تنل كثيراً من جمالها .
و لما و جدت أنها لا تستطيع بعد الأن أن تعقد شعرها الجميل , تبدل شعورها , واظلمت نفسها وضجرت من الحياة وبدأت تكره كل شي حولها .
قبلاً كانت تشاطر الناس احترامهم للأب مادلين , فلما طردها أو توهمت أنه طردها , وكان سبباً في شقائها استحال احترامها إلى احتقار , و حبها إلى كراهية و اصبحت اشد مقتاً له من ألد أعدائه فإذا مّر بها بصقت علّى الأرض وإذا مّرت ببابه ضحكت ساخره , أو ترنمت بأغنية .و أبصرتها إحدى عجائز المصنع ذات ليلة و هي تضحك و تغنى فقالت :
- هذه الفتاة ستنتهي إلى أسوء مصير .
و اتخذت فانتين لنفسها عشيقاً من أول رجل راودها عن نفسها .اتخذته عشيقا,رغم إنها لا تحبه ولكنها فعلت ذلك غيظاً و غضباً لتؤنب العاملات الاتي شمتن بشقائها و بؤسها . و لكن عشيقها كان و غداً وكان يشبعها ضرباً فهجرته مشمئزة كما قبلته مشمئزة . و محا الشقاء كل عاطفة نبيلة في نفسها إلا عاطفة الحنان و الأمومة . كانت تحب ابنتها حب عبادة و كلما انحدرت في قرارة الهاوية , تألق هذا الحب و أضاء جوانب نفسها المظلمة المفعمة بالياس و الحنق قالت لنفسها : متي اصبحت غنية فأنني أبعث في طلب ابنتي كوزيت و نعيش معاً , ولن تستطيع اي قوة أن تفرق بيننا بعد ذلك .وضحكت وسعلت . و في أحد الأيام تسلمت فانتين رساله من تيناردييه يقول فيها :
" لقد اصبحت كوزيت بالحمى الصفراء , و العقاقير الطبية قد كلفتنا كثيراً ولم يعد في استطاعتنا دفع ثمنها بعد الآن وإذا لم ترسلى اربعين فرنكاً قبل انقضاء اسبوع ماتت ابنتك "
قرأت فانتين هذه الرساله , و انفجرت ضاحكة . ثم خرجت إلى الشارع و هي لا تزال تضحك و تغنّي وسألها سائل عن سبب فرحها
-أتسألني عما يضحكني ؟! إن أحدهم يطلب مني أربعين فرنكاً .
فهل سمعت بأعجب من هذا؟!
ومرت بسوق المدينة و رأت جماعة من الناس يدورون بمركبة كبيرة قد و قف فيها رجل يرتدي ثوباً أحمر .
كان الرجل طبيب أسنان متجولاً وكان يعرض على الجمهور العقاقير المسكنة و المساحيق و الأسنان الاصطناعية و يغرى الناس بخلع أسنانهم المتداعية . و اصغي الناس إلى حديثة اللبق , وضحكوا . وضحكت فانتين فأبصر الطبيب اسنانها اللؤلؤية وهتف : ما ابدع اسنانك ايتها الحسناء الضاحكة إذا فكّرت في الخلاص من سنيك الأماميّتين فإنني على استعداد لان أدفع جنيها ثمناً لكل سن .
فهتفت فانتين بدورها ياله من فكره مخيفه !!
و قالت امرأة عجوز لها فم الطفل الرضيع :

- جنيهان ! ما أسعد هذه الفتاة !
و أوسعت فانتين الخطى , و و ضعت أصابعها في أذنيها لكي لا تسمع صوت الطبيب و هو يصيح في أثرها .
فكري في الأمر أيتها العزيزة . جنيهان أفضل في هذا الزمن من الأسنان وإذا وافقت في انتظارك الليله في حانة "بياك دارجان"
وعادت فانتين إلى غرفتها وهي تتميز غيظاً وغضباً . وحدثت مارغريت بما حدث . وصاحت :
- هل رأيت في حياتك رجلاً أشر من هذا الطبيب ! يريد الشقي أن ينتزع السنين الأماميتين من فمي لكي أبدو قبيحة دميمة . مخيفة المنظر ..لالخير لي أن ألقي بنفسي من النافذة . وأموت .. ذلك أفضل ألف مرة من ضياع أسناني ..
فسألتها مرغريت : وما الثمن الذي عرضه عليك ؟
- إنه عرض علي جنيهين
- أي أربعين فرنكاً
وهنا ظهرت على وجه فانتين علامات الهم والتفكير . وتناولت رسالة تيناردييه . وأعادت قراءتها . ثم قالت :
- هل تعرفين ما هي الحمى الصفراء ؟ وهل تتطلب هذه الحمى كثيراً من العقاقير والأدوية ؟
فأجابتها مرغريت : أظن ذلك ..
- وهل تعتقدين أن هذه الحمى تصيب الأطفال ؟
- إنها تفتك بهم . أشد ما تفتك بالكبار ..
فأعادت فانتين قراءة الرسالة . ولما هبط الليل تسللت من غرفتها . وخرجت إلى الشارع ..
وفي الصباح . دخلت مرغريت إلى غرفة فانتين لتوقظها كالمعتاد
لأنهما كانتا تشتغلان بالتطريز معاً . ولكنها وجدتها جالسة في فراشها . وخيل إليها أنها كبرت في تلك الليلة عشرة أعوام ..
هتفت : يا إلهي .. ماذا دهاك يا فانتين ؟!
فأجابت فانتين :
- لا شيء . إنني في خير حال . لن تكون الحاجة إلى الأدوية والعقاقير الطبية سبباً في موت ابنتي بالحمى الصفراء . إنني مطمئنة .. ناعمة البال ..
قالت ذلك . وأشارت إلى جنيهين يلمعان فوق المائدة . وابتسمت ..
ولكنها كانت ابتسامة مخيفة . فقد انفرجت شفتاها عن هوة عميقة مظلمة . وسال من ركن فمها خيط من الدم ..
وأرسلت الأربعين فرنكاً إلى تيناردييه . وفرك تيناردييه كفيه ارتياحاً لأن كوزيت لم تكن مريضة .. وقذفت فانتين بمرآتها من النافذة . واستعاضت عن غرفتها الفسيحة بثقب مظلم في الطابق الأرضي . وأفقدها العوز خيلاءها . كما أفقدها حياءها . فراحت تسير في الشارع في خرق مهلهلة . إما لإهمالها أو لضيق وقتها .. واستبد بها الدائنون . فهم يرابطون لها في الشارع . ويقتحمون عليها غرفتها ..
واشتدت عليها وطأة السعال . وشعرت بألم مزمن كامن تحت ضلعها الأيسر ..
ولكنها ظلت تعمل سبع عشرة ساعة في النهار . إلى أن خطر لذوي الشأن أن يستخدموا السجينات لصنع أقمشة الجنود . وعندئذ سدت في وجه فانتين جميع أبواب الرزق ..
وإنها في هذا الضيق القاتل .. إذا بها تتسلم رسالة من تيناردييه يقول فيها:

« أنه انتظر طويلاً . حتى ضاق صدره وأنها إذا لم تبعث إليه بمائة فرنك في الحال . فإنه يلقي بابنتها - التي لم تبرأ من مرضها بعد - إلى قارعة الطريق ..»

وقرأت فانتين هذه الرسالة وهتفت : مائة فرنك .. يا إلهي ! أين المهنة التي أستطيع أن أربح منها مائة سنتيم في اليوم ؟ يجب أن أبيع كل ما تبقى ..
ونزلت الفتاة التعسة إلى الشارع .. لتعرض للبيع آخر ما تحرص عليه المرأة الشريفة ..



بعد ثمانية أو عشرة شهور . في ليلة شديدة البرد والصقيع . كان أحد المتبذلين يسير متسكعاً في الطريق . وقد دس يديه السمينتين في جيوب معطفه السميك .. ووقع بصر الرجل على امرأة تسير جيئة وذهاباً . أمام نافذة مقهى الضباط ..

وكانت المرأة ترتدي ثوباً رقيقاً كثياب المراقص . ينحسر عن صدرها . ويكشف عن ساعديها ..كانت من أولئك المخلوقات التعسة . التي تتسلل تحت جنح الظلام وتتسكع أمام المقاهي والحانات . لتغري المارة وتلفت إلى نفسها الأنظار ..وأراد الرجل أن يداعبها . ولكنه كان سمجاً . فكانت دعاباته كالقذائف ..

قال لها : ما أشد بشاعتك ! أليست لك أسنان ؟!!

ولم تلق المرأة إليه بالاً . بل ولم تنظر إليه . واستمرت تروح وتجيء بانتظام . فوق الأرض المغطاة بالثلوج ..ومضى الرجل في وقاحته . وراح يرميها بوابل من السخرية اللاذعة . والدعابات السمجة .. وكأنما ضايقه ألا تحفل المرأة به . فانتظر حتى دارت على عقبيها . ثم تسلل وراءها بخفة . والتقط حفنة من الثلج . ودسها بين كتفيها العاريتين .. وأفلتت من فم المرأة صرخة مزعجة . ووثبت على الرجل كالفهد وراحت تغرز أظافرها في وجهه بوحشية . وترسل من فمها الجرد من الأسنان سيلاً من الشتائم . بصوت أكسبته الخمر خشونة مخيفة .. كانت هذه المرأة هي فانتين . وكان الرجل من الموسرين المعروفين في المدينة . ويدعى (باتابوا) ..

وامتلأ الجو بصراخ المرأة . وشتائم الرجل فازدحم المارة . وخرج الضباط من المقهى . ودار الجميع بالرجل والمرأة وراحوا يصفقون ويضحكون ..وكان الرجل يحاول عبثاً أن يتخلص من براثن المرأة . وقد سقطت قبعته . وتهدلت ثيابه . والمرأة تضرب بيديها . وتركل بقدميها وقد انكشف رأسها . فبدت بلا شعر . وانفرجت شفتاها . فبدت بشعة مقيتة مخيفة .. وفجأة برز رجل طويل القامة . راح يشق طريقه وسط الزحام .حتى وصل إلى حيث كانت المرأة . فأمسك بثوبها الحريري الملوث بالأوحال . وقال لها بلهجة الآمر :

- اتبعيني ..

ورفعت المرأة رأسها . وأبصرت بالرجل . فاختنق صوتها . واصفر لونها . وارتجفت خوفاً وفزعاً ..عرفت في هذا الرجل المفتش جافير ..

أما غريمها . فإنه انتهز تلك الفرصة . وتوارى عن الأنظار .. "

وسار جافير نحو مكتب الشرطة وهو يمسك بثوب المرأة وتبعته المرأة كالآلة الصماء و ولم ينطق أحدهما بكلمة.

كان مكتب الشرطة قائماً في غرفة ضيقة , منخفضة السقف . لها باب من زجاج يحرسه شرطي مسلح فدخل جافير تلك الغرفة و اجتذب فانتين , وإلق الباب في وجه الفضوليين الذين تبعوهما.و قبعت فانتين في أحد أركان الغرفة كالكلب المذعور و جلس جافير أمام مكتبه و تناول ورقة و قلماً , و راح يكتب. وفي ذلك العهد و كانت مصائر هذه الطبقة من النساء رهن إرادة رجال الشرطة. وكانت القضية واضحه , فهناك بغيّ تحرشت بأحد المارة و اعتدت عليه وشهد مفتش الشرطة بعينيه هذا العدوان.واستمر جافير يكتب وهو صامت ثم ذيل الورقه باسمه, وطوها وقدمها إلى أحد رجال الشرطة وهو يقول :أذهب بهذه المرأة إلى السجن.

وتحول إلى فانتين وأردف:ستقضين في السجن ستة أشهر.

فرفعت الفتاة رأسها في دهشه,وصاحت.

-ستة اشهر !ستة أشهر في السجن ,حيث لا ربح سوى سبعة سنتيمات كل يوم؟ وماذا يكون من أمر كوزيت ؟ ماذا يكون من أمر ابنتي؟ ثم إنني أدين لتيناردييه بمئة فرنك ونيف,أفتعلم ذلك ياسيدي المفتش؟

وعقدت يديها فوق صدرها متوسلة,واجتازت الغرفة سيراً على ركبتيها حتى وصلت إلى مكتب المفتش وهتفت:

-أسألك الرحمة يامسيو جافير .أوكد لك أنني لم أذنب .لو أنك رايت البداية لاقتنعت بأنني لم أذنب .إنني لا أعرف

هذا الرجل،وقد وضع الثلج بين كتفي،فجن جنوني،وقبل ذلك كان يهزأ بي،ويسخر مني فقلت لنفسي :صبراً...هذا رجل يريد أن يلهو،فلا ضير عليه ولزمت جانب الصمت .ولكنه مضى في عبثه و بغيه،حتي وضع الثلج بين كتفي ألا يوجد من يشهد على صدق كلامي يا مسيو ياجافير ؟
إنني أخطأت حين و طئت قبعة الرجل وأتلفتها،ولكن اين ذهب الرجل ؟
إنني على استعداد لأن أطلب منه الصفح و المغفرة أعف عني هذه المرة يامسيو جافير !لاشك أنك لاتجهل أن السجين لايربح أكثر من سبعة سنتيمات ،ويجب عليّ أن أدفع مائة فرنك ،وإلا طُردت ابنتي ،وتُركت على قارعة الطريق.
أواه...يا كوزيت المسكينة !يا ابنتي العزيزة!ماذا يكون من امرك ابتها الصغيرة المسكينة؟!رحمة بي يامسيو جافير.
فقال جافير: لقد اصغيت إليك فهل قلت كل ماعندك؟! اذهبي الآن ستقضين في السجن ستة اشهر.
و أولاها ظهره فاقترب الشرطي من الفتاة وأمسك يساعدها.
وكان الباب قد فتح في هدوء قبل بضع دقائق ودخل منه رجل لم يشعر به أحد.
وقد وقف هذا الرجل لصق الباب ،فحجبه جسم الشرطي عن عيني جافير.
وسمع الرجل توسلات فانتين وطلبها المعونة بذل ولم يأت بحركة أو ينطق بكلمة.
ولما أمسك الشرطي ساعد الفتاة و اجتذبها بعنف و الفتاة تابى أن تنهض من مكانها برز الرجل من الظلام ،وقال محدثاً الشرطي: أرجو أن تنتظر لحظة.
و نظر جافير إلى المتكلم ،وعرف فيه الأب مادلين , فرفع قبعته وأحنى قامته في احترام،وغمغم :طاب مساؤك ياسيدي العمدة!
وأحدثت كلمة العمدة تاثيراً عجيباً في فانتين ،فإنها نهضت من مجثمها في الحال كأنها شبح يبرز من الأرض ،وانتزعت ساعدها من قبضة الشرطي بقوة و وثبت إلى حيث كان الأب مادلين فرمقته بنظره وحشية وهتفت :أهذا أنت ايها العمدة؟!
وقهقهت ضاحكة ووبصقت على وجهه .فمسح الأب مادلين وجهه بيده ،وقال:
-ايها المفتش جافير أطلق صراح هذه المرأة.
ومرت بجافير لحظة خيل إليه فيها أنه سيفقد عقله.
أتبصق بغيّ على وجه العمده ؟ تلك في نظره جريمة مستحيلة الوقوع،وإذا وقعت فهي اشد نكراً من الكفر .
ولما رأى العمدة يمسح وجهه في هدوء وسمعه يقول:"أطلق سراح هذه المرأة"،استولى عليه ذهول الجم لسانه ،وشل تفكيره وجعله يجمد في مكانه كالصنم.
كذلك أحدثت عبارة العمدة تاثيراً عجيباً في فانتين،فرفعت ساعديها العاريين و تعلقت بالباب كمن يخشى السقوط.ثم أجال حولها نظرة شاردة،وراحت تقول بصوت خافت كأنها تتحدث إلى نفسها:
-أنا حره طليقة! ولن أقضي في السجن ستة اشهر ؟! من ذا الذي قال ذلك؟
لايمكن أن يكون القائل هو هذا العمدة الشرير .أنت الذي قلت ذلك يا مسيو جافير الطيب القلب.سأصارحك إذاً بالحقيقة و ستطلق سراحي . لقد كان هذه العمدة الأثيم علة مصائبي ،فإنه اصغى إلى وشاية الواشين فطردوني من مصنعة .ومنذ ذلك العهد لم اربح ما يكفيني وبهذه المناسبة يجب أن ألفت رجال الشرطة إلى أمر جدير بالاهتمام،وهو ضرورة منع نزلاء السجون من الإضرار بأرزاق الفقراء.فالنساء في السجون يصنعن أقمصة الجند باجر زهيد جعل عملنا مستحيلاً .وقد كان يتعين عليّ أن أنفق على ابنتي الصغيرة كوزيت فاضطررت أن اسلك طريق الفساد واضرب بالشرف عرض الأفق .وجريمتي الآن هي أنني وظئت بقدمي قبعة ذلك الرجل ولكن الرجل أتلف ثوبي بالثلج الذي دسه في ظهري ومثيلاتي لايملكن في الغالب غير ثوب واحد وأوكد لك يامسيو جافير أنني لم اتعمد قط الإضرار بأحد،اني أعرف نساء اشد مني رداءة ولكنها اسعد مني حظاً.هل قلت إنني حرة طليقة يا مسيو جافير؟
واصغى إليها الأب مادلين بانتباها شديد حتي فرغت من الكلام فسألها:
-قلت إنك مدينة ببعض المال فكم يبغ دينك؟
فتحولت إليه فانتين وهتفت :هل تحدثت إليك؟
ثم نظرت إلى الشرطي واستطردت:
-حدثني إيها الشرطي إلم تر كيف بصقت على وجهه ؟
لإنك جئت لتخيفني ايها العمدة الشرير ولكني لا أخشاك ،ولاأخشى أحداً غير مسيو جافير الطيب القلب.
ونظرت إلى المفتش مرة أخرى وأردفت :

-لقد أدركت الآن أنك رجل منصف ياامسيو جافير.و الواقع أن الحادث في غاية البساطة فقد وضع الرجل الثلج في ثوبي لاضحكاك الضباط في المقهى,وللضباط كل الحق في أن يلهو و يضحكوا,فنحن معشر النساء لم نحلق إلا لإدخال المسرة إلى قلوب الرجال وحضرت أنت في هذه الأثناء ياامسيو جافير,ولما كان الواجب يقضي عليك بأن تصون الأمن و النظام ,فإنك جئت بي إلى هنا ظنا منك إنني المخطئة.ثم فكرت في الأمر و تبينت الحقيقة فأطلقت سراحي,ومن أجل ابنتي الصغيرة,لأن وجودي في السجن يغل يدي ويمنعني من أهونها وإني أعاهدك ياامسيو جافير ألا أفعل في المستقبل مايستوجب إحضاري إلى هنا ,ليفعل بي الناس ماشاءوازفلن اتذمر و لن أحرك ساكناً.وإذا كنت الليلة قد صرخت . وأحدثتهذه الضجة,فما ذلك إلا لأن برودة الثلج أزعجتني وأنا مريضة كما يجب أن تعلم,إنني اسعل باستمرار واشعر كأن ناراً تستعر في صدري.ناولني يدك أدلك على موضع الآلم ,ناولني يدك و لاتخف وتناولت يده الخشنة و وضعتها على صدرها الضعيف و هي تبتسم.

ثم اصلحت ثوبها بسرعة و قصدت إلى الباب,وقالت وهي تحي الشرطي بابتسامة:

-لقد قال مسيو جافير إنني استطيع الانصراف,وهأنذا أنصرف وألقت بيدها على مقبض الباب وهمت بالخروج.

كان جافير حتي هذه اللحظة مطرقاً رأسه لايبدي حراكاً فلما سمع مقبض الباب يتحرك رفع رأسه كمن يستقيظ من نوم عميق وصاح بالشرطي بلهجة صارمة:

-ايها الشرطي,ألا ترى أن المرأة تهم بالفرار؟ من ذا الذي أمرك بإطلاق سراحها؟!

فقال مادلين :إنني أمرته.

وسمعت فانتين صوت جافير,فارتجفت وتركت مقبض الباب .

ثم سمعت صوت مادلين فتحولت إليه.

ولم تنطق بكلمة بعد ذلك .بل راحت تنقل البصر بين مادلين و جافير كلما تكلم أحدهما.

قال جافير :

-ياسيدي العمدة,ذلك لايمكن أم يكون. فهذه المخلوقة قد أهانت رجلاً محترماً.

فأجاب مادلين بصوت هادئ وبلهجة رقيقة:

-اصغ إلي يا مسيو جافير .إنك رجل أمين و يقيني أنني لن أجد صعوبة في إقناعك,والحق أنني مررت بمكان الحادث بعد انصرافك بهذه الفتاة فأيت زحاماً فاستفسرت عن سببه و عرفت الحقيقة.

لقد كان الرجل مخطئاً ,كانت العدالة تقضي بأن تقبض عليه بدلاً منها.

-ولكن هذه المخلوقة التعسة قد أهانت سيدي العمدة منذ لحظة.

فأجاب مادلين:ذلك من شاني وحدي.

-عفواً ياسيدي!إنها جريمة ليست من شأنك ولكنها من شأن النحكمة.

فقال مادلين كيامسيو جافير,إن الضمير هو المحكمة العليا.

لقد سمعت كلام المرأة,وإني أعرف ما أنا صانع.

-أما أنا ياسيدي العمدة فإنني لا أكاد أفهم ما أرى.

-في هذه الحاله يكفيك أن تطيع .

-إنني اطيع واجبي.والواجب يقضي بأن أرسل هذه المرأة إلى السجن لتمضي فيه ستة اشهر.

فأجاب مادلين في لطف :أصغ إليّ جيداً ياامسيو جافير .هذه المرأة لن تقضي في السجن يوماً واحداً!!

وسمع جافير هذه الكلمات الحاسمة فنظر إلى العمده ,وهذه أول مرة في حياتي اعارض فيها أحد رجال الشرطةولكني ارجو أن تلاحظ أنني لم أتخط حدود واجباتي .فهذه المرأة قد أهانت مسيو باماتابوا,وهو رجل معروف يملك ذلك القصر الشاهق الكائن في شارع "سيلاند" عند طرف المدينة ,والبت في هذه القضية من اختصاص شرطة المدينة وانا مصر على معاقبة هذه المرأة .فعقد مادلين ساعديه فوق صدره,وقال بصوت صارم لم يسمعه أحد في المدينة من قبل:

بل إن هذه القضية من خصائص شرطة الضواحي ,لأن الرجل يقطن طرف المدينة و المواد 9و 11و15و66 من قانون العقوبات تجعل من حقي وحدي أن أقضي فيها,وقد قضيت بإطلاق سراح المرأة.
فحاول جافير أن يبذل مجهوداً أخيراً وقال:
ولكن سيدي العمدة...
فقاطعه مادلين:وإني ألفت نظرك إلى المادة 81 من القانون الصادر في 13 ديسمبر 1799 بشأن حجز الابرياء بغير حق.
-عفواً ياسيدي...أرجو أن تسمح لي ...
-إنني لا أسمح لك أن تزيد كلمة أخرة.
-ومع ذلك ...
-أترك هذه الغرفة.
فأحنى جافير قامته باحترام عظيم و انصرف.
كانت فانتين لاتزال واقفه بالباب ترقب مايحدث و هي ذاهلة مذعورة .
شهدت ذلك النضال العجيب بين رجلين يسيطران على مصيرها,وبين ايديهما حريتها وحياتها ,ومصير ابنتها,وسمعت أحد الرجلين يتكلم كالشيطان,والآخر كملاكها الحارس ,ورأت الملاك يهزم الشيطان.
بيد أن الأمر الوحيد الذي أذهلها وجعلها ترجّف من قمة رأسها إلى أخمس قدميها هو أن منقذها وملاكها الحارس كان الرجل نفسه الذي تمقته أككثر ما تمقت إي أنسان آخر في الوجود.كان هو العمدة الذي طالما ظنته سبب شقائها وأصل محنتها و قد انقذها في الوقت الذي لطخت فيه وجه بتلك الإهانه الخيفة.
أصغت إلى حديث الرجلين.وشعرت مع كل كلمة من كلمات الأب مادلين كأن ظلام الكراهية ينقشع من قلبها لكي يفسح سبيلاٍ لعاطفة جديدة,هي مزيج من الارتياح و الثقة و الحب و الإجلال.
وما غن انصرف جافير حتى تحول إليها مادلين ,وقال بصوت خافت ,وهو صوت الرجل الرزين الذي يبذل جهداً كبيراً ليحبس دموعه.
-لقد سمعت قصتك ولا أعرف شئياً عما ذكرت.ولكني أعتقد وأشعر بأنك ذكرت الحقيقة,ولم يكن لي علم أنك تركت المصنع. فلماذا لم تلجأي إلي؟!
ولكن اصغي إلي ,سأحدثك بما سأفعله من اجلك.
ساقوم على سداد ديونك وسأحضر ابنتك ,أو اذهبي إليها إذا أردت وفي استطاعتك أن تعيشي هنا ,أو في باريس,أو في أي مكان تردين وسأمدك بالمال اينما كنت, كي تستردي سعادتك المفقودة وتعودي إلى حياة الشرف و الكرامة .بل إنني أقول لك أكثر من ذلك ...أقول لك إنه أذا صح كل ماذكرت,ولاشك عندي في صحته,فإنك لم تكوني قط في نظر الله إلا امرأة طاهرة فاضلة كريمة . مسكينة أنت أيتها المرأة. وكان ذلك أكثر ماتستطيع فانتين التعسة أن تحتمل.
أتعود إليها فانتين؟ وتنفض عن حذائها تراب الرذيله و تعيش مع ابنتها حرة سعيدة محترمة موفورة الحاجة؟
إلا إن هذه هو النعيم الذي ليس في الدنيا ولا الآخره نعيم مثله نظرت في ذهول إلى الرجل الذي يتحدث إليها وولم تستطع إلا أن تردد:آه...آه.
وترنحت وسقطت على ركبتها أمام الب مادلين,وقبل أن يمنعها تناولت يده و ألصقتها بشفتها,ثم أغمي عليها.
وأمر بها الأب مادلين,فنقلت إلى المستشفي الملحق بمنزله,والذي أعده خصيصاً لإيواء المرضى من العمال وأوصى الراهبتين اللتين تقومان على العناية بالمرضى أن تعنيا بها اشد عناية.
وقضت فانتين شطراً كبيراً من الليل وهي تهذي وتصيح بصوت مرتفع ,ثم هبطت وطأة الحمى فنامت نوماً عميقاً.
ولما فتحت عينيها قبيل اليوم التاليو شعرت بأنفاس تتردد على مقربة منها,فأطلت من كلة الفراش ,ورأت الأب مادلين ينظر إلى شئ على الجدار فوق الفراس وفي عينيه نظرة إشفاق و رجاء ولم فتتبعت نظراته ,وقع بصرها على تمثال السيد المسيح.سألت في خجل:ماذا تصنع؟! وكان الأب مادلين قد قضى بالقرب من الفرراض ساعة أو بعض ساعة في انتظار أن تستيقظ فتناول يدها و جس نبضها ,وسأل:كيف حالك؟
-إنني في خير حال,فقد نمت نوماً عميقاً
فأجاب عن سؤالها الأول : لقد كنت أبتهل للشهيد المصلوب.
وكان أجدر به أن يقول : لقد كنت ابتهل للشهيدة الممددة على الفراش .
وكان الرجل قد قضى الليل كله في البحث و الاستفسار حتى علم حقيقة الخبر و عرف قصة فانتين المؤلمة.

قال:مسكينة أنت أيتها الأم,لقد تألمت كثيراً,ولكن لاتحزني فآلامك من النوع الذي يجعل من البشر ملائكة,والجحيم الذي أحرقت فيه هو الدهليز الموصل إلى النعيم .

و ذاع نبأ الجدل العنيف الذي دار بين مفتش الشرطة و العمدة فلما وقع بصر موظف البريد في اليوم التالي على رسالة بخط جافير و عليها اسم مدير الشرطة في باريس أيقن أن المفتش أرسل يستقيل من منصبه.

أما الأب مادلين,فإنه كتب فوراً إلى تيناردييه.وكان قد علم من فانتين أنها تدين لصاحب الحانة بمائة و عشرين فرنكاً,فأرسل إليه ثلاث مئة فرنك وأمره بان يبعث بكوزيت في الحال,لأن أمها المريضة تنتظرها.

وتسلم تيناردييه هذا المبلغ فدهش ,وقال لامرأته:

-يجب ألانترك هذه الطفلة ,فسوف تكون لنا كالبقرة الحلوب وأكبر ظني ان أحدهم قد وقع في غرام أمها.

وأجاب عن رسالة مادلين بأن مرض كوزيت كلفه مائة فرنك أخرى.

فبعث إليه مادلين بهذه المبلغ,مضافاً إليه مائتا فرنك وألح عليه أن يرسل كوزيت على عجل.

فقال تيناردييه:كلا.كلا.يجب أن نحتفظ بالفتاة .إنها منجم يدر علينا ذهباً.

ولم تبرأ فانتين م. سقمها ,وكانت الراهبتان قد استقبلتاها أولا بشئ من النفور و الاشمئزاز.ولكن لم تمض ايام قلال حتى محا لطف فانتين نفورهما,وأثار حنانها وأمومتها الرقيقة عاطفة الرحمة و الإشفاق في قلبيهما.

وراح مادلين يزورها مرتين كل يوم ,فتسأله فانتين في كل مرة:

-هل أرى ابنتي قريباً؟

فيجيبها : ربما غداً.إنني أنتظرها في أية لحظة.

فيضي,وجهها الشاحب,وتهتف:كم أكون سعيده!

ولم تتبدل حالتها .فقد اضرت بها حفنة الثلج التي دسها الرجل في ظهرها واشتد سعالها.

وفحصها الطبيب وهز رأسه ,فنظر إليه مادلين مستفسراً.

قال الطبيب:هل إن لها ابنه تريد أن تراها؟

-نعم.

-إذاً فأحضرها على عجل.

فقطب مادلين حاجبيه,وسألته فانتين:ماذا قال الطبيب؟

فابتسم مادلين على كره منه وأجاب:

-أنه طلب أن أعجل بإحضار الطفلة,لأن وجودها يبرئك من سقمك.

فصاحت:لقد صدق الطبيب!ولكني لا أدري لماذا أبطأ تيناردييه.

ولم يرسل تيناردييه الطفلة.والتمس لذلك أسخف الأعذار .فقد قال إن كوزيت لاتزال مريضة ,ومن المجازفة بصحتها أن يسمح لها بالسفر في الشتاء. وضاق مادلين ذرعاً فقال:

سأبعث من ياتي بكوزيت .وإذا قضت الضرورة فإنني أذهب أنا بنفسي.

وطلب إلى فانتين أن توقع باسمها على رسالة جاء فيها :

"مسيو تناردييه ...

" أريد أن تعهد بابنتي كوزيت إلى حامل هذه الراسلة,وسيتولى عني سداد ما عليّ من ديون "

وفي صباح أحد الأيام . بينما كان الأب مادلين في مكتبه يستعد للسفر إلى (بولانجيه) ويرتب أوراقه الرسمية . إذا بالخادم ينبئه بأن المفتش جافير يرجو مقابلته ..وشعر الأب مادلين بانقباض حين سمع هذا الاسم . ولكنه قال :

- دعه يدخل ..

ودخل جافير . وأحنى قامته للأب مادلين ..

لم يكن في نظرته شيء من الحقد . أو الموجدة . أو الريبة .. ولكن مسحة من الحزن كانت واضحة على سحنته الصارمة التي كانما نحتت من الجرانيت ..

ووضع مادلين القلم من يده . وتحول إلى المفتش وسأل :

- ماذا وراءك يا جافير ؟

فظل جافير صامتاً كأنه يفكر . ثم قال بصوت مرتفع :

- لقد حدث أمر منكر يا سيدي . فقد أخل أحد صغار الموظفين بواجباته حيال رجل من رجال السلطة . وقد جئت بحكم واجبي . لإبلاغكم بالأمر ..

- ومن هو هذا الموظف ؟
- أنا ..
- ومن هو رجل السلطة الذي يشكو الموظف ؟
- أنت يا سيدي العمدة .. وقد جئتك الآن لأنبهك إلى المطالبة بفصلي من العمل ..
ففتح مادلين فمه في دهشة وعجب .. واستطرد جافير :
- ستقول أنه في استطاعتي أن أقدم استقالتي . ولكن الاستقالة لا تكفي . فإنني تورطت في خطأ أستحق عليه العقاب . ولذلك يجب أن أطرد من الخدمة طرداً ..
وصمت للحظة ثم أردف :
- يا سيدي العمدة .. إنك قسوت في معاملتي منذ أيام بغير حق . فكن قاسياً اليوم بحق ..
فهتف مادلين :
- ما معنى كل هذا ؟ إنك تتهم نفسك . وتريدني أن أطلب نقلك . و ....
- بل أرجو أن تطلب طردي ..
- ولكني لا أفهم شيئاً من كل هذا ..
فتنهد جافير . وقال ببرود . ولكن بحزن :
- اعلم إذاً يا سيدي العمدة أن ذلك الخلاف الذي شجر بيننا منذ ستة أسابيع قد أغضبني . وأثار حقدي عليك . فوشيت بك إلى مدير البوليس في باريس ..

لم يتعود الأب مادلين أن يضحك . لكنه انفجر الآن ضاحكاً وهتف :
- هل وشيت بي بصفتي عمدة طغى بسلطته على سلطة رجال البوليس ؟!
- بل بصفتك سجيناً سابقاً في ليمان طولون ..
فامتقع لون الأب مادلين . ومضى جافير في حديثه دون أن يرفع بصره عن الأرض :
-لقد حسبتك ذلك السجين . فإن ما بدا من قوة عضلاتك في حادث فوشليفان والشبه العجيب الذي لمحته في تقاطيع وجهك . والمعلومات التي ذهبت تستقيها من قرية (فافيرول) . كل ذلك حملني على الارتياب بأنك جان فالجان . وهو سجين سابق . رأيته منذ عشرين سنة حين كنت حارساً في ليمان طولون .. وقد علمت من أمر هذا السجين فيما بعد أنه سرق أمتعة أحد الأساقفة واغتصب قطعة نقود من أحد الغلمان . وضاع أثره منذ ثمانية أعوام رغم الجهود التي بذلت في البحث عنه ..
فقال الأب مادلين بقلة اكتراث وهو يتصفح دفتراً بين يديه :
- وماذا كان الرد الذي تلقيته من باريس ؟
- جاءني الرد بأنني مجنون .. وهي الحقيقة ..
- من حسن الحظ أن تعترف بذلك ..
- وهل أستطيع الإنكار ؟! وقد قبض على جان فالجان الحقيقي ؟
فأفلت الدفتر من بين يدي مادلين . ورفع رأسه . ونظر إلى جافير دهشاً مستفسراً ..
قال جافير :
- الواقع .. أنه كان يوجد في مدينة (إيلي) رجل رقيق الحال متقدم في السن يدعى (شانماثيو) . وقد ضبط هذا الرجل أخيراً متلبساً بسرقة تفاح من إحدى الحدائق .. وأرسل إلى سجن (آراس) وتصادف أن كان في سجن (آراس) سجين قضى بضعة أعوام في ليمان طولون . فما كاد يبصر بشانماثيو حتى صاح : إنني أعرف هذا الرجل ! وقد رأيته في ليمان طولون . انظر إلي يا هذا ! ألست أنت جان فالجان ؟
فأنكر شانماثيو . وأصر على الإنكار . بيد أن سجينين آخرين عرفاه في الحال . فلما وشيت بك . جاءني الرد بأنني معتوه . وأن جان فالجان مسجون فعلاً رهن المحاكمة ..
ولكني أردت أن أتحقق من الأمر بنفسي . فاتصلت بذوي الشأن في (آراس) . وسمحوا لي بمقابلة السجين ..
- وهل قابلته ؟
- الحق يا سيدي العمدة .. أن ذلك السجين هو جان فالجان . وقد رأيته . وعرفته . فأرجو صفحك ..
فلم يجبه مادلين . بل سأل بسرعة :

- وماذا يقول هذا الرجل ؟
- إن موقفه زاد حرجاً يا سيدي العمدة .. لأن قضيته لم تعد قضية شيخ مسكين سرق بضع تفاحات . بل قضية مجرم عائد . سطا قبلاً على منزل أحد الأساقفة . واغتصب عنوة مال غلام ضعيف .. وهو لن يحكم الآن أمام محكمة البوليس . بل سيقدم إلى محكمة الجنايات . وسيكون جزاؤه السجن المؤبد .. على أن جان فالجان رجل ماكر . وأي إنسان في مركزه . كان لا بد أن يحتج . ويقاوم . ويقسم أنه ليس جان فالجان . أما هذا الشقي . فإنه يزعم أنه لا يدري مما حوله شيئاً . ويقول أنه شانماثيو . ويرفض الإقلاع عن زعمه . ويتظاهر إلى جانب ذلك بالبلاهة . والغباء . ولكن الأدلة كافية . ويوجد أربعة شهود - وأنا واحد منهم - يؤكدون أنه جان فالجان . وقد دعيت فعلاً لأداء الشهادة في محكمة جنايات (آراس) ..
وكان الأب مادلين قد عاد إلى عمله . فراح يكتب تارة ويقرأ تارة أخرى .. قال فجأة :
- كفى .. كفى يا جافير . هذه التفاصيل لا تهمني كثيراً .. ووقتنا أثمن من أن يصرف في غير أعمالنا . ألم تقل أنك ستذهب لأداء الشهادة في محكمة (آراس) بعد أسبوع أو عشرة أيام ؟
- بل قبل ذلك يا سيدي
- متى إذاً ؟
- غداً .. وسأبدأ رحلتي إلى (آراس) الليلة ..
- وهل تستمر المحاكمة طويلاً ؟
- يوماً على الأكثر . وقد يصدر الحكم في المساء . ولكني لن أنتظر صدوره . بل سأعود أدراجي بعد أداء الشهادة مباشرة ..
قال مادلين ببساطة :
- حسناً
وكان المنتظر بعدئذ أن ينصرف جافير . ولكنه لم يبرح مكانه ..
قال الأب مادلين :
- ماذا عندك أيضاً ؟
- أريد أن أذكرك بأن تطلب طردي ..
فنهض مادلين واقفاً وقال :
- إنك رجل شريف يا جافير . وأنا أقدرك . وأعتقد أنك تبالغ في تجسيم هفوتك .. وأصر على بقائك في منصبك ..
فقال جافير في هدوء :
- إنني لا أسمح بذلك يا سيدي العمدة ..
- دعني أقول لك مرة أخرى .. إن هفوتك من شؤوني الشخصية ..
ولكن جافير لم يسمع غير صوت ضميره . قال :
- يا سيدي العمدة . إنني أعامل نفسي كما يجب أن أعامل الغير . وكثيراً ما شعرت بقسوتي على المذنبين والخاطئين فكنت أقول كن على حذر يا جافير . فالويل لك إذا هفوت .. وقد هفوت . وحقدت علي العقوبة ..إن من مصلحة المجتمع أن يكون خدامه مثلاً عليا في النزاهة . وقد أصبحت بعد هذه الهفوة غير جدير بخدمة المجتمع ..
إنني قوي الساعدين يا سيدي العمدة وسأفلح في الأرض وأصبح عاملاً . وكل ما أطالب به الآن . هو طرد المفتش جافير ..
فقال مادلين :
- سوف نرى في ذلك ..
وبسط إليه يده . ولكن جافير تراجع خطوة . وقال في حزم :
- عفواً يا سيدي . ينبغي على العمدة ألا يضع يده في يد جاسوس . إنني أصبحت جاسوساً فحسب منذ أسأت استخدام سلطة وظيفتي ..
وأحنى رأسه باحترام . ومشى إلى الباب . وهناك نظر وراءه . وقال دون أن ينظر في وجه العمدة :

- سأستمر في عملي . حتى يأتي خلَفي ..

وسمع مادلين وقع أقدامه الثقيلة وهو يبتعد بخطوات متئدة ورزينة .. "



ذهب مادلين بعد ظهر ذلك اليوم لزيارة فانتين كالمعتاد وكانت تنتظره دائماً بفارغ الصبر كمل لو كان يحمل اليها الدفء و الضوء ووقد استبدت بها الحمى في ذلك اليوم , فلم تكد ترى الاب مادلين حتي هتفت : اين كوزيت؟

فأجابها وهو يبتسم :ستأتي قريباً.

وطالت زيارته اكثر من المعتاد وقضي في غرفتها ساعه وأوصى الراهبتين ان توفر لها اسباب الراحه ما استطاعنا إلى ذلك سبيلاً ولوحظ عليه أنه اكتئب حين همس الطبيب في اذنه كلاماً .وعاد مادلين بعد ذلك إلى مكتبه ولاحظ أحد الموظفين أنه يطيل النظر إلى خريطة مثبته بالجدار , تبين طرق فرنسا. وفي المساء قصد العمدة بيت رجل يدعى سكوفلير عرف أنه يؤجر المركبات و الجياد للراغبين في استئجارها.

وكان سكوفلير وقتئذ في منزله يشتغل برتق أعنة الجياد فسأله مادلين:

- هل اجد لديك جواداً كريماً ياسكوفلير؟

فأجابه الرجل : كلُّ جيادي من كرام الخيل ياسيدي: فماذا تعني بجواد كريم ؟

- إني جواداً يقوى على قطع عشرين مرحلة في اليوم ويبقى محتفظاً بنشاطة في اليوم التالي .

- لدى جواد أبيض صغير يقى غرضك ياسيدي العمدة ولكنه عنيد لايمكنك أن تمتطيه ,ومن الخير أن تشده إلى مركبة , فهل تستطيع قيادة المركبة ؟

- نعم.

- ويجب كذلك أن تسافر بمفردك وبغير امتعة حتي لا تثقل كاهل الجواد.

-اتفقنا.

-وأجر هذا الجواد ثلاثون فرنكاً يومياً.

فنقده مادلين ثلاثة جنيهات وهو يقول: إليك اجر ثلاثة أيام.

- حسناً متي تريد الرحيل ؟

-أرسل الجواد و المركبة إلى منزلي في منتصف الساعة الرابعة من صباح غد.

ولاشك أن القارئ قد أدرك بذكائه أن الأب مادلين لم يكن في الواقع الا جان فالجان ..وبحسبنا أن نذكر الآن ماكان من أمر هذا الشريد بعد حادث الغلام جرفيه.

استحال جان فالجان بعد هذا الحادث رجلاً غير الرجل . فأصبح كما أراده الأسقف أن يكون ونجح في الاختفاء , وباع صحاف الأسقف و احتفظ بالشمعدانين على سبيل التذكار .

ووصل جان فالجان إلى مونفورميل في الظروف التي أوردناها وتفتق ذهنه عن الابتكار الذي أنعش المدينه وجلب له الثروة و المجد , وعاش مطمئناً ناعم البال , سعيداً بان الماضي يحزنه, وبأن الشطر الثاني من حياته يكاد ان يمحو الشطر الأول.

وعلى الرغم من شدة حرصه وحذره فإنه احتفظ بشمعداني الأسقف و لبس ثوب الحداد حزناً عليه و استفسر عن عائلة اخته في فافيرول . وأنقذ حياة فوشليفان رغم تلميحات جافير.

كان ينظر إلى الأمور نظرة العقلاء الأتقياء العادلين , الذين يرون أن واجبهم الأول ليس حيال أنفسهم.

ولكن ينبغي أن تقول إن مأزقاً كمأزقة الحالى لم يعرض له قطّ في مامضي . و قد اذهله و أدهشة أن يسمع باذنية ذلك الاسم الذي دفنه منذ زمن بعيد . أحسّ بالسماء تبرق و ترعد فوق راسه و خطر له وهو يصغي إلى كلام جافير أن ينطلق في التو أن يكشف أمر نفسه , وينقذ شانماتيو, ويحلّ في السجن محلّه , و آلمه هذا الخاطر كما لو كان جرحاً في لحمه .

ثم زال الألم وقال لنفسه : لننتظر. و أغضبه ذلك الشعور الفطري الكريم و تراجع عن موقفه البطولي , و قضى بقية ذلك النهار في تلك الحالة , هدوء في الظاهر و عاصفة في الباطن .و اضطرب ذهنه , وتلاطمت خواطره ,

فلم يتبيّن فكرة واحدة واضحة ولم يكن في استطاعته أن يقول عن نفسه أكثر من أنه اصيب بلطمة أفقدته الوعيّ.
وبعد أن تناول عشاءه في المساء , راح يستعرض موقفه , ولاحظ أنه لايزال سّيد الموقف رغم حرجه,
" قال لنفسه :
- وبم أخاف ؟ كان يوجد باب واحد يستطيع ماضيّ أن يقتحم منه حاضري . وقد أغلق هذا الباب . وأغلق إلى الأبد . ولن يزعجني جافير بعد الآن . لأنه اطمأن إلى مكان غريمه جان فالجان . ومن المحتمل كذلك أن يغادر جافير هذه المدينة وقد حدث كل ذلك دون أن يكون لي فيه أصبع . فلماذا اليأس والتشاؤم ؟إن العناية الإلهية دبرت كل شيء . فلماذا لا أدع الأمور تسير في مجراها الطبيعي ؟
ولكن خيل إليه أن الأسقف ينظر إليه من القبر . وأنه يرى في الأب مادلين العمدة إنساناً مقيتاً . حقيقاً باللعنة .. ويرى في جان فالجان السجين إنساناً طاهراً . نقي الضمير حقيقاً بالإعجاب والإكبار ..
سيرى الناس قناعه الزائف . ويرى الأسقف وجهه على حقيقته ..سيرى الناس حياته . أما الأسقف فسيرى ضميره ..
كلا .. كلا .. يجب أن ينطلق إلى (آراس). وينقذ جان فالجان الزائف . ويرشد إلى جان فالجان الحقيقي ..وا أسفاه .. ستكون هذه أعظم تضحياته . وأمرّ انتصاراته . وآخر خطواته . ولكن يجب أن يخطوها فما أشقاه . وما أتعسه . إنه لن يطهر نفسه في عين الله . حتى يتلوث بالأوحال في عيون الرجل ..قال :
- يجب أن أؤدي واجبي . وأنقذ ذلك الرجل ..
قال ذلك بصوت مرتفع . دون أن يلاحظ رفع صوته ..
وعمد إلى دفاتره . فراح يراجعها ويرتبها . وألقى في النار طائفة من صكوك الديون التي عجز المدينون عن أدائها . وكتب رسالة بعنوان " مدير بنك لافاييت بشارع دارتوا بباريس " ..
ولما فرغ من ذلك . كان الليل قد انتصف . فتهالك في مقعده . وبذل جهداً عنيفاً لكي يجمع شتات أسفاره . وغمغم :
- نعم . لقد حزمت أمري على أن أشي بنفسي ..
ثم تذكر فانتيه فجأة . وهتف :
- ولكن صبراً .. ماذا يكون من أمر هذه المرأة التعسة ؟!
وهنا هبت عاصفة جديدة . وبدت له فانتين كشعاع غير منتظر . وخيل إليه أن كل شيء حوله قد تغير ..
هتف :
- صبراً .. صبراً .. إنني لم أفكر حتى الآن إلا في نفسي . ولم أسأل إلا ضميري ولم أعبأ إلا بمصيري . ولكن لنفترض أنني فكرت قليلاً في مصائر غيري .. إذا وشيت بنفسي .. أطلق سراح شانماثيو . وأرسلت إلى السجن . فماذا يكون بعد ذلك ؟ ماذا يحدث بعد ذلك ؟
هنا مدينة . ومصانع . ومتاجر . ورجال ونساء . وشيوخ وأطفال . وأنا الذي أوجدت ذلك كله . وحينما توجد نار تستعر . فأنا الذي أشعلتها . وأنا الذي وضعت اللحم في الآنية التي فوقها ..أنا الذي أوجدت هذا النشاط . وهذا الرخاء . وهذه الحركة . وهذا الثراء .. فإذا ذهبت أقفرت المصانع . وأغلقت المتاجر . وأجدبت الحياة . وتفرق الناس ..
ثم هنالك تلك المرأة التعسة التي تألمت كثيراً . وكنت على الرغم مني علة ألمها وشقائها . والطفلة التي اعتزمت البحث عنها . وردها إلى أمها . أفليس لهذه المرأة علي حق ؟ أليس من حقها علي أن أرفه من آلامها . وأمحو إساءتي إليها ؟ فإذا ذهبت فماذا يكون ؟ ستموت الأم . وتتشرد الإبنة .. نعم .. ذلك سيحدث إذا وشيت أنا بنفسي فإذا لم أش بنفسي فإن ... وتردد . وارتجف . ثم أردف :
- إذا لم أش بنفسي . قضى ذلك الرجل بقية حياته في الليمان . وهو جدير بهذه العقوبة . لأنه سرق . فليذهب إذاً . ولأبق هنا . وأواصل أعمالي .. ومتى انقضت عشرة أعوام . أصبحت صاحب ملايين كثيرة أستثمرها هنا وهناك . فتنشط الصناعة والتجارة . وتتضاعف الأسر السعيدة . ويعم الرخاء . ويختفي الشقاء .. ومع اختفاء الشقاء تختفي الجرائم والرذائل بأنواعها . وتتوفر هذه الأم التعسة على تربية ابنتها .. حقاً .. إنني كنت مجنوناً حين فكرت في الوشاية بنفسي . أأكون سبباً في خراب مدينة . وموت أم . وتشرد طفلة . لا لشيء إلا لرغبتي في أن أقوم بدور الرجل الكريم النبيل . لكي أنقذ من السجن لصاً مجهولاً . لا قيمة له في الحياة ولا وزن ؟
هناك اعتبارات جديرة بإنقاذ المجرم وتضحية البريء . وحسب من هذه الاعتبارات أن أنتشل كوزيت الصغيرة من البؤرة التي تنتظرها والتي انزلقت إليها أمها من قبل .. كلا .. كلا .. يجب أن أترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي ..
سأظل الأب مادلين . والويل لجان فالجان ..
وأخذ يسير في الغرفة جيئة وذهاباً . ثم وقف وقال :

- لقد حزمت أمري . ويجب ألا أتردد . وهناك بعض خيوط لا تزال تربطني بجان فالجان ومن الضروري فصمها . نعم .. يوجد في هذه الغرفة شاهدان صامتان يجب إعدامهما ..وتناول شمعداني الأسقف . وقذف بهما في النار المستعرة بالموقد .. ووقف يرقب الفضة وهي تذوب .. وفجأة . سمع في أعماقه صوتاً يهتف به :

- جان فالجان ... جان فالجان ...

فانتصب شعر رأسه . وتصبب العرق على جبينه ..ومضى الصوت يقول :

- أحسنت صنعاً يا جان فالجان . فامض فيما بدأت .. أبد الشمعدانين فإن ذكراهما لا تسر . وانس الأسقف . انس كل شيء . واقض على شاماثيو .. هذا حسن .. لقد انتهي كل شيء الآن .. فهنئ نفسك . إن هذا الرجل العجوز الذي لا يعلم ما يراد به . والذي كل ذنبه أن اسمك يرزح فوقه كالكابوس .. هذا الرجل العجوز سيؤخذ بجرائمك وآثامك . وسيضفي على ما بقي من أيامه في هوان ومذلة .. هذا حسن .. كن أنت رجلاً أميناً . وابق عمدة كما أنت . واستمتع بالاحترام والمجد والغنى واجلب الرخاء لهذه المدينة . وساعد الفقراء . وتعهد اليتامى بالعطف والإحسان وعش سعيداً . كريماً ناعم الباب . بينما يحمل البريء وزرك . ويرزح تحت ثقل اسمك ويقضي حياته مكبلاً بأغلالك .. نعم .. كل هذا حسن أيها الوغد ؟

وانحدرت حبات العرق على جبينه . واستقرت نظراته الشاردة على الشمعدانين ..

ومضى الصوت يقول :

- جان فالجان .. سوف ترتفع من حولك أصوات كثيرة تطريك . وتباركك . وسينبعث من الأعماق صوت واحد خافت يلعنك , فأصغِ أيها الأثيم . كل هذه البركات سوف تسقط إلى الأرض . أما اللعنة فستصل وحدها إلى السماء ..

كان هذا الصوت الذي انبعث من أعماق ضميره هادئاً خافتاً في البداية قد أصبح الآن هائلاً مدوياً .. حتى خيل إليه أنه ليس صوته ولا صوت ضميره ..

فنظر حوله في ذعر وصاح :

- هل يوجد أحد هنا ؟؟

ثم ضحك وأجاب :

- ما أشد غباوتي . فإنه لا يوجد أحد ..

ولكنه كان مخطئاً ..

كان يوجد واحد لا تراه العيون ..

واجتذب الشمعدانين من النار .. وردهما إلى مكانهما فوق المائدة ثم راح يمشي في الغرفة مشية الثمل ..

ومازال هذا شأنه حتى دقت الساعة الثالثة ..

قضى خمس ساعات وهو يروح ويجيء ولا يقر له قرار .. إلى أن أنهكه التعب . فارتمى في مقعده واستغرق في النوم ..

واستيقظ بعد قليل على وقع حوافر جواد أمام المنزل .. ثم سمع طرقاً بباب غرفته ..

سأل :

- من هذا ؟؟

- أنا يا سيدي ..

وعرف مادلين صوت خادمه ..

قال الخادم :

- لقد جاءت المركبة يا سيدي ..

- أية مركبة ؟

- المركبة التي أمرت بإعدادها ..

- آه .. نعم ..

ولو رآه الخادم في تلك اللحظة لهاله انقلاب سحنته ..

وانقضت بضع دقائق في صمت مطلق . ثم سأل الخادم :

- ماذا أقول للسائق يا سيدي ؟

- قل له إنني سأحضر في الحال .. "



وصل الأب مادلين إلى "أراس" في الساعة الثامنة مساء و لم يكن يعرف شوارعها و مسالكها فسأل أحد المارة : هل لك أن ترشدني إلى محكمة الجنايات ؟

فأجاب الرجل :

- سِرْ معي فأرشدك إليها , وإذا كان في نيتك أن تشهد المحاكمة فاعلم أنك جئت متاخراً . لأن المحكمة تغلق أبوابها في الساعة السادسة.و اجتاز به بعض شوارع المدينة ثم أوما إلى دار المحكمة وقال :

- هاهي ياسيدي و ولكنك حسن الحظّ بغير شك , فالنور ينبعث من النوافذ و معنى هذا أن المحاكمة مستمرة حتي الساعة

وقصد الأب مادلين إلى الغرفه التي ينبعث النور من نوافذها ووجد أحد الحجّاب واقفاً ببابها.

سأله :

- ألا أستطيع الدخول؟

فأجاب الحاجب:

- كلا فالقاعة ممتلئة بالناظرين ,وليس فيها متسع للمزيد

ثم أردف بعد لحظة : ثمة مقعدان خاليان خلف رئيس المحكمة, ولكن لايسمح لغير موظفي الحكومة بالجلوس فيهما.

فاطرق مادلين رأسه , وبدت على وجهه علامات التفكير , ثم أخرج من جيبة ورقة و قلماً وكتب اسمه ووظيفته ,ودف بالورقة إلى الحاجب وهو يقول :

- أرجو أن تذهب بهذه الورقة إلى رئيس المحكمة .

فتناول الحاجب الورقة , و ألقي عليها نظرة سريعة ,وتوراى خلف الباب! كان الأب مادلين يستمتع بشهرة لايعرف مداها , و كان رئيس المحكمة كغيره من اهل "أراس" قد سمع عنه الشئ الكثير , فلما قرأ اسمه على الرقعة سمح له بالدخول في الحال .و عاد الحاجب إلى الرجل التعس الذي نروي قصته فوجده حيث تركه.

قال له : هل لسيدي أن يتبعني؟

فتبعه مادلين إلى غرفة فسيحة , في وسطها مائدة مستطيلة , تحيط بها طائفة من المقاعد , و على المائدة مصباح زيتيّ ترسل نبالته ضوءاً ضعيفاً ممتقعا . قال الحاجب :

- هذه هي غرفة المشورة ياسيدي ,و هذا الباب يؤدي إلى إلى قاعة الجلسة .

و أوما بإصبعه إلى باب ركن الغرفة ,وتركه وانصرف .

وبقي مادلين وحده في الغرفة . حاول أن يجمع شتات أفكارة ولم يوفق . فقد جرت العادة أن يضلّ عقل الإنسان حين يكون الإنسان في أشدّ الحاجة إلى التفكير السليم .

أرسل بصره إلى الباب الذي يفضل بينه و بين قاعة الجلسة , وتصبب العرق على جبينه .

نظر إلى الباب كما ينظر الحمل إلى عين الذئب . و لو أصغي لسمع جلبة شديد منبعثة من القاعة المجاورة . ولكنه لم يصغِ ولم يسمع .و فجأة , تقدم من الباب ,و فتحه ,و دخل.

لم يشعر به أحد من النظارة لأن جميع العيون كانت تنظر إلى رجل جالس بين شرطيين عن يسار رئيس المحكمة .

كان ذلك الرجل هو ضالته , لم يبحث عنه , بل ذهب إليه بصره بالفطره كأنه كان يعرف سلفاً أين يجده .

خيّل إليه أنه يرى نفسه مع اختلاف بسيط في الملامح , أما المظهر و الثياب فكمظهره و ثيابه يوم دخل مدينة بريتول , و في قرارة نفسه ذلك الكنز المقيت من الكراهية التي نمت و ترعرعت خلال تسعة عشر عاماً قضاها في "الليمان".

قال لنفسه و هو يرجّف ياإلهي , هل أصبح هكذا مرة أخرى؟

كان المتهم يناهز الستين من عمره و على و جهه المتجعد مسحة من الذهول و البلادة و الغباوة .

وكان رئيس المحكمة قد شعر بالباب حين فُتح , فحول رأسه و رأى القادم , وأدرك أنه عمدة مو نفورميل ,

فحيّاه بإحناء راسه.
وكذلك حيّاه المدعي العمومي و كان قد قابله مراراً في "مونفورميل" حين ذهب إليها بحكم و ظيفته .
و جلس الأب مادلين على مقعد خلف رئيس المحكمة , ووجد نفسه ينظر إلى قاضٍ و كاتب وشرطة و عدد لايُحصى من الوجوه.و لقد رأى كل ذلك قبلاً , منذ سبعة و عشرون عاماً.
وهكذا , بدأ الماضي ينبعث من مرقده .
كان المحامي يتكلم ويحاول دفع التهمة عن المتهم فأثبت أن جريمة السرقة لم تثبت مادياً و أن أحداً لم يرَ المتهم حين تسلق الشجرة و انتزع غصن التفاح , و قد ضبط الغصن معه , ولكنه أقرّ أنه عثر به ملقى على الأرض فتناوله , فأين إذاً الدليل على أنه سارق ؟
و عّبر الدفاع عن أسفه لأن المتهم ينكر أنه جان فالجان ويصرّ على الإنكار رغم شهادة الشهود الأربعة . وكان أحرى به أن يعترف بما لايمكن إنكاره لكي يحظى برحمة القاضي.
ومضى المحامي في دفاعه فقال : إذا سلّمنا بأنه جان فالجان , فكيف يقوم ذلك دليلاً على أنه سرق غصن التفاح؟
ثم تكلم عن شخصية المتّهم , وقال إنه نصح له أن يعترف بحقيقة أمره ولكنه رفض , وكان مخططئاً فهلاّ تشفع له حالتُه العقليه في هذا الخطأ؟
إن مظاهر البلاهة بادية عليه , فقد مكث في شقاء "الليمان" تسعة عشر عاماً ,كانت كافيه لأن تعصف بقواه العقلية , وليس أدلّ على سفاهته و فساد تفكيره من إصراره العجيب على إنكار اسمه و شخصيته ولكنه على كل حال جدير بالشفقة و الرحمة .ثم تكلم المدعي العمومي فشكر للدفاع إنصافه و سلامة تقديره وسجل عليه تسليمة بأن المتهم هو جان فالجان
ثم سأل :ومن هو جان فالجان هذا ؟
و أجاب عن هذا السؤال فوصف جان فالجان بأنه وحش في صورة إنسان و مجرم ذو سوابق لم يصلحُه "الليمان". واسهب في وصف جرايمه ووذكر كيف اغتصب نقود الغلام جرفيه .
ثم سأل :أية رحمة يستحقها رجل كهذا أقدم على هذا الجرائم , وضُبط متلبساً بالسرقة . ثم هو بعد ذلك ينكر جرائمه وينكر سرقاته وبل ينكر اسمه وشخصيته ؟ إن هناك مائة دليل و دليل على أنه جان فالجان . و هناك أربعة شهود يقرون أنه جان فالجان , و هو مع ذلك ينكر ويصر على الانكار ظناً منه أن الإنكار يمحو شخصيته ويمحو ماضيه ويمحو جريمته !
وكان المتهم يصغي إلى مرافعة المدّعي العمومي , و هو مفتوح الفم و على وجهه علامات الدهشة المقرونة بالإعجاب .
و في بعض الأحيان ,كان يهزّ راسه ذات اليمين و ذات اليسار , على سبيل الاحتجاج الصامت و لكنه لم يحاول الكلام .
و لفت المدعي العمومي نظر المحلفين إلى حركات المتهم , وإلى صمته و جموده . وقال إنه جمود مصطنع لايدل على البلاهة و الغباوة بقدر مايدل على المكر و الدهاء ,و الرغبة في تضليل العدالة .و ختم المداعي مرافعته بأنه يحتفظ بقضية جرفيه ويطالب بتشديد العقوبة على المتهم.ونهض الدفاع فهنأ المدّعي العمومي على مرافعته البارعة ,وردّ في كثير من الفتور على قليل من نقط الاتهام .
وحان وقت الفصل في أمر المتهم فتحول إليه الرئيس ,وطلب إليه أن يصغي بانتباه , وأردف :إنك في مركز دقيق حقيق بالتفكير وأدلة الاتهام واضحه ساحقة , ولكني اطلب للمرة الأخيرة أن تجيبَ في صراحه عن هذين السؤلين : هل تسلقت الشجرة و قطعت غصن التفاح؟ وهل أنت جان فالجان؟
فهز المتهم رأسه ببطء... ثم فتح فمه وتكلّم فقال:
- أماالسؤال الأول , وهزّ رأسة مرة أخرى ونظر إلى قبعته , و كان ممسكاً بها , ثم نظر إلى سقف القاعة , ثم عاد إلى الصمت.
فقال المدعي العمومي بلهجة صارمة :
-ايها المتهم, إنك مضطرب لاتستطيع الإجابة عن الأسئلة التي تُطرح عليك ... واضطرابك هذا يدينك و صمتك يفضحك بلا شك فيه أن اسمك هو جان فالجان و ليس شانماتيو, وأنك ولدت في فافيرول و كنت تشتغل بالتحطيب .
وما لاشك فيه كذلك أنك تسلقت الشجرة و قطعت الغصن و أردت أن تفرَّ به. وهذه كلها حقائق , ليس في استطاعتك أن تكرّها , و ليس في استطاعة السادة المحلفين أن يغفلوها .
وكان المتهم قد جلس , فما إن فرغ المدعى العمومي من كلامه , حتي وثب من مكانه بسرعة و هتف :
- إنك رجل شرير ,هذا كل ما أردت أن أقوله فخانني التعبير .
إنني لم اسرق شيئاً , وقد وجدت الغصن ملقى على الأرض فالتقطته و لم يدر بخلدى أنه سيجلب عليّ كل هذه

المتاعب .لقد قضيت في السجن ثلاثة اشهر ولا أدرى لماذا . وسمعتك تحمل عليّ الآن, ولا أعلم لماذا . و هذا الشرطي الواقف بجانبي يضربني بمرفقه بين الفينة و الفينة ويقول لي :

"لماذا لا تجيب ؟".

ولكني لا استطيع التعبير عما يدور بخلدى , لأنني لم أتلقَّ العلم في المدرسة وما أنا إلا رجل فقير.

إنني لم اسرق , ولقد التقطت شيئاً وجدته ملقى على الرض .

أما جان فالجان الذي تحدثني عنه فإنني لا أعرفه , و أما اسمي فهو شانماتيو .

وإنّ من البراعة حقاً أن تذكر لي أين ولدت , لأنني لا اعرف اين و لدت , و لا أعلم عن ابويّ إلا إنهما كانا يجوبان الآفاق و يضربان في الأرض على غير هدى.

وقد ذهبت إلى فافيرول في أحد الأيام ولكن إلا يستطيع الإنسان أن يذهب إلى فافيرول دون أن يذهب إلى "الليمان"؟

أنا أوكّد لك أنني لم أسرق , وأن أسمي هو شانماتيو و لكنى واثق من أنك ستمضى في مضايقتي , لست أدرى في الحق لماذا يتخذني الجميع هدفاً لغضبهم و نقمتهم .

فصاح المدعى العمومي : إن دفاع المتهم و عباراته الملتوية التي تنطوي على إنكار صريح و رغبة اكيدة في تضليل العدالة و إيقاع الشك في نفوس المحلفين و التظاهر بالبلاهة و الجهل تضطرني أن أرجو سيدي الرئيس في دعوة شهود الإثبات و مناقشتهم مرة أخرى للتحقق من شخصية المتهم و إزالة كل شك من نفوس المحلفين.

فقال الرئيس : يجب أن ألفت نظر الاتهام إلى أن الشاهد الرابع ,وهو المفتش جافير , و قد انصرف عقب أداء الشهادة , و لمباشرة بعض و اجبات وظيفته في إحدى القرى المجاورة.

فقال المدعي العمومي : إذاً فبحسبي أن ألفت حضرة المحلّفين إلى الأقوال التي أدلى بها لي المفتش في هذه المحكمة منذ بضع ساعات فقد اكّد أنه يعرف المتّهم , وأنه رآه في "ليمان طولون" حيث قضى تسعة عشر عاماً بتهمة السطو , و محاولة الفرار , ووصفه بأنه رجل شرير , عنيف الخلق , مطبوع على الإجرام , وقال إن هناك جريمة أخرى منسوبة إليه فضلاً عن سرقة التفاح , و تلك هي جريمة اغتصاب قطعة نقود من غلام صغير بدعة جرفيه , ويظن كذلك أنه سرق بعض الأمتعة من منزل اسقف كرم في برينول.وقد تركت هذه العبارات الصريحة اثرها العميق في نفوس السامعين فنظروا إلى المتهم نظرتهم إلى رجل كُتب له الضياع .

ثم طلب الاتهام دعوة الشهود الثلاثة الأخرين , فأصدر الرئيس أمره إلى الحجّاب . وماهي إلا لحظة حتي فتح باب غرفة الشهود ودخل الشاهد الأول , و هو رجل في الستين من عمره يُدعى بـريفيه .

قال له الرئيس : إنك لا تستطيع أن تحلف اليمين القانوية يا بريفيه لأنك استهدفت في مامضى لعقوبة جّردتك من اعتبارك .فأطرق الشاهد راسه , و استطرد الرئيس : و لكنى اعتقد أن الله قد وهب كل إنسان - حتي ذلك الذي جرده القانون من اعتباره - بقية من الشعور بالشرف و الإنصاف , وإني أستنجد فيك هذا الشعور في هذا الموقف الدقيق , ولا حرج عليك أن تعدل عن شهادتك إذا خامرك شك في إنك أخطأت ايها المتهم قف , و أنت يا بريفيه , انظر إلى المتهم و أنبئنا , أما زلت تعرف فيه زميلك في «"الليمان" المدعوّ جان فالجان؟!

فنظر بريفيه إلى المتهم , ثم تحول إلى الرئيس و أجاب :

- نعم ياسيدي , و كنت اول من عرفه . فهذا الرجل هو جان فالجان الذي قضى في "ليمان طولون" تسعة عشر عاماً , وهو يتظاهر الآن بالبلاهة . و لكنه كان "الليمان" داهية ماكرا.

و جئ بالشاهد الثاني , ويُدعى شنيلديو. فدخل القاعة و هو في ثياب السجن.كان مايزال من نزلاء"الليمان" وتحدثّ إليه الرئيس كما تحدّث إلى بريفيه . وأوصاه أن يفكر ويحاسب نفسه . ثم طلب إليه أن يقول ماعنده , فقال الشاهد:

- نعم إنني أعرفه , وكيف لا أعرفه حق المعرفة وقد كنا مشدودين إلى سلسلة واحدة؟!

وجئ بالشاهد الثالث ويدعى موشباي . وقد كان كذلك من زلاء "الليمان" . فهو من اولئك التعساء الذين صبتهم الطبيعة في قالب الوحوش و تركت للمجتمع أن يصنع لهم الأقفاص .

وسأله الرئيس عمّا إذا كان يصرّ على شهادته الأولى . فأجاب بالايجاب في غير تردد وقال: نعم , هذا الرجل هو جان فالجان . وكنا نلقبه بالرافعة, نظراً لقوته الهائلة.

وهكذا دقَّ الشهود آخر مسمار في تابوت المتهم , وقد أصغى المتهم إلى أقوالهم في دهشة بيّنة , حتى سأله ماتريد أن تقوله؟

فأجاب : أقول إن هذا كله عظيم.

فانفجر بعض النظارة ضاحكين.
لم يكن ثمة شك في ضياع الرجل .
و في هذه اللحظة حدثت حركة بالقرب من رئيس الجلسة, وقال قائل بصوت و اضح جليّ بريفيه!شنيلديو! كوشباي! انظروا هنا!
ومرت رعدة في أجساد الذين سمعوا هذا الصوت.
كانت نبراته مؤلمة مخيفة.
وتحولت جميع الأبصار إلى مصدره ورأت رجلاً و اقفاً وراء الرئيس في المكان الذي يخصّصونه للنظاره الممتازين.
وهتف الرئيس و المدّعي العمومي و عشرات ممن يعرفون عمدة مونفورميل:
- الأب مادلين .
نعم. كان المتكلم هو الأب مادلين , وقد برز في اشعة الضوء المنبعث من المصباح .
كان مرتب الثياب كالعادة , و لكنه شديد شحوب الوجه , وقد استحال شعر رأسه الذي كان سنجابياً في الصباح إلى كتلة بيضاء كالثلج . حدث هذا التحول خلال الساعة التي قضاها في قاعة الجلسة.
وسادت في القاعة جلبة أعقبها صمت عميق , و حبس الناس أنفاسهم و انتظروا بأعصاب توشك أن تنفصم.
لم يصدق أحدهم أن هذا الرجل الهادئ هو صاحب ذلك الصوت المؤلم الذي رنَّ في جنبات القاعة منذ لحظة.
قبل أن يتمكن رئيس الجلسة و المدعي العمومي من الكلام, وقبل أن ياتي الحراس و الحجاب بحركة , اقترب من الشهود الثلاث , ذلك الرجل الذي عرفه الجميع حتي الآن باسم مادلين وسألهم : ألا تعرفونني ؟
فذهل الثلاثة و هزوا رؤوسهم سلباً.
وتحول مادلين إلى المحلّفون , أطلقوا سراح المتهم.ياسيدي الرئيس, مُرْ بالقبض عليّ . إنّ الرجل الذي تبحثون عنه ليس هو هذا المتهم , ولكنه أنا, أنا جان فالجان. وخُيل كأن قاعة الجلسة قد استحالت إلى ركن في مدينة الموتى . فلاحس ولا حركة ولاصوت . بل لانفس يتردد . فقد شعر الجميع بذلك الذعر المقدس الذي يستولي على قلوب الجماهير حين تقع ابصارهم على شئ لا تدركه عقولهم. وكان رئيس الجلسة أول من ملك نفسه . فارتسمت على وجهه آية من آيات الحزن و الشفقة , وتبادل مع المدعي العمومي نظرة سريعة و بضع كلمات في همس.ثم تحول إلى النظارة , وسألهم بلهجة فهم الجميع مغزاها :أليس بينكم طبيب؟
وقال المدعي العمومي : ايها السادة المحلفون , إن هذه المفاجاة العجيبة التي عطلت المحاكمة قد بعثت في نفوسنا شعوراً لا حاجة بنا إلى التعبير عنه.فكلكم تعرفون , ولو سماعاً ومسيو مادلين المحترم,عمدة مونفورميل .فإذا كان في القاعة طبيب فإننا نضم اصواتنا إلى صوت الرئيس و نرجوه أن يشرف على مرافقة مسيو مادلين إلى منزله.
ولكن الأب مادلين تحول إليه و قال بلطف:
-شكراً لك ياسيدي و لكني لست مجنوناً وسأثبت ذلك في الحال.
إنني أؤدي واجبي فأنا السجين موضوع المناقشة في هذه القضية و في استطاعتكم أن تلقوا القبض علي . فإنني لم أقل غير الحقيقة و الله شاهد على ماأفعل و أقول . إنني تورايت تحت اسم مستعار و صرت غنياً و أصبحت عمدة وكنت أريد أن أعيش شريفاً بين الشرفاء ولكن يخيل إليّ أن ذلك مستحيل. توجد اشياء كثيرة لا استطيع أن ابوح بها لأنها تنصب على حياتي الخاصة , ولكني أقول لكم إنني سرقت الأسقف حقاً ,وسطوت على نقود جرفيه , وقد صدقوا حين قالوا لكم إن جان فالجان مجرم خطر اصغوا إليّ ايها السادة إن رجلاً أنحدر إلى نهاية الهاوية الموحلة التي انحدرت إليها لاحق له في أن يسدي النصائح إلى المجتمع , ولكني أقول لكم إن السجون تخلق المجرمين.
لقد دخلت "ليمان طولون" فلاحاً مسكيناً ساذجاً قليل الذكاء فجعل الليمان منى رجلاً آخر.
كنت غبياً فاصبحت شريراً ,وقتلت القسوة في نفسي كل ماهو شريف و نبيل , إلى أن حدث حادث ردنى إلى سواء السبيل ولكن معذرة فإنكم لاتستطيعون أن تفهمو كل كلامي... بيد أنكم ستجدون في منزلي قطعة النقود التي سرقتها من جرفيه منذ ثمانية أعوام و وليس عندي ما أقول اكثر من ذلك ,فألقوا القبض عليّ .يا إلهى ,إن المدعي العمومي يهز رأسه , و لعله يقول لنفسه إن الأب مادلين قد جُنّ ولكن هذا كثير . اطلقو سراح هذا الرجل على الأقل كيف هذا , ألا يعرفني هؤلاء الشهود . ليت جافير كان موجوداً لكن عرفني في الحال.
و ليس في استطاعة كاتب ان يصف نبرات الحزن والأسف التي امتزجت بصوته حين نطق بهذه العبارات.
وتحول مادلين إلى الشهود الثلاثة وقال:
- و لكني اعرفكم . ألاتذكرني يابريفيه؟

وتردّد قليلاً ثم أردف:
- ألا تذكر الشق الذي احدثته في قيودك في أحد الأيام و تمهيداً للفرار؟ فنظر إليه بريفيه من قمة راسه إلى أخمس قدميه في ذعر وهلع.
واستطرد مادلين : وأنت يا شنيلديو, ألم تحترق كتفك اليمنى في أحد الأيام ؟أجبني.
فأجاب الشاهد: هذا صحيح.
- وأنت يا كوشباي. ألم تكتب بالوشم الأخضر على ساعدك الأيسر تاريخ عودة الامبراطور نابوليون؟ أكشف عن ساعدك.
فكشف كوشباي عن ساعده , ورأى القوم ذلك التاريخ موشوماً عليه.
و عندئذ تحول مادلين إلى النظارة ثم إلى المحلفين , وارتسمت على شفتيه ابتسامة تركت اثراً دائماً في نفوس جميع الذين راوها .
كانت ابتسامة فوز , ولكنها كانت ابتسامة ياس .
قال: هل اقتنعتم بأنني جان فالجان؟
وفي هذه اللحظة , لم يكن في القاعة قضاة و محلّفون ونظارة وشرطة .
كانت هناك فقط عيون تحملق , وصدور ترتفع و تهبط.
قال جان فالجان : ليس في نيّتي أن اشغل المحكمة بأمرى أكثر من ذلك :مادامت المحكمة لم تأمر بالقبض عليّ فإنني سأنصرف الأن لتصفية بعض الشؤون و المدعى العمومي يعرفني و يعرف المكان الذي ساذهب إليه وله متي شاء أن يأمر بإلقاء القبض عليّ.
ومشى إلى الباب فلم يرتفع صوت , و لم تمتد يد لمنعه.
جمد القوم جميعاً في مقاعدهم , فقد كان الموقف من نوع تلك المواقف العظيمة النبيله التي تحمل الجموع على الانكماش , وإفساح السبيل لرجل و احدا!
ولما وصل الباب , تحول إلى النظاره وقال:
- لعلكم جميعاً ترونني جديراً با الشفقه . يا إلهي! كلما فكرت في ماكان بمقدروري أن أفعله , خيّل إلى أنني جدير بالحسد !
ومهما يكن الأمر فإنني كنت أفضل لو أن شيئاً من كل ذلك لم يحدث .

الفصل الثامن - الغريمان



" انبثق الفجر ..

وكانت فانتين قد قضت ليلة مسهدة محمومة . ثم استغرقت قبيل الصبح فيما يشبه الإغماء . فانتهزت الراهبة " سمبليس " هذه الفرصة وتسللت إلى الغرفة المجاورة . لكي تعد جرعة أخرى من الدواء ..

وفيما الراهبة في عملها بين القناني والعقاقير . إذ بها ترى ظلاً يحجب عنها ضوء المصباح . فحولت رأسها . وأفلتت من بين شفتيها آهة دهشة ..

كان الأب مادلين قد دخل دون أن تشعر به ..

هتفت :

- أهذا أنت يا سيدي ؟

فأجابها بصوت خافت :

- كيف حال المرأة التعسة ؟

- إنها قضت ليلة هادئة . ولكنها اطمأنت حين استفسرت عن سبب غيابك . فقلت لها أنك ذهبت إلى بولانجيه لإحضار ابنتها ..

وأدركت الراهبة من نظراته أنه لم يحضر الابنة فاستطردت :

- ولكنها ستراك الآن يا سيدي . ولا ترى ابنتها .. فماذا نقول لها ؟

ففكر لحظة . ثم قال : سوف يلهمنا الله إلى ما يجب عمله ..

وحانت من الراهبة نظرة إلى وجه مادلين وهتفت :

- يا إلهي .. ماذا حدث بك يا سيدي ؟ لقد ابيض شعرك ..

- ماذا تقولين ؟

فقدمت إليه الراهبة مرآة صغيرة . تناولها . وأطل فيها ونظر إلى شعر رأسه . وقال :

- هذا صحيح ..

قال ذلك بقلة اكتراث . وبلهجة الرجل الذي يفكر في أمر آخر ..

سأل :

- هل أستطيع أن أراها ؟

- هل في نيتك أن تأتي بابنتها يا سيدي ؟

- طبعاً .. ولكن ذلك يستغرق يومين أو ثلاثة ..

- ربما كان من الخير ألا تراها قبل أن تأتيها بابنتها . وبذلك تظل على اعتقادها بأنك لم تعد . ويسهل علينا إقناعها . وتهدئتها ولا تكون في حاجة إلى الكذب ..

ففكر مادلين قليلاً ثم قال في هدوء :

- كلا يا أختاه . يجب أن أراها . لأن الوقت ضيق ..

- في هذه الحالة تستطيع أن تذهب إليها يا سيدي . ولو أنها نائمة ..

فدخل إلى غرفة فانتين . وقصد إلى الفراش . ورفع الكلة ..

كانت فانتين نائمة . وأنفاسها تضطرب في صدرها بصوت كالحشرجة وقد استحال اصفرارها إلى بياض ..

وارتجفت أهدابها الطويلة الجميلة . ذلك الأثر الوحيد الذي بقي لها من جمالها الغابر . بل ارتجف جسدها كله . كأن لها أجنحة توشك أن تمتد وتطير بها ..

ووقف الأب مادلين أمام الفراش بغير حراك . وراح ينقل البصر بين المريضة وتمثال المسيح المصلوب كما فعل منذ شهرين . يوم جاء لزيارتها للمرة الأولى ..كانا في ذات الموقف . وهي نائمة . وهو يبتهل . ولكن في خلال الشهرين اللذي انقضيا بين الوقتين . كان شعرها وقد خطه الشيب . وشعره قد استحال إلى كتلة من الثلج

وفتحت فانتين عينيها . وأبصرت به . وابتسمت في هدوء . وقالت بابتسامة :

- وكوزيت ؟

نطقت بهذا الاسم بلهجة الثقة والإيمان والطمأنينة فلم يجد مادلين ما يقوله ..

استطردت :

- لماذا لم تضعها في فراشي لكي أراها حالما أفتح عيني ؟

فتمتم كلاماً غير مسموع وغير مفهوم . ومن حسن الحظ أن الطبيب جاء في تلك الساعة . وكان مادلين قد أرسل في طلبه ..

قال الطبيب :

- رفهي عن نفسك يا ابنتي . فطفلتك هنا ..

فلمعت عينا فانتين وأشرق وجهها . وضمت يديها بحركة تعبر عما تعبر عنه الصلاة من قوة وحرارة ودعة ..

وهتفت :

- أواه .. احملها إلي إذاً ..

كانت لا تزال تتخيل كوزيت تحمل على السواعد ..

قال الطبيب :

- صبراً .. صبراً .. ليس الآن .. إن منظر الطفلة يثيرك . فيؤذيك . يجب أن تبرئي من سقمك أولاً ..

- لقد برأت من سقمي . قلت لك أنني برأت من سقمي ! إنني أصر على رؤية ابنتي ..

فقال الطبيب :

- تأملي . كم أنت مضطربة .. وكم أنت عنيفة ! متى هدأت ثائرتك حملتها إليك بنفسي ..

فسقط رأسها فوق صدرها . وقالت :

- عفواً يا سيدي الطبيب . إنني لست مغضبة . فأنا أعلم تماماً أنني سأكون سعيدة . وقد رأيت الليلة في أحلامي أشياء كثيرة بيضاء و وجوهاً باسمة . وفي استطاعة سيدي الطبيب أن يأتيني بابنتي كوزيت متى شاء فأنا لست محمومة . إنني شفيت تماماً . ولكني سألزم الهدوء كما لو كنت مريضة .. حتى إذا رأيتني هادئة

قلت : يجب أن أرد إليها ابنتها ..

ثم التفتت إلى مادلين . وكان قد جلس على حافة فراشها . وراحت تلقي عليه عشرات الأسئلة :

- هل كنت موفقاً في رحلتك يا سيدي ؟ ما أكرمك إذ تجشمت متاعب السفر من أجلي .. فقط أخبرني كيف حال كوزيت ؟ هل احتملت عناء السفر ؟ وا أسفاه لا شك أنها لن تعرفني .. لا شك أنها نسيتني خلال هذه السنوات الطويلة .. فيا للمسكينة هل وجدت ثيابها نظيفة ؟ هل كانت مدام تيناردييه تعتني بها ؟ أواه .. كم أود أن أراها . ألم تر كيف هي جميلة يا سيدي ؟ ألا يمكن إحضارها هنا ؟ ولو دقيقة واحدة ؟ في استطاعتك أن تأتي بها متى شئت لأنك العمدة هنا ..

فتناول يدها بين يديه . وأجاب :

- إن كوزيت جميلة . وهي بخير حال . وسترينها بأسرع ما يمكن . فقط هدئي روعك .. إنك تتكلمين بحدة . والانفعال يؤذيك . وينشط نوبة السعال ..

والواقع .. أنها أخذت تسعل بشدة . ثم لزمت الصمت لكي توهم القوم بأنها غير منفعلة . وغير مريضة . فيحملوا إليها ابنتها ..

وظل مادلين ممسكاً بيدها وراح ينظر إليها بقلق ..

لم يكن هناك شك في أنه جاء ليقول لها شيئاً . ثم غلب عليه التردد ..

وكان الطبيب قد انصرف . فلم يبق بالقرب منها سوى الراهبة سمبليس ..

وفجأة أومأت فانتين بيدها تطلب الصمت وهتفت :

- إنني أسمع صوتها .. إنني أسمع صوتها ..

وحبست أنفاسها . وأرهفت أذنيها . وأصغت ..

سمعت صوت طفلة تلهو أمام المنزل .. ولعلها ابنة أحد العمال ..
كانت المصادفة من نوع تلك المصادفات الخفية التي تسوقها الأقدار في الوقت المناسب لتخلق بها جو المآسي .. في هذه الحياة ..كانت الطفلة تعدو في الشارع لتدفئ جسمها . وهي تضحك بصوت مرتفع ..
صاحت فانتين :
- إنها كوزيت .. لقد عرفت صوتها .. إنها ..وصمتت . كان صمتها فجائياً . فرفع مادلين رأسه . ونظر إليها ..
وجد أنها كفت عن التنفس . وقد انقلبت سحنتها انقلاباً مخيفاً .. وارتسمت في عينيها نظرة ثابتة . يخالطها ذعر لا يوصف ..
صاح :
- يا إلهي .. ماذا دهاك يا فانتين ؟
فلم تجبه . ولم تحول عينيها عن الشيء الذي كانت تنظر إليه . وفقط مست ساعدها بيديها . وأومأت إليه أن ينظر إلى الوراء . ففعل . ورأى جافير ..على أن المدعى العمومي كان لايزال يطلب إنساناً باسم جان فالجان .
فلما أفلت شاماتيو من قبضته , حول بصره إلى الأب مادلين . و بعد مداولة قصيرة مع رئيس المحكمة اصدر أمره باعتقال عمدة مونورميل , وأرسل الأمر إلى المفتش جافير لإنفاذه وقد كان من المتعذر على الذين رأوا المفتش جافير حين دخل غرفة فانتين أن يشعروا بما يعتمل في نفسه . فقد كان الرجل هادئاً ورزيناً كالعهد به دائماً .. ولم يلاحظ عليه الجنود الأربعة الذين رافقوه إلى منزل العمدة ورابطوا ببابه . أنه أوسع الخطى أو أبدل مشيته المتئدة الرزينة ..
ووقع بصر خادم مادلين على جافير ورجال الشرطة . ولم يخامره شك فقد اعتاد رجال الشرطة زيارة العمدة لأعمال تتصل بمهام وظيفته ..
ووصل جافير إلى غرفة فانتين .. وفتح الباب بخفة الممرضة . أو خفة الجاسوس . ووقف وقبعته على رأسه . ويده مدفونة في صدر معطفه ..
والتقت عينا مادلين بعيني جافير . ولم يأت المفتش بحركة . ولم تتقلص عضلة واحدة من عضلات وجهه . ولكن الكراهة التي تعتمل في أعماقه طفت على وجهه كما تطفو الأكدار فوق سطح الماء .. فتركت على ملامحه مسحة مخيفة . جعلته أقرب إلى الأبالسة منه إلى الآدميين ..
ولم تكن فانتين قد رأت جافير منذ خلصها العمدة من قبضته . فصور لها عقلها السقيم أنه جاء لإلقاء القبض عليها . لم تقو على رؤية سحنته المخيفة . فدفنت وجهها بين كفيها وصاحت في ألم :
- أنقذني يا مسيو مادلين ..
فنهض جان فالجان . ولن ندعوه بعد الأن بغير هذا الاسم . وقال للمرأة في دقة ولطف :
- لا تنزعجي . إنه لم يأت في طلبك ..
ثم تحول إلى جافير وقال :
- إنني أعرف ما تريد ..
فأجاب جافير :
- هلم . وأسرع ..
كان في نبرات صوته شيء وحشي . ولم ينتظر الجواب . بل تقدم خطوة أخرى . واستطرد :
- ألا تأتي ؟
فأجالت فانتين البصر حولها ..
لم يكن في الغرفة سوى الراهبة والعمدة . فإلى من يتحدث جافير إذاً بهذه اللهجة المهينة ؟
وصور لها الوهم أن جافير يوجه إليها هذا الكلام . ومرت في جسدها ردعة قوية .. ولكنها ما لبثت أن رأت شيئاً عجيباً . شيئاً لم تر أعجب منه في أسوأ أحلامها وهي نهبة الحمى ..
رأت جافير يقبض على عنق العمدة . ورأت العمدة يطرق برأسه ..
خيل إليها أن نهاية العالم قد دنت ..
صاحت :
- سيدي العمدة !
فضحك جافير ضحكة مخيفة كشفت عن جميع أسنانه . وقال :
- لا يوجد عمدة هنا ..

ولم يحاول جان فالجان التخلص من اليد التي تقبض على عنقه ..
قال :
- يا جافير ..
ولكن المفتش قاطعه بقوله :
- قل يا سيدي المفتش ..
فقال جان فالجان :
- أود التحدث إليك على انفراد يا سيدي ..
فأجاب جافير :
- تكلم . إن الناس يتحدثون إلي بصوت مرتفع ..
- إن لي رجاء لا يجب أن يسمعه سواك ..
- ماذا يهمني رجاؤك ؟
فقال جان فالجان بسرعة . وبصوت شديد الخفوت :
- امهلني ثلاثة أيام . ثلاثة أيام فقط لأحضر ابنة هذه المرأة التعسة ..
إنني على استعداد لأن أدفع أي مبلغ تريده . وفي استطاعتك أن ترافقني إذا شئت ..
فصاح جافير :
- أنت تهزل بغير شك .. في الحق لم يخطر لي قط أنك على مثل هذه البلاهة .. هل تريدني على أن أمهلك ثلاثة أيام لكي تلوذ بالفرار ؟ تريد أن تذهب لإحضار ابنة هذه المرأة ؟ ما أوسع حيلتك . وأخصل خيالك !
وارتجفت فانتين وهتفت :
- ابنتي !! لإحضار ابنتي !! وإذاً فهي ليست هنا .. اجيبيني أيتها الراهبة . اجيبيني أيتها الأخت . أين كوزيت ؟ إنني أريد ابنتي يا سيدي العمدة ..
فضرب جافير الأرض بقدمه وصاح :
- ألا تكفي عن الثرثرة أيتها المرأة ؟ ما أعجب بلداً عمدته من المجرمين . وبغاياه يُخدمن ويُعنى بهن كالنبيلات !! ولكن الأوان قد آن لتغيير ذلك كله ..
ونظر إلى فانتين . واستطرد وهو يضيق الخناق على جان فالجان :
- لا يوجد هنا مسيو مادلين . ولا يوجد عمدة . وإنما يوجد لص وقاطع طريق . وسجين سابق . يدعى جان فالجان ..
فنهضت فانتين على مرفقها . ونظرت إلى جان فالجان . ونظرت إلى جافير . ثم نظرت إلى الراهبة . وفتحت فمها وكأنها تريد الكلام . ولكن لم ينبعث من فمها سوى حشرجة خشنة .. واصطكت أسنانها . وانبسطت أصابع يديها . ثم انقبضت . وسقط رأسها فجأة على الوسادة . وبقيت كذلك مفتوحة العينين والفم ..
ومد جان فالجان يده إلى اليد الممسكة بخناقه ورفعها كما لو كانت يد طفل .. وقال محدثاً جافير :
- إنك قتلت هذه المرأة ..
فصاح جافير في غضب :
- كفى .. كفى .. إنني لم أجئ الآن لكي أصغي إلى هذا الإسفاف . فوفر على نفسك الكلام . إن رجال الشرطة في انتظارك بالباب . فهلم بنا . وإلا اضطررت إلى تصفيد يديك ..
وكان في ركن الغرفة فراش قديم اعتادت الراهبتان أن ترقدا فيه كلما أنهكهما السهر . فمشى جان فالجان إلى هذا الفراش ومد يده القوية وانتزع إحدى قوائمه . ونظر إلى جافير . فتراجع مفتش البوليس حتى التصق بالباب ..
ومشى جان فالجان ببطء . والقائمة الحديدية لا تزال في يده . إلى أن وقف بجانب الفراش وهناك أدار رأسه . وقال بصوت خافت لا يكاد يسمع :
- إنني أنصح لك بألا تزعجني في هذه اللحظة ..
ومن المحقق أن جافير ارتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ..
خطر له أن ينطلق فيدعو رجال الشرطة ولكنه أشفق أن ينتهز جان فالجان هذه الفرصة ويلوذ بالفرار ..
أما هذا الأخير . فإنه أسند مرفقيه على حافة الفراش . ووضع رأسه بين كفيه . وراح يتأمل فانتين وقد سكنت حركتها . وألقى الموت على وجهها قناعاً ممتقعاً رهيباً ..ظل يتأمل الجثة المسجاة وتقاطيع وجهه تعبر عن إشفاق لا وصف له ..

ثم انحنى فوق فانتين . وتحدث إليها بصوت خافت .. ولم يسمع أحد حديث هذا الطريد إلى المرأة الميتة . فترى هل سمعته المرأة ؟

قالت الأخت سمبليس فيما بعد إن جان فالجان ما كاد يكف عن الكلام . حتى تلاعبت ابتسامة عجيبة على شفتي فانتين . وفي عينيها اللتين أذهلهما الموت ..

وتناول جان فالجان رأس فانتين . ووضعها على الوسادة . كما تفعل الأم الثكلى برأس طفلها .. ثم أحكم أزرار قميصها . وأغمض عينيها .. وكانت إحدى يديها تتدلى من جانب الفراش . فتناولها جان فالجان ورفعها إلى شفتيه ..ونهض واقفاً بعد ذلك . وتحول إلى جافير وقال له :

- أنا الآن رهن إشارتك ..

وألقى جان فالجان في سجن المدينة . وأحدث نبأ القبض عليه ضجة عجيبة . ولكن مما يُؤسف له أن جميع الناس أنكروه وتنكروا له حين علموا أنه كان في أحد الأيام من نزلاء الليمان .. فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى نسي الناس كل ما قدم من خير . ولم يذكروا من أمره إلا أنه سجين سابق ..

وهكذا تلاشى الشبح الذي عرفه الناس باسم مادلين . وأغلق المصنع وأقفر الشارع . ولم يبق بمنزله في مساء ذلك اليوم سوى خادمته العجوز والراهبتين الساهرتين على جثة فانتين وقد ذهلت الخادمة و رفضت حواسها أن تصدق شيئاً مما حدث .فلما كان المساء , حملت المصباح إلى غرفة الأب مادلين كما اعتادت ان تفعل .

غير أنها ما كادت تدخل الغرفة , حتى رأت يداً تدفع النافذه من الخارج , ثم أبصرت الأب مادلين يثب منها و عقد الخوف لسانها لحظة , ثم هتفت : يا إلهي ! ياسيدي العمدة , كنت أظن أنك ...

فقاطعها :إنني في السجن ! إنني كنت هناك حقاً , و لكني انتزعتُ أحد قضبان النافذة , و وثبت منها و هأنذا . ابعثي إليّ بالأخت سمبليس . ستجدينها حتماً في غرفة تلك المرأة المسكينة.

وتناول الشمعدانين و لفهما في أحد أقمصته ثم جلس يكتب , وفُتح الباب في هدوء , ودخلت الراهبة سمبليس . كانت ممتقعة اللون . محمرة العينين < و الشمعة ترجف في يدها.

كانت في الصباح راهبة يعصمها الزهد و الإيمان عن سائر الانفعالات التي تعصف طمانينة الإنسان في هذه الحياة الدنيا , ثم جاءت أعاصير ذلك النهار فردتها امرأة تبكي و ترجف. وكان جان فالجان قد فرغ من كتابة رسالته . فدفعها إلى الراهبة وقال:

-يا أختاه , هل لك في أن تحملي هذه الرسالة إلى القسّ؟

ولم تكن الرسالة مغلقة , فقلبتها الراهبة بين يديها.

قال جان فالجان : اقرئيها أذا شئت.

فقرأت فيها: "إنني أعهد إلى قس مونفورميل بكل ما أملك هنا , و أرجو أن يوزّع على الفقراء كل مايتخلف من ثروتي بعد نفقات دفن المرأة التي ماتت هذا الصباح"

حاولت الراهبة أن تتكلم . فعجزت , ثم تمتمت بعد صمت قصير:

- ألا تريد أن تلقي نظرة أخيره على تلك المرأة التعسة؟!

فأجاب : كلا . إنهم يطاردونني. وإذا قبض عليّ في غرفتها فقد تنزعج طمانينتها.

وماكاد ينطق بهذه العباره و حتي سمع جلبة ووقع خطوات على السلم , ثم سمع الخادمة وهي تصيح بصوت ثاقب :

أقسم لك ياسيدي أن أحداً لم يدخل المنزل هذه الليلة.

فقال صوت رجل :ولكنى أرى ضوءاً في تلك الغرفة .

وعرف جان فالجان صوت جافير.

وكانت الغرفة مشيدة بحيث إذا فتح بابها أخفى وراءه ركناً ضيقاً فأسرع جان فالجان إلى هذا الركن و توارى فيه، و خرت الراهبة سمبليس على ركبتيها بجانب المائدة .

وفُتح الباب ودخل جافير . فلم ترفع إليه الراهبه عينيها .كانت تصلىّ.

ورآها جافير و فجمد في مكانه و استولى عليه الارتباك.

كان مطبوعاً على احترام مصادر السلطة و النفوذ بأنواعها , ويرى أن السلطة الدينية أعلى السلطات جميعاً . فالراهب في نظره رجل طاهر لايعرف الغدر و الخداع .والراهبة في نظره مخلوقة لاتكذب ,ولا تاثم , فلما راي الراهبة خطر له أن ينسحب ثم خطر له أن يبقى وأن يلقي سؤالاً واحداً على الأقل.ولم تكن الراهبة سمبليس قد كذبت في حياتها .

و قد كان جافير يعلم منها ذلك ويجلّها من أجله.

ولم تكن الراهبة سمبليس قد كذبت في حياتها . و قد كان جافير يعلم منها ذلك ويجلّها من أجله.
سأل: هل أنت و حدك في هذه الغرفة يا أختاه؟
فرفعت الراهبة راسها و أجابت ك نعم.
-معذرة أذا ألححت في السؤال , ولكن الم يقع بصرك في هذا المساء على مجرم هارب يدعى جان فالجان؟
فأجابت الراهبة : كلا.
وكذبت الراهبة مرتين و بسرعة و وبغير تردّد.
فقال جافير : أرجو المعذرة أذاً .
وأحنى قامته باحترام ,وانصرف.
وبعد ساعة ,كان رجل يشق طريقة وسط الضباب في الطرق إلى باريس وقال الذبن ابصروه إنه كان يحمل حزمة و عصا.
كان هذا الرجل هو جان فالجان.
والآن كلمة اخيرة عن فانتين.
إن لنا جميعاً أمّا واحدة هي الأرض ,وقد رُدت فانتين إلى أمها وقد ظن القس أنه يؤدى واجبه على أكمل و جه إذ احتفظ لنفسه باكبر قسط من المال الذي تركه جان فالجان للفقراء . فعمد إلى تبسيط إجراءات الدفن بقدر الإمكان .
ووارى جثمان فانتين في أحد أركان المقبرة العامة حيث تضيع قبور الفقراء



اعتقل جان فالجان في باريس . وأعيد إلى الليمان . ولا شك أن القراء يحمدون لنا تجاوزنا عن التفاصيل المؤلمة التي اقترنت باعتقاله . وبحسبنا هنا أن نورد فقرة عن اعتقاله نشرتها في ذلك العهد جريدة (جورنال دي باري) ..

قالت الجريدة : ((حوكم أخيراً أمام محكمة (فار) مجرم خطير يدعى جان فالجان ألقي القبض عليه في ظروف تلفت النظر . فقد استطاع هذا الشقي أن يفلت من رقابة البوليس . وكان من الدهاء والبراعة بحيث عين عمدة لإحدى مدن الشمال . حيث ابتكر صناعة جديدة درت عليه أرباحاً طائلة .. ولكن السلطات ذات الشأن . ما لبثت أن أزالت النقاب عن وجهه وألقت القبض عليه ..

وكان قد اتخذ لنفسه عشيقة . هي فتاة من أهل المدينة . وقد توفيت هذه الفتاة إثر نوبة أصابتها ساعة القبض عليه ..

ويستمتع هذا الشقي بجسم المارد . وقوة العمالقة . وقد استطاع بفضل قوته أن يفر من سجن المدينة . ولكنه اعتقل في باريس بعد ثلاثة أو أربعة أيام . في ذات اللحظة التي كان يهم فيها بركوب إحدى عربات البريد إلى مدينة (بولاجيه) ..

والمظنون أنه انتهز فرصة تلك الأيام الثلاثة أو الأربعة التي قضاها حراً طليقاً . فسحب من أحد المصارف الكبرى مبلغاً جسيماً يتراوح بين 600 و 700 ألف فرنك . يقال أنه أخفاها في مكان لا يعرفه سواه . وضاعت سدى جميع الجهود التي بذلت لاكتشافه ..وقد حوكم فالجان أمام محكمة (فار) بجريمة سرقة ارتكبها منذ ثمانية أعوام وقضت عليه المحكمة بالسجن المؤبد . وأرسل في الحال إلى ليمان طولون ..

وفي أحد أيام أكتوبر من ذلك العام . نشرت إحدى صحف طولون النبأ التالي :

«غرق أمس أحد المسجونين الذين يشتغلون في ترميم السفينة أوريون . وذلك أثناء محاولته العودة إلى السفينة بعد أن أنقذ أحد بحارتها من الغرق ..

ولم يعثر على جثته . والمظنون أنها غاصت تحت السفينة .. ورقم هذا السجين 9430 واسمه جان فالجان .. "



آن لنا أن نطوف حول تيناردييه وزوجته .. وأن ننظر إليهما من جميع النواحي ..
كان تيناردييه في الخمسين من عمره ، وكانت زوجته في الأربعين .. فالتوازن بين الزوجين موجود في السن ، ولكنه مفقود فيما عدا ذلك .. كانت المرأة طويلة القامة ، عريضة المنكبين لها جسم الفيل وقوة الثور ، ونشاط النمر ، فهي التي تنظف الحانة ، وترتب الأسرة ، وهي التي تضع الطعام ، وتغسل الثياب وترتق الخرق الممزقة ، ولا مساعد لها في ذلك سوى كوزيت ..
كانت إذا صاحت اهتز ما حولها من أثاث وآدميين ، وإذا سمعها الناس تتكلم قالوا هذا شرطي وإذا رأوا كيف تعامل كوزيت قالوا إنها جلاد ..
أما الرجل فكان قصيراً ، هزيلاً ، صغير الجسم بارز العظام ، يخيل للناظر إليه أنه مريض وما هو مريض ولكن ذلك سر دهائه و غدره ..
يسره أن ينادم زبنائه ، ويفاخر بأنه لا يثمل أبداً ، وقد جعل شعاره تجريد الزبون من ماله بأية طريقة .
لذلك لم يكن عجيباً أن تسوء حاله ، وأن تربى ديونه على ألف وخمسمئة فرنك ..

رفعت مدام تيناردييه غطاء آنية الماء وأطلت فيها ، فانكمشت كوزيت وارتجفت ..هذه الآنية قد علمت الابنة المسكينة أن تهتم وتكتئب ولما تبلغ الثامنة من عمرها .. فقد جعلت مدام تيناردييه من واجبات كوزيت أن تجلب الماء للحانة ، وجلب الماء للحانة معناه اجتياز مسافة شاسعة في أي ساعة من ساعات الليل والنهار .. للوصول إلى عين الماء التي تسقي منها القرية ..أطلت مدام تيناردييه في آنية الماء ، فحبست كوزيت أنفاسها ، وساد الصمت لحظة كانت الفتاة في خلالها تتطلع إلى شفتي المرأة كما يتطلع المتهم إلى شفتي القاضي في انتظار الحكم ..
وأخيراً هزت المرأة كتفيها وقالت :
- هذا الماء يكفي ..
فتنفست كوزيت الصعداء ، وعادت إلى عملها .. ولكنها راحت تعد الدقائق بفروغ الصبر ، في انتظار أن تسمح لها سيدتها أن تذهب لتنام ..
وفجأة .. دخل أحد نزلاء الحانة وقال مزمجراً :
- إن جوادي يحترق ظمأ ولم يقدم إليه أحد ما يروي ظمأه ..
فقالت مدام تيناردييه :
- بل قدمنا إليه حاجته من الماء ..
- أؤكد لك أنه لم يتناول قطرة واحدة من الماء ..
فتسللت كوزيت من تحت المائدة حيث كانت تتوارى لستر جسدها الذي لا يستره ثوبها المهلهل :
- نعم .. نعم .. إنني قدمت إليه الماء بنفسي ، وداعبته ، وربّتّ على عنقه الطويل ..
وكانت كاذبة ..
صاح الرجل :
- ها هي فتاة كالفأر تعرف كيف ترسل كذبة أضخم من الجبل ، إن الجواد لم يشرب على الإطلاق ، وإنه يتنفس بطريقة أعرفها كلما برح به الظمأ ..
فأصرت كوزيت على كذبها .. وقالت بصوت لا يكاد يُسمع :
- بل إنه شرب كثيراً ..

فقال الرجل بصوت أجش :
- كفى .. كفى .. أريد ماءً لجوادي ، وإلا رحلت به في الحال ..
فنامت كوزيت تحت المائدة ، وترك هذا التهديد أثره الفعال في نفس مدام تيناردييه ، فقالت :
- هذا هو الحق ، إذا كان الجواد ظمآن فمن الإنصاف أن يشرب ..
ونظرت حولها واستطردت :
- أين ذهبت الشيطانة الصغيرة ؟
فخرجت كوزيت من مخبئها كالفأر المبلل بالماء ..
قالت المرأة :
- قدمي إلى الجواد حاجته من الماء ..
فأجابت كوزيت بصوت خافت :
- ولكن لا يوجد ماء يا سيدتي ..
- احملي الآنية وانطلقي بها إلى الينبوع ..
فتناولت آنية أكبر منها حجماً ، وسارت نحو الباب ببطء ..
قالت المرأة :
- صبراً ، عرجي في عودتك على حانوت الخباز وابتاعي رغيفاً ، إليك خمسة عشر سنتيماً ..وألقت إليها قطعة النقود ، فوضعتها كوزيت في جيب مئزرها ، ووقفت في الباب لا تبدي حراكاً .. ولعلها كانت تأمل أن يأتي من ينقذها من هذه الورطة ..وأبصرت بها المرأة فصرخت بصوت كالرعد :
- ألا تذهبين أيتها التعسة ؟
فخرجت كوزيت وأغلقت الباب وراءها ..وقع بصرها أمام الحانة على حانوت لبيع لعب الأطفال ، وكان الحانوت لا يزال مفتوحاً ، لأن الليلة هي ليلة عيد الميلاد ..وكان صاحب الحانوت قد وضع ببابه دمية كبيرة ترتدي ثوباً بديعاً مزركشاً لم تسنح لها فرصة لمشاهدتها عن كثب ..كانت هذه الدمية هي موضع إعجاب سكان القرية جميعاً ممن تقل أعمارهم عن عشرة أعوام ، ولكن أحداً منهم لم تكن عائلته من سعة الحال بحيث تستطيع إهداء هذه الدمية بمناسبة العيد ..
ووقفت كوزيت ذاهلة أمام تلك الدمية البديعة ، وتأملت ثوبها الحريري وشعرها الناعم الطويل ، وقالت لنفسها :
- ما أسعد هذه الدمية !!
وإنها لا تزال تملأ عينيها الواسعتين بجمال الدمية ، وقد ذهب بها الخيال كل مذهب ، إذ بها تسمع صوتاً يردها إلى الحقيقة كان صوت مدام تيناردييه ، وقد أبصرت بها من النافذة .. صاحت :
- ألم تذهبي بعد أيتها الضفدعة القذرة ؟ صبراً حتى ألحق بك !
وأغلقت النافذة بعنف ، فأطلقت كوزيت ساقيها للريح ، ومازالت تعدو والآنية الكبيرة بين يديها حتى خرجت من القرية ، وتوغلت في ظلام الحقول ..وكانت كلما ابتعدت عن القرية زاد إحساسها بالوحشة ، وشعورها برهبة الليل ، فراحت تنقر بأصابعها على الآنية لتحدث صوتاً يؤنسها ويشدد عزمتها ..انطلقت من القرية عدواً ، وأوغلت في الحقول عدواً ، وأحست وهي تعدو برغبة شديدة في أن تصرخ وتستغيث .. لم تكن تفكر ، ولم تكن ترى ، فقد احتوى الليل جسدها الصغير ، واحتلت ذهنها صورة واحدة هي صورة تلك المرأة الجهنمية رابضة في انتظارها لتتهمها بالإبطاء ، وتشبعها ضرباً وركلاً ..انحنت وملأت الآنية بالماء ، ولم تشعر وهي تفعل ذلك بأن قطعة النقود انحدرت من جيب مئزرها ، وسقطت في الينبوع .. وأرادت أن تحمل الآنية الممتلئة ، فعجزت .. كان إسراعها قد أنهك قوتها ، فتريثت قليلاً لتلتقط أنفاسها ، ثم حملت الآنية ، وسارت بها بضع خطوات ، وتريثت مرة أخرى لتستريح .. وحملت الآنية للمرة الثالثة ، ومشت بها محدودبة الظهر ، مطرقة برأسها كعجوز في السبعين ، واضطرت مراراً أن تتوقف ، وفي كل مرة كان الماء المثلج ينسكب على صدرها ويبلل قدميها .. حدث ذلك بين الحقول الموحشة ، في جوف ليلة من صميم الشتاء ، ولم تره عين غير عين الله لم تجرؤ الطفلة على البكاء خوفاً من سيدتها ، فقد تعودت أن تشعر بسيدتها على مقربة منها في كل وقت وفي كل مكان ..وأنهكها التعب أخيراً ، فوقفت ، وهتفت دون أن تشعر ، وبصوت الإنسان الذي يئس من كل رحمة في الأرض أو في السماء :
- يا إلهي ! وفجأة ، أحست بالآنية يخف وزنها ، فرفعت رأسها ، ورأت شبحاً ضخماً يتناول الآنية من بين يديها ..
كان شبح رجل كبير الجسم ، تبعها دون أن تشعر ، وأقالها من حملها الثقيل ، ومن العجب أن كوزيت لم يخالجها في تلك اللحظة شعور بالخوف أو الفزع .



قال لها الرجل بصوت هادئ ، خافت :

- إن حملك ثقيل يا بنية ..

فأجابت في مذلة وتواضع :

- نعم سيدي ..

- كم عمرك أيتها الصغيرة ؟

- ثمانية أعوام يا سيدي ..

- وهل حملت هذه الآنية مسافة طويلة ؟

- إنني ملأتها من الينبوع ..

- وإلى أين تقصدين ؟

- إلى القرية يا سيدي ..

- كم تبعد من هنا ؟

- إنها تبعد مسيرة ربع ساعة ..

فوقف الرجل في مكانه ، ثم سأل فجأة :

- وإذاً فأنت لا أم لك ؟

فأجابت كوزيت :

- لا أعلم ..

واستطردت قبل أن يتمكن الرجل من الكلام :

- لا أظن أن لي أماً ، إن لغيري من البنات أمهات ، أما أنا فلا أم لي ..

وأردفت بعد لحظة :

- أظن أنه لم تكن لي أم قط ..

فوضع الرجل الآنية على الأرض ، وألقى يديه الكبيرتين على كتفيها وحاول أن يرى وجهها في الظلام ..

سأل :

- ما اسمك يا بنية ؟

- كوزيت ..

فمرت في جسد الرجل رعدة قوية ، ونظر إلى الفتاة مرة أخرى ، ثم رفع يديه عن كتفيها ، وحمل الآنية واستأنف السير ..

سأل بعد قليل :

- ومن الذي أرسلك لإحضار الماء في مثل هذه الساعة ؟!

- مدام تيناردييه ..

فقال الرجل بقلة اكتراث ، وبصوت يرتجف قليلاً :

- ومن هي مدام تيناردييه ؟

- إنها سيدتي وزوجة صاحب الحانة ..

- صاحب الحانة ؟ إنني سأقضي ليلتي هناك ، فأرشديني إلى الطريق ..

وعلى الرغم من أن الرجل كان يمشي بخطى واسعة فإن كوزيت لم تجد صعوبة في مرافقته ..

لم تعد تشعر بالتعب ، وراحت تنظر إلى الرجل من وقت لآخر بشيء كثير من الثقة والطمأنينة ..

سألها الرجل :
- أليس لمدام تيناردييه خدم ؟ ألا يوجد في الحانة أحد سواك ؟
- بل توجد فتاتان صغيرتان هما إيبونين وأزيلما ..
- وهل يشتغلان بالخدمة مثلك ؟
- إنهما ابنتا مدام تيناردييه ..
- وماذا تصنعان إذاً ؟
- لا شيء .. إنهما تلهوان وتلعبان بالدمى ..
- وأنت ؟
- إنني أقوم بالخدمة ..
- كل النهار ؟
فرفعت إليه الفتاة عينيها الواسعتين . ولم ير الرجل في الظلام دمعة ترقرقت فيهما ..
أجابت بصوت خافت :
- نعم يا سيدي ..
ثم أردفت بعد قليل :
- إنني ألهو في بعض الأحيان . بعد الفراغ من عملي . ولكني لا أملك شيئاً من الدمى ..
و وصلا إلى القرية . وسارت كوزيت بالرجل بين شوارعها المظلمة .. ولما مرا بحانوت الخباز . كانت الفتاة قد نسيت أمر الرغيف ..
واقتربا من الحانة . فقالت كوزيت :
- لقد اقتربنا فدعني أحمل الآنية ..
- لماذا ؟
- خوفاً من أن تضربني سيدتي . إذا أبصرت تحملها ..
فأعطاها الآنية . وبعد لحظة كانا بباب الحانة . ولم تتمالك كوزيت قبل دخولها من أن تختلس نظرة إلى الدمية المعروضة بالحانوت ..
وأقبلت مدام تيناردييه على الفتاة وهي تصيح :
- أين كنت أيتها الشقية ؟ ولماذا أبطأت حتى الآن ؟
فقالت لكي تتقي غضبها :
- هذا السيد يطلب غرفة يا سيدتي ..
فاستحالت قسوة المرأة إلى دعة . وصعدت الرجل بعين فاحصة . ولكنها ما كادت ترى رثاثة ثيابه حتى عاودها العبوس .."
قالت في شئ من الخشونة : أدخل ياسيدي .
فدخل الرجل : و أرسلت المرأة بصرها إلى حيث كان زوجها , كأنما تستطلع رأيه , وكان جواب الزوج أنه قلب شفتيه باحتقار , وأومأ برأسه بإشارة معناها : أطرديه.
قلت للرجل : من دواعي الأسف ياسيدي أنه ليس لدينا غرفة خالية.
-إذا دعيني أقض ليلتي حيثما اتفق ,ولو في الإسطبل .سأدفع الأجر الذي تطلبينه .
- هل تدفع أربعين سنتيماً؟
-نعم.
وسمع أحد الزبائن هذا الحديث و فنظر إلى تيناردييه في دهشة وهتف :
- أربعون سنتيماً؟ إن الأجر عشرون سنتيماً فقط!
فأجابه تيناردييه في همس :
- نعم و ولكنه اربعون سنتيماً لأمثال هذا الرجل إنني لا أريد فقراء في حانتي .
- صدقت , فذلك يسئ إلى سمعة الحانة.
أما الرجل فإنه وضع عصاه ,و الحزمة التي عليها ,و جلس أمام إحدى الموائد . فـ أسرعت كوزيت , وقدمت له قدحاً وزجاجة نبيذ.وبينما كانت تصب النبيذ في القدح , راح الرجل ينظر إليها باهتمام عجيب.
لم تكن كوزيت جميلة , و لكن يمكن أن تكون أجمل لو أنها تذوقت طعم الراحة و السعادة.

كانت عيناها الواسعتين غائرتين في محجريهما و قد أنطفأ بريقهما لكثرة البكاء.وسقط ضوء المصباح على جسمها فأبرز نحولها و نحافتها الخيفة . ولم يكن ثوبها سوى خرقة قذرة مهلهلة تكشف ثقوبها عن بشرتها الشاحبة المحتقنة في بعض المواضع بتاثير الضرب و الركل .كان منظر الفتاة وصوتها ونظراتها و حركاتها تعبر عن شئ واحد هو الخوف .
وقد بلغ من خوفها أنها لم تجرؤ على الاقتراب من نار الموقد رغم ارتجافها وتساقط قطرات الماء من ثوبها.
واستانفت كوزيت عملها في سكون . و الرجل الغريب لايحول عينيه عنها إلى أن صاحت مدام تيناردیه فجأة :
-أين الرغيف ايتها الضفدعة القذرة؟
وكانت كوزيت قد نسيت الرغيف تماماً . فلجأت إلى المعقل الوحيد الذي يعتصم به الأطفال الخائفون ,وهو الكذب
قالت : إنني وجدت باب حانوت الخباز مغلقاً
-كان يجب أن تطرقي بابه .
-إنني فعلت ذلك, ولكنه لم يفتح الباب.
فقالت المرأة بصوت رهيب ك سأتحقق من ذلك غداً ,و الويل لك إذا كنت كاذبة ! والآن ,أين النقود؟
فدست كوزيت يدها في جيب مئزرها و اخضر لونها في الحال . لم تجد قطعة النقود.
قلبت جيبها مراراً , و بحثت فيه باهتمام مؤلم , ولكن بغير جدوى .
صاحت المرأة : هل اضعتها أو لعلك تريدين سرقتها؟!
ومدت يديها نحو عصا في أحد الأركان فصرخت كوزيت:
-رحماك ياسيدتي. لن أفعل ذلك مرة أخرى.
ولم يغب عن الرجل الغريب شئ مما حدث , فراح يبحث في جيوبه بسرعه دون أن يلفت إليه الانظار.
وفي هذه الأثناء ,كانت كوزيت تتراجع و تنكمش لتقي جسمها العاري . ورفعت المراة العصا بيدها ,
فصاح الرجل الغريب:
- عفواً ياسيدتي لقد رأيت شيئاً يسقط من جيب الفتاة , و لعله قطعة النقود المطلوبة.
وأحنى قامته وتظاهر بأنه يبحث ويفتش في أرض المكان , ثم نهض على الأثر وهو يقول :هاهي ياسيدتي.
فقالت : نعم إنها هي .
كانت قطعة من ذوات العشرين سنتيماً فأخذتها المراة بغير تردد وربحت في هذه الصفقة خمسة سنتيمات.
ونظرت كوزيت بنظرة صارمة ,وقالت مهددة:
- حذاري أن تعودي إلى مثل هذا.
وتسللت الفتاة إلى مكانها المالوف تحت المائدة و بعد ان رمقت الرجل الغريب بنظرة تفيض بالشكر و الثقة و عرفان الجميل, و فُتح أحد الأبواب الجانبية بعد قليل , ودخلت منه إيبونين و أزيلما.
كانت فتاتين بديعتين حقاً على شئ قليل من الجمال والأناقة , وكل منهما ترتدي ثوباً من الصوف السميك يقيهما شر البرد ويبرز في الوقت نفسه تناسق اعضائهما ورشاقة قامتهما.
و ألقت الأم على ابنتيها نظرة حنان و إعجاب و استمرت في عملها.
أما الفتاتان فقد وضعت كبراهما على الأرض دمية جميلة كانت في يدها و شرعت مع أختها في مطاردة هرة سوداء صغيرة .ولاحظت مدام تيناردیه أن كوزيت لاتصنع شيئا,وأنها تراقب ابنتيها في عبثهما فصاحت بها : أهكذا تشتغلين ؟ سأعرف كيف أجعلك تُقلعين عن هذا الخمول .
- دعيها تلعب سيدتي و هذه ليلة عيد الميلاد
ولو ابدى هذه الرغبة زبون محترم يمكن أن تُفيد الحانه منه , إذاً لرحبت به مدام تيناردیه و عملت على تحقيقها , أمّا و المتكلم هو هذا الزبون الوضيع فالأمر مختلف .
صاحت المرأة بحده : ماذا تاكل فيجب أن تشتغل . إنني لا استطيع إطعامها و إيواءها لوجه الله .
فسالها الرجل بلهجة رقيقة لا تُنتظر من إنسان في سوء حاله:
وماذا تريدينها أن تصنع ياسيدتي ؟
-أن تصنع جورباً لابنتي .
فنظر الرجل إلى قدمي كوزيت العاريتين , وسأل :
-كم من الوقت يستغرق صنع هذا الجورب؟
- ثلاثة ايام أو أربعة.

-وكم يساوي بعد أن يتم صنعه؟
فقلبت المرأة شفتها باحتقار ,وأجابت :يساوي ثلاثين سنتيماً على الأقل.
هل تقبلين خمسة فرنكات ثمناً للجورب ؟
وكان تيناردييه قد سمع هذا الحديث , فوجد من واجبه الآن أم يتكلم.
قال : نعم ياسيدي ما دامت هذه رغبتك . إننا لا ننكر على زبائننا شيئاً ولا نرفض لهم رغبة.
وقالت الزوجه و الدفع فوراً.
فوضع الرجل الفرنكات الخمسة على المائدة , وتحوّل إلى كوزيت وقال:
- في استطاعتك أن تعلبي يابنية.
فدس تيناردييه النقود في جيبه, و عضت زوجته على شفتيها ورمقت الرجل بنظرة بغض و كراهة.
و هتفت كوزيت وهي ترتجف : اصحيح هذا ياسيدتي؟! هل استطيع حقاً أن ألعب؟
فأجابت المرأة بصوتت رهيب: نعم .
فشكرتها الفتاة بشفتيها , وشكرت الزائر بقلبها , و غاصت تحت المائدة .
واقتربت مدام تيناردييه من زوجها وهمست في أذنه : من تظنّه هذا الرجل؟
فأجابها تيناردييه . لقد رايت اصحاب ملايين يرتدون ثياباً عتيقة خشنة كثوب هذا الرجل .
ورأت كوزيت الدمية التي وضعتها إبونين على الأرض حين شرعت في مطاردة الهرة فتسللت من مخبئها بسرعة و اختطفت الدمية لتلهو بها ووهمت بالعودة إلى مكانها.
ولكن إبونين لمحتها وصاحت : أنظري يا أماه.
فنظرت الأم , ورأت كوزيت ممسكة بالدمية ,فصرخت مستنكرة :
كوزيت! فذعرت كوزيت ووضعت الدمية على الأرض في رفق بحركة تدل على القنوط . و عادت إلى مخبئها دون أن تحول عينيها عن الدمية ومالبثت أن أنفجرت باكية بصوت مسموع.
ونهض الرجل من مكانه وسأل :ماذا حدث؟؟!
فأجابت المرأة : قد تجاسرت هذه الشقية على لمس دمية ابنتي .
فقصد الرجل إلى الباب و وفتحه و خرج.
وانتهزت مدام تيناردية هذه الفرصه , وركلت كوزيت بقدمها ركلة جلعتها تصرخ.
وعاد الرجل بعد دقائق وبين يديه تلك الدمية الكبيرة الجميلة التي اسالت لعاب الأطفال جميعاً في القرية.
قال وهو يضع الدمية بين يدي كوزيت هذه لك!
فوجمت الفتاة , وذهلت ,ولم تستطع الكلام , بل ولم تستطع التنفس.
أما مدام تيناردييه فإنها جمدت في مكانها , وتذكرت كلام زوجها و راحت تسأل نفسها: ترى من يكون هذا الرجل؟! اسائل هو أم صاحب ملايين؟ ربما كان هذا و ذاك . نعم و ربما كان لصاً



وشعرت مدام تيناردييه بإنها لم تمقت إنساناً في الوجود كما اصبحت تمقت هذا الرجل المجهول الذي أرسلته العناية الإلهية إلى كوزيت . وكأنما كانت سعادة كوزيت أكثر مما تطيق هذه المرأة رؤيته , لأنها مالبثت أن أرسلت ابنتيها إلى مرقدهما و ثم استاذنت الرجل المجهول في إرسال كوزيت إلى مخدعها ,لأن المسكينة متعبة مُنْهَكَة القوى وانصرفت كوزيت بدميتها المحبوبة , وبقي الرجل المجهول في مكانة ,وقد وضع مرفقيه على المائده وأسند راسه بين كتفيه, و انصرف إلى التفكير.وانقضت بضع ساعات ,وانتصف الليل ,وانصرف روّاد الحانة, و الرجل الغريب قابع في مكانه لايتكلم , ولايحرك ساكناً .

وأخيراً ضاقت المرأة ذرعاً فهمست في اذن زوجها:

- هل في نيته أن يقضي الليل كله هكذا ؟ سأنطلق إلى غرفتي , ولك أن تصنع به ماتشاء .

فذهب إليه تيناردييه وسأله باحترام :ألا تشعر بالحاجة إلى النوم ياسيدي؟

فأجاب الرجل :نعم .نعم .إنك على حق .أين الاسطبل؟

فقال تيناردييه وهو يبتسم :سادلك إليه ياسيدي.

وتناول شمعة مضاءة وحمل الرجل عصاه وحزمته ,وصعدا إلى الطابق الأول .وانتهيا إلى غرفة أنيقة فاخرة الأثاث و الرياش.

فهتف الرجل :ماهذا؟

فأجاب تيناردييه :هذه غرفتنا الشخصية , وقد ظلَّت مغلقة منذ زفافنا.

فأجاب الرجل بخشونة : كنت أفضل أن أنام في الاسطبل.

وقبل بزوغ الشمس . كان الرجل المجهول مرتدياً ثيابه و حاملاً حزمته و عصاه.

وابصرته مدام تيناردييه , فهتفت :أترحل بهذه السرعة ياسيدي؟

-نعم .كم يجب أن أدفع؟

فلم تجب مدام تيناردييه , وقدمت إليه قائمة حساب مرهق فتناولها , و ألقى عليها نظرة شاردة,كان اهتمامه منصرفاً إلى شئ آخر.

سألها :كيف حال العمل هنا؟

فأجابت , وقد أدهشها إنه لم ينفجر غاضباً ساخطاً بعد أن رأى قائمة الحساب:

-إن العمل لاباس به .

واستدركت قائلة : ولكن الأزمة شديدة على كل حال , ومن حسن الحظ أن بعض الزبائن الكرام من أمثالك يزورون الحانة من وقت لآخر.إن النفقات هنا باهضة ياسيدي , والفتاة الصغيرة وحدها تكلفّنا أكثر مما نطيق.

- من تعنين؟ أية فتاة صغيرة؟

-أعني كوزيت.

فقال الرجل بصوت هادئ وبقلّة اكثرات :إذا افترضنا أنك تخلصتِ منها.

فصاحت ,وفي عينيها نظره بغض و كراهية :خذها ,بالله ياسيدي .خذها وأرحنا ,فأباركك وأبتهل إلى الله من أجلك ليل نهار

هل تريد أن تأخذها في الحال؟

-نعم ,إدعيها.

فصاحت المرأة تنادي الفتاة :كوزيت.

فقال الرجل : كم يجب أن أدفع؟
ونظر إلى قائمة الحساب مرة أخرى, و غمغم في دهشة :ثلاثة و عشرون فرنكاً؟!
وفي هذه اللحظة دخل تيناردييه وقال : الحساب ستة و عشرون سنتيماً فقط.
فنظرت المرأة إلى زوجها مستنكرة ,وصاحت :ستة و عشرون سنتيماً فقط.
فأجاب ستة و عشرون سنتيماً فقط. ببرود :نعم عشرون سنتيماص أجر الفراش ,وستة سنتيمات ثمن النبيذ...أما مسالة الفتاة ,فإن لي فيها كلاماً سأقوله لهذا السيد على انفراد.
فأنسحب المرأة و قدم تيناردييه مقعداً للرجل, وقال بسذاجة مصطنعة :
-يجب أن أقول لك ياسيدي إنني أحب الفتاة حبَّ عبادة .
فنظر إليه الرجل المجهول بحدة ,وسأل : أية فتاة؟
-أية فتاة ! كوزيت طبعاً . أليس في نيتك أن تأخذها ؟ دعنى أقول لك في صراحة إنني لا أوافق لا أطيق فراقها.
لقد تعهدتها بالعناية منذ كانت طفلة , لأنها يتيمة لا أب لها ولا أم . أما زوجتي , وإن كانت ضيقة الصدر سريعة الغضب ,فإنها تعطف كذلك على الفتاة و تحبها.
إنها كابنتينا ,وليس أحب إلى من أسمع صوتها يدوىّ بين جدران الحانة.
وكان الرجل لايزال ينظر إليه بإمعان .فاستطرد:
-ثم إنني لا أتركها هكذا لأول عابر سبيل .هَبُ أنني قسوت على نفسي ,وتركت الفتاة تذهب معك أفلا يكون من واجبي أن أعرف مكان إقامتها ,وأن أزورها لأتحقق من أنها سعيدة تعيش حياة هانئة !إنني لا أعرف حتي أسمك . فيجب على الأقل أن أرى أوراقك الشخصية أو جواز المرور الذي تحمله أو أي شئ من هذا القبيل.فأجاب الرجل في رزانة دون ن يحول عينيه عن و جه تيناردييه :
-اصغ إلى يامسيو تيناردييه ! إن الإنسان لايحتاج إلى جواز مرور لكي يبتعد عن باريس أربعة فراسخ , وأنا إذا أخذت كوزيت فإنني آخذها و أمضي في سبيلى ولا حاجة بك لأن تعرف اسمى و عنواني ,إنني ساقطع الخيط الذي يقيّد قدميها و أتركها تطير . فهل يرضيك هذا؟
وأدرك تيناردييه منذ اللحظة الأولى أنه أمام رجل قوي الإرادة بقدر ما هو قوي العضلات . وكان قد اهتم بمراقبته في الليلة السابقة . فلم تفته حركة من حركاته
وأدهشته النظرات الغريبة الفاحصة التي كان يحدج بها الفتاة . فسأل نفسه : ترى ما سر اهتمامه بها ؟
ومن هو هذا الرجل ؟ ولماذا يرتدي هذه الأسمال البالية .
وجيوبه عامرة بالمال ؟
ألقى على نفسه هذه الأسئلة . ولم يهتد إلى جواب . وقضى الليل كله في سهد وتفكير ..كان من المستحيل أن يكون الرجل والد كوزيت . وإذاً لعله جدها !
وإذا كان كذلك . فلماذا لا يعلن شخصيته وصفته ؟
إذا كان لإنسان حق . فإنه لا يتردد في إثباته . والحصول عليه . وإذاً فهذا الرجل لا صلة له بكوزيت ولا حق له عليها ..
وكان تيناردييه من الرجال الذين يفهمون حقيقة الموقف بنظرة واحدة . وقد رأى أن الفرصة سانحة للعمل بسرعة وصراحة ..قال :
- أصغ إلي يا سيدي . إنني أطلب ألفاً وخمس مئة فرنك ..
فأخرج الرجل من جيبه حقيبة سوداء عتيقة وتناول منها ثلاث ورقات مالية وضعها على المائدة وقال :
- جئني بالفتاة ..
وما هي إلا لحظة حتى جاءت كوزيت . وأخرج الرجل من حزمته ثوب حِداد لفتاة في السابعة من عمرها ..
قال محدثاً كوزيت :
- انطلقي بهذا الثوب إلى غرفتك أيتها العزيزة . وارتديه على عجل ..
ولما تنفس الصباح . شاهد بعض أهل القرية شيخاً رث الثياب . وفتاة في ثياب الحِداد يسيران جنباً إلى جنب في الطريق المؤدية إلى باريس . وقد أمسك الشيخ يد الفتاة . وأمسكت الفتاة بدمية كبيرة جميلة ..
فأما الشيخ فلم يعرفه أحد . وأما كوزيت فلم يعرفها في ثوبها الجديد إلا القليلون ..
وكانت مدام تيناردييه قد أطلقت يد زوجها في العمل وتوقعت نتائج باهرة ..

وانتظر تيناردييه نصف ساعة بعد رحيل كوزيت . ثم انتحى بزوجته ناحية . وأبرز لها الألف والخمسمئة فرنك . فسألته :
- هل هذا كل ما حصلت عليه ؟ ورمقته شزراً . فأطرق برأسه لحظة ثم قال :
- إنك على حق .. وقد كنت مغفلاً .. إلي بقبعتي ..
ودس النقود في جيبه وانطلق في أثر الرجل وكوزيت . وهو يقول لنفسه :
- نعم .. إنني حمار عجوز وهذا الرجل من أصحاب الملايين بغير شك .. فقد أخرج من جيبه أولاً عشرين سنتيماً . ثم خمسة فرنكات . ثم خمسين فرنكاً ثم ألفاً وخمسمئة . وفعل ذلك بكل بساطة . ولو طلبت خمسة عشر ألف فرنك لأعطانيها بغير تردد ولكني سألحق به .. وتذكر الثوب الذي أعده الرجل سلفاً لكوزيت . وحار في فهم هذا اللغز ..
ولحق بالرجل والفتاة في دغل بعيد عن القرية . وكان الرجل قد جلس تحت شجرة هناك ليسمح للفتاة ببعض الراحة ..
واقترب تيناردييه بخفة . وفاجأ الرجل بظهوره . وقال وهو يلهث :
- عفواً يا سيدي . إليك الألف والخمس مئة فرنك ..
فنظر إليه الرجل في هدوء وسأل :
- ما معنى هذا ؟
فأجاب تيناردييه باحترام :
- معنى هذا يا سيدي أنني أريد العودة بكوزيت ..
فذعرت الفتاة وتعلقت بساعد الرجل ..
أما هذا فإنه نظر إلى تيناردييه بحدة . وقال وهو يتمهل بعد كل كلمة :
- تريد ... العودة ... بكوزيت ؟
- نعم يا سيدي . ويجب أن أقول لك إنني فكرت في الأمر ملياً والواقع أنه ليس من حقي أن أترك الفتاة لك . فأنا رجل شريف كما ترى ..
هذه الفتاة ليست ابنتي . وقد استودعتنيها أمها . وإلى أمها يجب أن أردها ..
ستقول لي (إن أمها ماتت) .. حسناً .. في هذه الحال لا أسلم للفتاة إلى غير الشخص الذي يحمل تفويضاً من أمها .. فالأمر واضح كما ترى ..
فلم يجبه الرجل . ودس يده في جيبه . وأخرج حافظة النقود ..
وهنا وثب قلب تيناردييه بين ضلوعه . وقال لنفسه :
- لقد صدقت ظنوني . ها هو يسعى إلى إرضائي وابتياع سكوتي ..
أما الرجل فإنه أجال النظر حوله . واستوثق من إقفار المكان من المارة . ثم فتح حافظة النقود ولم يخرج منها رزمة الأوراق المالية كما توقع تيناردييه . بل أخرج قصاصة ورق صغيرة قدمها إلى تيناردييه وهو يقول :
- إنك على حق . اقرأ هذه الورقة ..
فنشر تيناردييه الورقة في يده . وقرأ فيها ما يلي :
" مسيو تيناردييه ..
أرجو أن تعهد بابنتي إلى حامل هذه الرسالة . وسيتولى سداد ما هناك من ديون "
"فانتين "
سأله الرجل :
- هل تعرف هذا التوقيع ؟
كان توقيع فانتين . فلم يستطع تيناردييه إنكاراً ..
قال الرجل :
- في استطاعتك أن تحتفظ بهذه الرسالة لوقت الحاجة ..
فطوى تيناردييه الورقة . وقال :
- ربما كان التوقيع مزوراً ببراعة . ولكن ذلك لا يهمني كثيراً . المهم أن تدفع الديون . وهي كثيرة ..
فنهض الرجل واقفاً . وقال :
- يا مسيو تيناردييه . في يناير الماضي كانت والدة هذه الفتاة مدينة لك بمئة وعشرين فرنكاً .. وفي فبراير . أرسلت أنت إليها قائمة حساب بمبلغ خمسمئة فرنك . فبعثت إليك بثلاث مئة فرنك في نهاية ذلك الشهر . وبمثلها في بداية شهر مارس

وقد انقضت تسعة شهور ، منذ ذلك العهد ، والأجر الشهري المتفق عليه هو خمسة عشر فرنكاً ، فيكون المجموع 135 فرنكاً .. ولكني أعطيتك منذ ساعة ألفاً وخمسمئة فرنك ..

فشعر تيناردييه وكأنه ذئب وقع في فخ ، ولكنه اعتصم بالجرأة والوقاحة ..

قال :

- أنا لا أعرف اسمك يا سيدي ، فإذاً لم تعطني ثلاثة آلف فرنك فإني أعود بكوزيت ..

فلم يزد الرجل على أن قال بهدوء :

- هلمّي بنا يا كوزيت ..

وحمل عصاه بيمناه ، وتأبط ساعدها بيسراه واستأنفا السير ..

ولاحظ تيناردييه ضخامة العصا ، وإقفار المكان ، وأسقط في يده ..

قال وهو يدور على عقبيه :

- إنني مازلت مغفلاً ، كان يجب أن أتسلح بغدارتي .. "



لم يمت جان فالجان غرقاً كما أذاعت الصحف لأنه في الواقع ما كاد يُنقذ البحار الذي أشرف على الغرق حتي ألقى بنفسه في الماء و غاص حتي أرخى الليل سدوله .وقد رأينا كيف ذهب إلى بولانجيه , وأنقذ كوزيت من براثن تيناردييه وزوجته , وعاد بها إلى باريس .. وقد كان ذلك اليوم من الأيام المشهودة في حياة كوزيت , وكان سرورها لا حد له بالرغم من المرحلة العظيمة التي قطعتها إلى جانب منقذها , ولا تشكو تعباً ولا نصباً , ولكن الرجل الطيب القلب شعر بتعبها فأشفق عليها وحملها فوق ظهره , وغلبها الإعياء فاستسلمت لنوم عميق .. كانت الغرفة التي استأجرها جان فالجان تكاد تكون بمعزل عن سائر المنازل , في مكان مقفر تنقطع فيه أقدام السابلة , وهي غرفة حقيرة متواضعة الأثاث , ليس فيها غير فراش بسيط ومنضدة ومقعدين وموقد ..

ووضع جان فالجان الفتاة في الفراش , ثم أضاء شمعة ولبث برهة يتأمل وجهها , وقد انعكست كل مشاعره الرقيقة على صفحة وجهه , ويكاد حنانه الشديد وعطفه الأشد يسيلان من عينيه دموعاً , وما تمالك أن انحنى على يدها الممدودة , وقبلها كما قبل يد أمها منذ تسعة أشهر حين نامت نومها الأبدي .. واستيقظ في صباح اليوم التالي وهي لا تزال تستمتع بنومها العميق حتى إذا مرت إحدى عربات النقل الثقيلة وأزعجها دوي عجلاتها انتفضت ونهضت واثبة من مرقدها وعلى وجهها علامات الرعب وصاحت :

- ها أنذا يا سيدتي !!

وراحت تدور بعينيها حولها , فوقع بصرها على جان فالجان , ووجدته ينظر إليها مشفقاً وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة وهدأ روعها ..

سألته قائلة :

- هل يجب أن أكنس ..

فأجاب :

- كلا ... العبي ..

فانصرفت إلى دميتها تناجيها وتدللها وهي أشد ما تكون سعادة وغبطة ..

وتتابعت الأيام وهذان المخلوقان يستمتعان بالسعادة في غرفتهما الصغيرة ..

وبدأ يعلمها القراءة والكتابة , وشعر بغبطة لا حد لها وهو يلقنها كيف تصلي ويحدثها عن أمها ويراقبها وهي تداعب دميتها .. وكانت المرأة التي يقيم في بيتها عجوزاً ثرثارة , ولطالما حاولت أن تكشف أمره باستدراج كوزيت سائلة , متقصية , ولكن الصغيرة كانت لا تعلم من أمره وأمرها أكثر من أنه هبط عليها من السماء فجأة فانتشلها من الجحيم وخطر للمرأة يوماً أن تراقب جان فالجان بعد عودته من ثقب القفل فرأته يخلع سترته , ثم جاء بمقص وقطع خيوط البطانة وأخرج منها ورقة مالية صفراء وضعها في جيبه وتناول إبرة وخاط البطانة وأعادها كما كانت , وبعد لحظة دعاها إليه , وأعطاها تلك الورقة , وطلب إليها أن تصرفها ..ونظرت المرأة إلى الورقة فوجدتها من ذوات الألف فرنك , فدهشت , وتضاعف فضولها .. وذات ليلة , خيل لجان فالجان أنه يسمع وقع أقدام تنتقل بخفة أمام باب غرفته وكان قد أطفأ المصباح وهم بالرقاد , فاعتدل في فراشه وأصغى , وما لبث أن رأى شعاعاً ينبعث من ثقب الباب , ولاحظ في ذات الوقت انقطاع صوت الأقدام , فأدرك أن هناك من ينظر إلى داخل الغرفة من خلال الثقب ..ثم تلاشى الشعاع فجأة , وساد السكون ..وشعر جان فالجان بالقلق والجزع , وقضى ليلته أرقاً مسهداً , وفي اليوم التالي , قالت له العجوز :

- أظن أنك سمعت صوت أقدام أمام غرفتك ليلة أمس يا سيدي ؟

فأجاب متظاهراً بقلة الاكتراث :

- أظن ذلك ..

قالت :
- إنه الساكن الجديد ، والظاهر أنه اعتاد الإبطاء ليلاً ، والنهوض مبكراً ..
- الساكن الجديد ؟ وما اسمه ؟
- لا أذكر .. ديمون ، أو درمون ..
- وماذا يصنع ؟
فنظرت إليه المرأة بعينين ضيقتين ، وأجابت :
- أظن أنه يعيش من إيراده مثلك ..
وربما لم تعن المرأة شيئاً خاصاً ، ولكن جان فالجان لم يطمئن إلى نظراتها ، وصوتها وعبارتها الأخيرة ..
ولم يبرح جان فالجان الغرفة في ذلك النهار ، وما إن هبط الليل ، حتى خرج من المنزل ، وأجال البصر حوله ، واستوثق من خلو الطريق من الرقباء ، ثم عاد أدراجه إلى كوزيت ، وقال لها :
- هلمي بنا ..
وانصرف معها ..
واتخذ من الظلام ستراً ، وما زال ينتقل بالفتاة بين الأزقة الملتوية وينظر وراءه بين الفينة والفينة كالجواد الطريد ، إلى أن بلغ زقاق (بيركاس) وهو زقاق ضيق مظلم وهناك خيل إليه أنه يسمع وراءه وقع خطوات كثيرة ، وسمع صوتاً كقصف الرعد يهتف :
- ابحثوا عنه في هذا الزقاق ، جميع الشوارع المجاورة موضوعة تحت الرقابة ..
وجمد جان فالجان في مكانه ، فقد عرف صوت جافير ، وسمع قرع الأقدام تقترب بسرعة .. ونظر الطريد حوله ، وسقط في يده ..كان الزقاق موصداً ، وتحيط به من كل ناحية جدران مرتفعة لا منقذ فيها ..
وكأنما أحست كوزيت بخطورة الموقف ، فقالت وهي ترتجف خوفاً وفرقاً :
- إني خائفة يا أبي ..
فأجابها في همس :
- اطمئني .. "
" ووقع بصره على المصباح الوحيد الذي يضيء الزقاق ، وكان المصباح يتدلى من حبل طويل ، فأسرع جان فالجان إلى المصباح فأطفأه ، وانتزع الحبل ، وعقده حول خصر كوزيت ..
وكانت محاولاته المتعددة في ليمان طولون ، وقوة عضلاته ومرونته ، قد ساعدتها على إتقان فن تسلق الجدران ، فدار بعينيه في جوانب الزقاق ، ووقع اختياره على أقل الجدران ارتفاعاً ، فأسرع إليه ، وأخذ يرقاه بخفة الهرة ، وكان لا يزال ممسكاً بطرف الحبل الذي عقده حول خصر كوزيت ..فما إن استوى فوق حافة الجدار ، حتى شرع يجتذب الفتاة بواسطة الحبل ، ثم أدلى بها في الناحية الأخرى من الجدار ، ووثب في أثرها .. وجد نفسه في حديقة مترامية الأطراف ، ينهض في نهايتها بناء منخفض مظلم ..وكانت كوزيت تلهث من التعب والخوف ، فاحتواها بين ساعديه وأرهف أذنيه ، فسمع جلبة وراء الجدار ، ولكنه لم يتبين حرفاً مما يقال ..ولما نظر إلى كوزيت بعد ذلك ، وجدها تغط في نومها ..
وإنه حائر لا يدري ماذا يفعل ، إذ سمع رنين جرس صغير ، ورأى رجلاً يتحرك في الحديقة وبيده مصباح ، وكان الجرس يرن كلما تحرك الرجل ويقف عن الرنين كلما كف الرجل عن الحركة ، فعجب لهذه الظاهرة ، ثم أدرك أن الرجل والجرس لا بد أن يكونا كتلة واحدة ..ومس يد كوزيت ، فإذا بها باردة مثلجة ، وناداها ، فلم تجب ، فذعر وأشفق على الفتاة الصغيرة أن يقتلها البرد ، وغمغم :
- يا إلهي ، ألا يوجد ملجأ ؟
ومدد كوزيت على الأرض ، وقصد إلى الرجل الذي رآه يتحرك في الحديقة ، ولما اقترب منه ، رأى على ضوء المصباح جرساً معدنياً صغيراً مشدوداً إلى منطقته ..ولم يشعر به الرجل ، ففاجأه جان فالجان بقوله :
- هل لك في أن تربح مئة فرنك ؟
فذعر الرجل ورفع رأسه ، واستطرد جان فالجان :
- إنني أعطيك مئة فرنك ، إذا وجدت لي مأوى أقضي فيه هذه الليلة ..
فرفع الرجل المصباح في يده ، ونظر إلى وجه جان فالجان طويلاً ، ثم هتف :
- من ذا الذي أرى .. الأب مادلين ؟

فذعر جان فالجان . وتراجع خطوة إلى الوراء ..
كان يتوقع كل شيء إلا أن يعرفه هذا الرجل الغريب . في تلك الظروف المريبة ..
غمغم :
- من أنت ؟ وما هذا المنزل ؟
فصاح الرجل :
- يا إلهي .. هذا كثير .. ألا تعرفني ؟ إنك أنقذت حياتي . وأوجدت لي هذا العمل ..
فحملق جان فالجان في وجه محدثه وعرف فيه فوشليفان ..
غمغم :
- آه .. أهذا أنت .. لقد عرفتك الآن . ماذا تصنع هنا ؟
- إنني أشفقت على الزرع من الصقيع . ولم يطب لي نوم فجئت لتغطيته حتى لا يصيبه التلف . ولكن كيف استطعت الوصول إلى هنا ؟
رأى جان فالجان من الحكمة أن يلزم جانب الحذر . فأجاب على هذا السؤال بسؤال آخر :
قال :
- وما هذا الجرس المشدود إلى منطقتك ؟
- إنني أحمله خصيصاً لكي يجتنبنني ..
- ماذا تعني ؟ إنني لا أفهم شيئاً بحق السماء ..
فغمز فوشليفان بعينه وقال :
- ذلك أنه لا يوجد في هذا المكان غير نسوة وبنات . والظاهر أنه من الخطر عليهن أن يقابلنني . فحملت هذا الجرس لكي يعرفن مكاني . فيجتنبنني ..
- وما هذا المنزل ؟
- ألا تعرفه ؟ أنت الذي أوجدت لي عملي هنا ..
- أجبني كما لو كنت لا أعرف شيئاً ..
- هذا دير سان انطوان ..
فتذكر جان فالجان ..
قال فوشليفان :
- ولكن بالله كيف استطعت الدخول أيها الأب مادلين ؟ إنك قديس حقاً . ولكنك رجل على كل حال . ودخول هذا الدير ممنوع على الرجال ..
- ولماذا دخلت أنت ؟
- إنني البستاني .. ولا يوجد هنا من الرجال سواي ..
فاقترب منه جان فالجان . وألقى بيده على كتفه . وقال بصوت رزين :
- اصغ إلي يا فوشليفان . إنني أنقذت حياتك ذات يوم . فهل تنقذ الليلة حياتي ؟ إنني أنوي البقاء هنا ..
- أنقذ حياتك ؟ يا إلهي .. ماذا تقول أيها الأب مادلين ؟! إنني لا أنقذ حياتك فحسب . ولكنني أفتديها بحياتي . فتكلم . ماذا تريدني على أن أفعل ؟
- هل لك غرفة خاصة ؟
- بل إن لي ثلاث غرف في خرائب الدير .. في مكان لا يذهب إليه أحد ..
- حسناً .. إنني أطلب إليك أمرين .. الأول ألا تتحدث عني إلى أحد .. والثاني ألا تحاول معرفة المزيد من أمري ..
- على رسلك . أنا أعلم أنك لا تفعل غير ما هو كريم ونبيل ..
- إذاً فدعني أجيء بالفتاة ..
فهتف فوشليفان :
- أية فتاة ؟
- إنها طفلة صغيرة ..
- هل هي ابنتك ؟
- إنني جدها ..

- واسمها ؟
- كوزيت "
" ولسائل أن يسأل كيف اهتدى جافير إلى مخبأ جان فالجان . بعد أن كان هو أول من اعتقد بموت غريمه غرقاً . والجواب على ذلك . أن صرامة جافير . وذكاءه . وحرصه على أداء واجباته كل ذلك لفت الأنظار إليه في إدارة الشرطة

. فنقل مفتشاً للبوليس في باريس . وانتهى إليه عن طريق أعوانه وعيونه . نبأ شيخ رقيق الحال . اشتهر بهباته للفقراء . وبأعماله الخيرية . رغم ما يبدو من رثاثة حاله . ومن أنه أجدر بالإحسان ممن يحن هو إليهم . فتحركت ريبته . وذهب به الظن إلى أن هذا الرجل ربما كان من اللصوص . وقد اتخذ الإحسان والأعمال الخيرية ستاراً يحجب به شروره . فعمد إلى مراقبته . وخيل إليه أنه عرف فيه جان فالجان . ولكنه حار في أمر الفتاة الصغيرة التي رآها تخرج برفقة الشيخ . وكان يعرف أن جان فالجان لم يتزوج ولم ينسل . ولكنه عاد فتذكر فانتين . وتذكر يوم أراد اعتقال جان فالجان . فاستمهله هذا ثلاثة أيام ليرد إلى المرأة التعسة ابنتها . ثم تذكر أنه ألقى القبض عليه آخر مرة وهو يهم بركوب عربة البريد إلى بولانجيه حيث توجد ابنة فانتين .. وزالت شكوكه وريبته حين علم من العجوز صاحبة المنزل أن كوزيت لا تعرف من أمرها ومن أمر هذا الشيخ الغريب إلا أنه أخذها من حانة في بولانجيه ..وعندئذ قرر جافير أن يعمل . وقد رأينا كيف أفلت جان فالجان من قبضته .. "
أما فوشليفان فإنه لم يخلّص منقذه فحسب , بل عمل على إقناع رئيسة الدير إلى مساعد . وقدَّم غليها جان فالجان بصفته أخاه , فألحقته بالعمل , وضمَّتُ
كوزيت إلى بنات الدير .
و في الدير قضى جان فالجان و كوزيت ثمانية أعوام , تثقفت كوزيت في خلالها و كبرت و ترعرعت و بلغت مبلغ النساء .



لم يكن ماريوس يعرف أمر جاره شيئاً ولم يهتم قط بأن يعرف كل ماعلمه من أمر هذا الجار هو أنه يدعى "جوندريت" وأنه يعيش مع زوجته و ابنته في غرفة حقيرة قذرة لاتكاد تصلح للخنازير. ولكن حدث ذلك اليوم أن سمع ماريوس في غرفة جلبة غير عادية .. وصل إلى أذنيه صوت جوندريت وهو يصيح بامرأته:

-هلمّي ! أطفئي النيران , وحطمي زجاج النافذة وارقدى في الفراش واملإي الدينا أنيناً .

فدهش ماريوس ,وعجب لماذا يامر الرجل زوجته بإطفاء النار و تحطيم الزجاج وملء الدنيا أنيناً .

وكان يفصل بين غرفته و غرفة جوندريت جدار في أعلاه كوة صغيرة مشبكة بالقضبان الحديدة ,فجأة صعد عليه واطل من تلك الكوة .ورأى.. رأى جوندريت يسير في الغرفة الضيقة جيئة وذهاباً وهو يفرك كفيه بارتياح ويقول :

-كنت واثقاً من أنه سيأتي فقد كتبت الرسالة بأسلوب يُذيب الصخر,فكيف بقلب شيخ متقدم في السن ,عُرف بحبه الخيرَ وعطفه على الفقراء

ثم التفت إلى ابنته الكبرى وقال : هل أنت واثقة من أنه سيأتي يا إيبونين ؟

فأجابت إيبونين وهي تلهث :أوكد لك أنه سيأتي .أنه قرأ الرسالة وهز رأسه , وسألني عن عنوان المنزل ,وأمر سائق مركبته أن ينطلق إلى هنا. فانقلبت سحنة جوندريت ,وقال:

-إذا صح ذلك وجب أن يكون هنا الآن ,وإلا كيف اتفق لك أن تسبقي المركبة , وتصلي قبله؟

فأجابت إيبونين :

- إنني انطلق أعدو بين الأزقة ووسلكت اقرب السُبُل إلى هنا.

فتحول جوندريت إلى زوجته وصاح:

- هل سمعت ايتها المرأة ؟! إنه قادم فاطفإي النار وتمدّدي على الفراش.وأنت يا إيبونين ...مزّقي هذا المقعد ,وحطمي الزجاج. فأطاعته المرأة و الفتاة .وهتف جوندريت وهو يفرك كفيه. هذا حسن ,هذا حسن! ها نحن على استعداد لاستقبال المحسن الكريم . وماهي إلا دقائق حتي سمع جوندريت طرقاً على الباب فأشار إلى امرأته و ابنتيه أن يلزمنّ الصمت.

وقال: تفضل بالدخول يا سيدي!

وفتح الباب فدخل رجل متقدم في السن , اشيبُ الشعر,وبرفقته فتاة حسناء في مقتبل العمر.

ورأى ماريوس , من مخبئه ذلك الشيخ وتلك الفتاة وفوثب قلبه بين ضلوعه.

لم يصدق عينيه .

كان قد رأي الفتاة للمرّة الأولى في حدائق لكسمبورج منذ ستة اشهر فأعجب بجمالها و احتشامها .

ثم لاحظ أنها تتردد إلى الحدائق كل يوم بصحبة ذلك الشيخ الذي أطلق عليه , في مابينه وبين نفسه , اسم مسيو "لبلان" أي (الأبيض) نظراً لبياض شعره. فراح بدوره يتردد إلى تلك الحدائق.

ولفت تردده نظر الفتاة فكانت تشعر به كلما اقترب فيصعد الدم إلة وجنتيها.

ثم بادلته النظرات و الابتسامات.

وتبعهما ذات يوم إلى منزلهما . وأراد أن يستفسر من بواب المنزل عن حقيقة امرهما وظّنه البواب جاسوساً . فلم يرفض إجابته فحسب ,بل أنبأ مسيو لبلان بأمره , وكانت النتيجة أن ماريوس لم ير الرجل و الفتاة في لكسمبورج بعد ذلك . و عندما ذهب إلى المنزل أنباه البواب بأنهما رحلا وأنه لايعرف مقرهما. وقضى ماريوس بضعة اسابيع في البحث عن صاحبته و حتى استولى عليه الياس و لذلك كانت دهشته لاحد لها حين ابصرها أمامه فجأة كأنها هبطت من السماء.

ووقف مسيو لبلان بباب الغرفة , وأجال حوله نظرة إشفاق ورثاء . كانت غرفة صغيرة مظلمة تنبعث العفونه من جدرانها

قال مسيو لبلان وهو يقدم لجوندريت حزمة كبيرة:

-ستجد في هذه الحزمة ياسيدي ثياباً جديدة و جوارب واغطية.

-ستجد في هذه الحزمة ياسيدي ثياباً جديدة و جوارب واغطية. فبسط جوندريت ساعديه , وهتف ببراعة الممثل المقتدر:
-جزاك الله عنا خيراً أيها المحسن الكريم .
ولكنه قال لنفسه : هذا ماكنت أخشاه .ثياب ولاشئ من النقود.
قال مسيو لبلان : أرى أنكم جديرون بالشفقة حقاً ويامسيو جوندريت.
- إنني كنت ممثلاً عظيماً ياسيدي..إنني من تلاميذ "تالما" المشهور ,وقدر عرفت معني السعادة . ولكن واأسفاه ,إن الحظ قلب ظهر المجنّ أخيراً .فأصبحت أنا و زوجتي وابنتاي بلا طعام ,ولاثياب ,ولانار , في هذا البرد القاتل.وهاهي زوجتي المكسينة طريحة الفراش منذ شهرين .أما الغرفة فلم أدفع اجرها منذ ستة اشهر.
وكان جوندريت يتكلم وينظر إلى مسيو لبلان بحدّة ,وقد جّعد جبينة وكأنه يفكر ويبحث بين ذكرياته القديمة .
وبحث مسيو لبلان في جيوبه ,ولم يجد غير قطعة من ذوات الخمسة فرنكات .فدفعها إلى جوندريت وهويقول:
-يامسيو جوندريت ويؤسفني أنني لاأجد معي الآن غير هذا المبلغ التافة .و لكني اعدك بزيارة أخرى في الساعة السادسة من مساء اليوم ز.كم يبلغ دينك لصاحب المنزل؟
-ستين فرنكاً ياسيدي.
-حسناً! إلى اللقاء في هذا المساء!
ودار مسيو لبلان على عقبيه .فاسرع جوندريت إلى امراته وهمس في اذنها :انظري إليه جيداً أيتها المرأة .
وكان لبلان قد تأبط ساعد الفتاة وانصرف بها.وعندئذ لاحظت ايبونين أنه ترك معطفه فصاحت :إنك نسيت معطفك ياسيدي!
فأجابها وهو يبتسم :كلا...إنني لم أنس , ولكني تركته.
فصاح جوندريت :يالك من محسن كريم. إن جسمي يكاد يذوب دموعاً.
وماكاد الرجل و الفتاة ينصرفان, حتى و ثب ماريوس من مخبئه وانطلق في اثر مركبتهما ولما عاد بعد ربع ساعة , كان و جهه يتهلل بشُرَا.
ذلك أنه عرف منزل الشيخ و الفتاة.

الفصل الثاني – الفخ



قال جوندريت لزوجته وهو يجادلها :سأقول لك شيئاً يخر هو أنني و ضعت يدي اليوم على كنز ثمين , وأننا سنشبع اليوم بعد جوع, ونروى بعد ظمأ.

فسألته :ماذا تعني؟

-إليك مأعني فأصغِ إلي.

وصمت لحظة ,ثم استطرد بصوت خافت ,ولكنه ليس من الخفوت بحيث لايصل إلى سمع ماريوس:

-لقد وقع المليونير في الفخ هذه المرة,إنه سيعود في الساعة السادسة,وفي هذه الساعة يكون جارنا قد انطلق لتناول طعام العشاء, وتكون صاحبة الدار في شغل بغسل الاواني ,فلن يفطن إلينا أحد متى أنفذنا الخطة التي بسطتها لك.

-ولكن هَبْ أنه أنكر و رفض؟

-في هذه الحالة أرغمة على الرضوخ, وإذا اصرَّ قتلته.

وأدرك ماريوس من هذه الكلمات أن الرجل وأمرأته يدبران فخاً لمسيو لبلان .فاضطرب وفزع , ثم تجلد وتشجع . وحزم امره على إنقاذا الرجل إرضاءً للفتاة التي يحبها.

ولكن ماذا يصنع؟

وفكر الشاب في الأمر ملياً ,وانتهي من تفكيره إلى حل. فغادر غرفته و قصد ليقابل أحد مفتشي الشرطة في مركزه وحدثه بما سمع . واصغى إليه المفتش في سكون ووجوم ثم سأل :

-وهل تعتقد أن جوندريت ينوي الفتك بالرجل الذي احسن إليه؟

فأجاب ماريوس :إن جميع الدلة تحمل على سوء الظن بهذا الرجل . وأكبر ظني أنه سيستعين على إنقاذ خطته بآخرين على شاكلته لأنه هزيل ضعيف البنية.

-هل معك مفتاح للباب الخارجي؟

-نعم.

-أعطِينه.

فأطاع ماريوس .

قال المفتش : والآن حاول أن تعود إلى غرفتك , وأن ترقب ما يحدث دون أن تُشعر جارك.

ومتى وجدت أن الفخ قد أُحكم وضعه, وأن الجريمة توشك أن تتم اطلق رصاصة من هذه الغدّارة فأسرع إلى نجدتك واعتقل الاشقياء. وناوله غدّارة محشوة. ثم سأل :متى ياتي الرجل؟

-في الساعة السادسة.

-هذا حسن .لاتنس أن تطلق رصاصة من الغدّارة !

وفعل ماريوس ماأشار به مفتش البوليس فكمن وراء الكوة وراح ينصت ويراقب.

كانت غرفة جوندريت خالية إلا من زوجته .أما الابنتان فانطلقتا لاستجداء أكفّ المحسنين.وأما جوندريت فإنه لم يعد إلا في الساعة الخامسة.

وفي الساعة السادسة تماماً سمع ماريوس طرقاً على باب جوندريت فصاح هذا بلطف : تفضل بالدخول أيها المحسن الكبير.

وكان القادم مسيو لبلان حقاً. فدخل الغرفة بخطى ثابته ووضع على المائدة أربعة جنيهات .وهو يقول :
-إليك ما وعدتك به يامسيو جوندريت. في أستطاعتك أن تدفع ديونك ,وتحتفظ ببقية المال ,وسنرى مايكون بعد ذلك.
فقال جوندريت:جزاك الله عنا ايها السيد النبيل.
وتظاهر بأنه يضع النقود بين يدي زوجته ,وهمس في أذنها:
-قولي لحوذي المركبة إن سيده يريده أن ينصرف.
فاطاعت المرأة ,وتسلّلت من الباب دون أن يشعر بها أحد .
وفي الوقت نفسه ,دخل أربعة رجال , الواحد منهم في تلو الآخر.
كانوا أشداء السواعد ,أقوياء ,الأجسام ,لايدعو منظرهم إلى الطمانينة,ولا تبشر وجوهم بخير.
وشعر مسيو لبلان بدخول أولئك الرجال ,وغلبت فيه عريزة الحذر فسأل :
-من هولاء ؟
فأجاب جوندريت :لا تلق إليهم بالاً ياسيدي , أنهم جيراني!
ثم استطرد : اضطررنا أن نبيع كل مانملك , ولم يبق لنا سوى هذه الصورة, إنها صورة ثمينة من صنع رسام بارع , وأنا أحبها كما احب ابنّتيّ فهي تذكرني بالماضي السعيد! وولكنني مضطر إلى بيعها فهل تبتاعها ياسيدي؟ إنني لن أطالبك بثمن باهظ . فكم تظنها تساوي؟
فلم يحوّل لبلان عينيه عن الرجال الأربعة ,واجاب بهدوء:
_إنها لاتساوي أكثر من ثلاثة فرنكات.
فقال جوندريت في إصرار:
-هل معك حافظة نقودك ؟إنني أقنع بألف فرنك ثمناً لها.
فاستند مسيو لبلان إلى الجدار ونظر حوله , فرأى المرأة و الرجال الأربعة يحرسون باب الغرفة ونوافذها.
وفجأة, لمعت عينا جوندريت الشريرتان ببريق خاطف , و اعتدل ظهره المحدودب وتقدم نحو مسيو لبلان وزمجر بصوت كالرعد:
- ليس ذلك ما أنا بسبيله! فهل عرفتني؟
تغّير لون مسيو لبلان ,ولكنه ظل رابط الجأش .وراح يدور بعينيه في أرجاء الغرفة كحيوان وقع في شرك.
وخُيل إلى ماريوس أن الوقت قد جان للتدخل .فصوب غدّارته من خلا الكوة وهمَّ بإطلاقها.
غير أن جوندريت انفجر ضاحكاً في تلك اللحظة وكان لضحكته دويّ بغيض ردَّدت صداه جدران الغرفة.
و أعاد سؤاله على لبلان :هل عرفتني؟
فأجاب لبلان بهدوء : كلا.
فصاح جوندريت : ليس اسمي جوندريت إنما أنا تيناردييه !
صاحب حانة بولانجيه ! فهل عرفتني الآن؟! أنا تيناردييه!!
فاحمر و جه مسيو لبلان, ولكنه أجاب بصوت هادئ النبرات:
ذلك لايعنيني!
وراح تيناردييه يذرع الغرفة جيئة و ذهاباً و على وجهه ملامح الانتصار .
هتف: هأنذا قد وقعت عليك أخيراً ياسيدي المحسن...
ها...ها...ألاتعرفني؟ ألم تكن أنت ذلك المليونير الذي جاء إلي حانتي في بولانجيه ليلة عيد الميلاد منذ ثمانية أعوام ؟ ألم تخطف طفلة فانتين من حانتي وتذهب بها؟
فقال مسيو لبلان: إنني لا أفهم شيئاً مما تقول . فما أنا إلا رجل فقير ,ولاصلة لي باصحاب الملايين , ولاشك أنك توهمتني شخصاً آخر.
فبدت علامات الغضب على وجه تيناردييه وصاح :
-لست أنا ممن يخطئون.أصغ إلي , إنني بحاجة إلى المال, بل إلى الكثير من المال. فإنا أن تعطيني ماأطلب وإلا فالويل لك!
فصمت لبلان وصارح تيناردييه : أليس لديك ماتقول؟
وأصرّ لبلان على الصمت فجعل تيناردييه يسير إلى الغرفة بخطوات واسعة,وقد ارتسمت على وجهه النحيل علامات القلق.
ثم وقف فجأة أمام سجينه و صاح :فتشوه!

وأقبل الرجال الأربعة على مسيو لبلان ففتشوه دون اية مقاومة من جانبه ,فوجدوا معه منديلاً وستة فرنكات.
وتناول تيناردييه المنديل ووضعه في جيبه ,ثم سأل :
-ألم تعثروا على حافظة نقود؟
فأجابه أحد الرجال :كلا.
فتقدم تيناردييه من المحسن إليه وتكلم في رفق ولعله كان يرجو أن يظفر منه باللين بمال لم يستطع أن يظفر به قسراً.
قال: معذرة ياسيدي ,فقد أفقدني الغضب صوابي.ولكنني تبينت الآن خطئي فأرجو صفحك بيد اني على استعداد للتفاهم معك وساضحي بشئ من جانبي .
إنني لست بحاجة إلى اكثر من ألف فرنك.ولقد يتبادر إلى ذهنك أنني مجنون حتي اطالبك بمبلغ لاتحمله الآن في جيبك , ولكني اذكرك بأنه يوجد هنا قلم وورق فاكتب ما أمليه عليك.
وأدرك مسيو لبلان ألا فائدة تُرجى من المقاومة , ولعله أراد أن يعرف أي حدّ ينوي الشقي أن يمضي في مكيدته فتناول القلم وشرع يكتب ,وتيناردييه يملى عليه»
« ابنتي العزيزة.
تعالي سريعاً فإنني في اشد الحاجة إليك , وسيُرشدك حامل هذه الرسالة إلى مكاني"
فوضوع مسيو لبلان القلم و سأل : لمن هذه الرسالة؟
فأجابه تيناردييه : أنت تعرف لمن هي .إنها لابنتك .أسرع ووقع عليها بإمضائك.
فهز لبلان راسه بهدوء وقال بصوت ثابت النبرات كلا.
فرمجر تيناردييه وضرب الأرض بقدمه ,وصاح بأحد رفاقه :
-أحم القضبان الحديدة يابيجول.
وصاح بآخر:
-وأنت يا مونبارناس,اكشف عن ساعده,ساعلّمه كيف يُطيع .
ولكن المدعو مونبارناس,ماكاد يقترب من مسيو لبلان وحتي دوّى في المكان طلق ناري ,وأمتلأت الغرفة بالدخان .فأفلتت من فم تيناردييه صرخة ذعر,وصاح : ماهذا؟ وفي اللحظة نفسها فُتح الباب ,ودخل المفتش جافير وهويقول بهدوئه المخيف:
-لاشئ .لاشئ .كونوا مطئنين.
ودخل في أثره سبعة من الشرطة,وحدثت في الغرفة ضجة سريعة ,انتهت على مايحب جافير.
قال المفتش لرجاله:ضعوا أيديهم في الاصفاد.
ثم سأل :أين السيد الذي أرادوا قتله؟
وكان مسيو لبلان قد انتهز فرصة الاضطراب الذي ساد الغرفة فوثب من النافذة وتوارى عن الأبصار.
قال جافير مرة أخرى كاين هذا السيد؟!
ولكنه لم يسمع جواباً.
ولم يستطع قد أن يعرف لماذا فرّ الرجل وقد قلق لذلك لأنه يعتقد أن المجني عليه يلوذ بالفرار هو أجدر بالشك من الجاني.



اعتاد جان فالجان أن يقوم من وقت إلى آخر برحلات غامضة فيغيب يومين أوثلاثة ويلزم الصمت بشأن هذه الرحلات ولايقدم عنها لكوزيت حساباً .

ولكن كوزيت لاحظت أنه لايقوم بهذه الرحلات إلا إذا نفذت نقوده .كما لاحظت أنه يعود دائماً وجيبه ملئ بالأوراق المالية، وقد أوصاها جان فالجان بأن تلزم المنزل في غيابه ,فلا تبرحه ابداً.

في مساء أحد الأيام كانت كوزيت جالسة في حديقة المنزل الصغير الذي استأجره جان فالجان, و الذي كان في وقت ما وكراً لعشيقة أحد الوزراء. وكان جان فالجان قد انطلق , في اليوم السابق , في إحدى رحلاته الغامضة فبقيت كوزيت وحدها . ثم استوحشت المنزل فخرجت إلى حديقته وجلست هناك على مقعد حجري وراحت تتأمل السماء والنجوم شأن جميع العاشقين. وفجأة .احست بذلك الشعور الخفي الذي يحس به الإنسان إذا تسلل وراءه شخص ,فنظرت خلفها ورأت الشاب الذي طالما ابصرته في حدائق لكسمبورغ وبادلها النظرات و البسمات.

نهضت واقفة . وترنحت في مكانها , وحدثتها فطرتها بالفرار .ثم حدثها قلبها بالبقاء, فتهالكت على المقعد, واطرقت رأسها.

وسمعته يتكلم بصوت لايرتفع عن حفيف أوراق الشجر.

كان يقول معذرة ! فما أردت أن أزعجك .ولكني لم أطق الحياة بعيداً عنك .فهل تعرفينني؟ هل تذكرين يوم تقابلنا للمرة الأولى ؟

كان ذلك في يوم 16 يونيو...وهو تاريخ لا انساه.ثم هل تذكرين اليوم الذي لم نتقابل بعد ؟ إنه يوم 2 يوليو.

ولكنى رايتك في هذه الحديقة منذ بضعة ايام , وهممت أن اثب من فوق السور كما وثبت الليلة ولكنى رايت خادمتك مقبلة وفأطلقت ساقي للريح. أفلا تسمحين لي بمقابلتك هنا في مستقبل الأيام؟ إنك لاتعلمين كم أحبك .

وتناول يدها ووضغطها على قلبه دون أن يعلم ماهو فاعل.

وتناولت يده بدورها ووضعتها على قلبها زفهتف :أتحبينني أذاً؟

فأجابت بصوت خافت لايكاد يرتفع على أنفاسها : صَهْ ! أنت تعلم أنني أحبك.

وأخفت وجهها في صدره , و ثمل الفتى بنشوة السعادة و الحب و الكبرياء , ولم يدرِ ,ولم تدرِ كيف تقابلت شفاههما . كانت قبلة أعقبها صمت طويل, كأنما فقدا حاسة النطق.

وهدات ثورة العاطفة بالتدريج , وتبادلا الحديث حتي تغلغل كل منهما في أعماق صاحبه ,وأخيراً سألته:ما أسمك؟

فأجاب : ماريوس . واسمك؟

-كوزيت.



في الليلة التالية وذهب ماريوس في الموعد نفسه, و المكان نفسه فوجدها في انتظاره ,ولكنها كانت حزينة,وقد احمرت جفونها من تاثير البكاء .فذعر وهاله أن يطفو الكدر فوق حلمه السعيد بمثل هذه السرعة.

هتف من قلب يتمزق حزناً :ماذا بك؟!

فأجابت :ساحدثك في صراحه . لقد طلب منى ابي أن استعد للرحيل.

ففتح ماريوس عينيه في دهشة وخانه النطق.

وأحست الفتاة بيد باردة كالثلج بين يديها فسألته بدورها :ماذا بك؟

اجاب :إنني لم أفهم ماتعنين.

قالت لقد عاد أبي اليوم ,وأمرني أن أعد امتعتي وأكون على استعداد لأننا سنبحر إلى الجلترأ في خلال اسبوع لشأن يهمّه ,فهتف الشاب :إلى إنجلتر؟! ولكن هذا مخيف. كان من القسوة في نظره ,وسوء استغلال السلطة أن يذهب مسيو فوشليفان -وهو الأسم الذي قالت كوزيت إنه اسم ابيها -بابنته إلى انجلترا لا لشئ إلا لأن له عملاً هناك.

سأل بصوت خافت:ومتى يكون الرحيل؟

-لم ذيكر لي موعده بالتحديد.

-ومتى ستعودان؟

-لم يحدثني في هذا الصدد.

فنهض ماريوس واقفاً وقال ببرود:وهل تذهبين معه؟

فضمت يديها فوق صدرها ,وأجابت بلهجة الياس والحزن:

-وماذا أستطيع أن أفعل؟

-إذاً فقد اعتزمت على الرحيل معه؟

فضغطت على يده ولم تُجب.

قال : في هذه الحالة يجب أن أرحل بدوري.

فحاولت الفتاة فهم هذه العبارة ولكنها أحست بالجزع ,وصاحت :ماذا تعنى؟

فأجاب ببطء: اصغى إلي يا كوزيت .إنني لم أحنث بقسمي قط, ولكن أقسم لك بشرفي الذي أحترمه أكثر من حياتي ,بأنك إذا رحلتي فإنني اورد نفسي موارد الهلكة.

قال ذلك بلهجة هادئة ورزينة جعات الفتاة ترجّف من قمة رأسها إلى أخمس قدميها.

ثم قال : لاتنتظريني غداً ياكوزيت.

-و لماذا؟

-انتظريني بعد غد.

-لماذا ؟ لماذا ؟

-سوف ترين.

-أتسمح بأن ينقضي يوم دون أن أراك؟

فتناول يدها بين يديه , وحدّقت في عينيه لترى ماذا فعلت كلماتها.

قال :وبهذه المناسبة يجب أن تعرفي عنواني على سبيل الحيطة,فقد تركت منزلي القديم وإني افيم الآن مع صديق لي يدعى "كورفيراك" في المنزل رقم 16 بشارع لافيراري.

وبحث في جيوبه ,واخرج مطواة ,واستخدم نصلها في حفر هذا العنوان على المعقد الحجري.

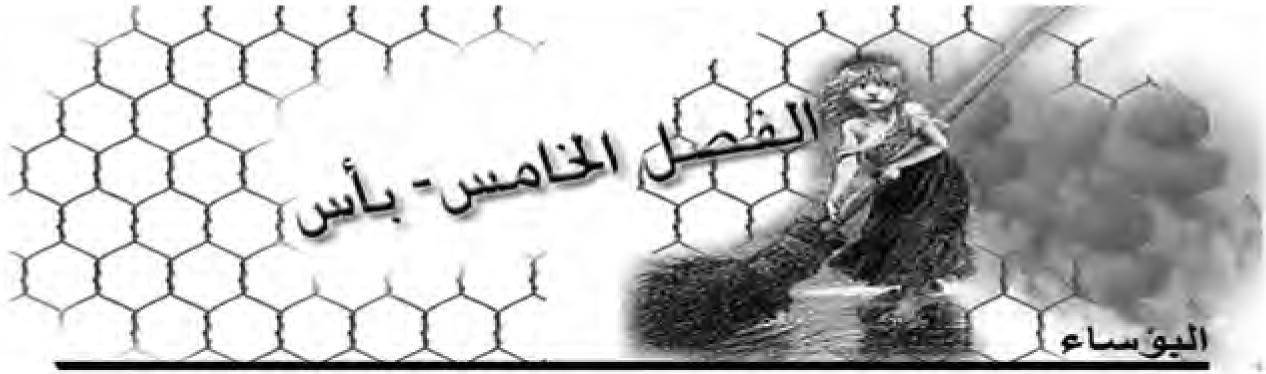
فقالت وقد اشتد جزعها وقلقها:لماذا لاتصارحني حتى بما يدور بخلدك ياماريوس؟

فأجاب بحماسة :إليك ما أفكر فيه . من المستحيل أن يرضى الله بفراقنا, و ستعلمين المزيد متى تقابلنا بعد غد.
-وكيف أقضي يوم غد؟ إنك حر طليق ,تروح وتغدو وترفه عن نفسك كما تشاء ,أما أنا فسأقضي النهار وحدية حزينة .
فما اسعد الرجال ,وما اشقى النساء! ولكن حدثني ماذا تنوي أن تفعل غداً ؟
فأجاب :سأقوم بمحاولة .
- في هذه الحالة سأبتهل إلى الله أن تثمر محاولتك,ولكن لا تنس أنني سأكون في انتظارك هنا بعد غد ,في مثل هذه الساعة. وتعانقا ...و افترقا.

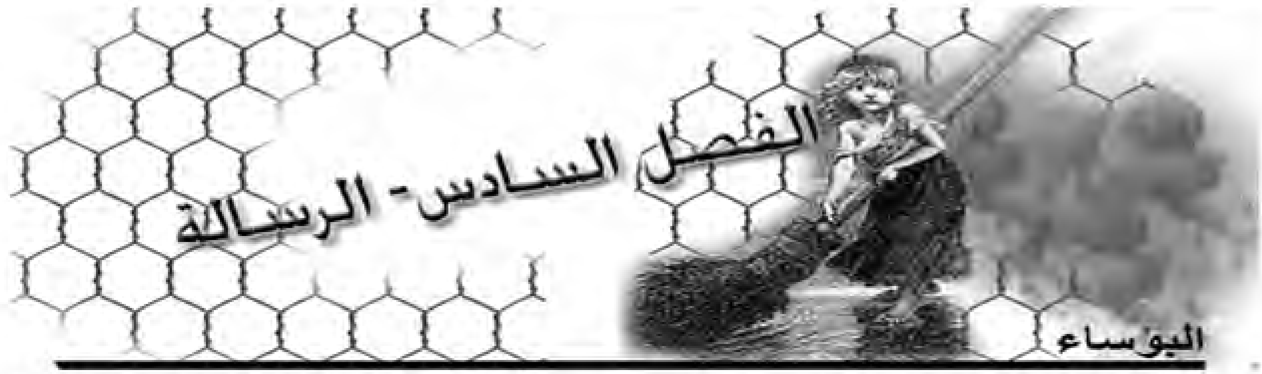
كانت لماريوس قصة..فهو لم يخلق ليكون جاراص لرجل مثل تيناردييه.
كان ماريوس حفيد شيخ واسع الثراء يدعى "جيلنورمان"
وكانت لجيلنورمان ابنتان ظلت إحداهما عانساً ,واقترنت الأخرى برجل يدعي "بونمرسي" وتوفيت بعد أن وضعت ماريوس .
وعاش ماريوس في كنف جده ,ونعم بثروته ومجده.
وفرقت المبادئ السياسية بين جيلنورمان و بونمرسي فالأول عريق في نصرة الملكة ,والثاني من جنود نابليون الذين تذوقوا معه لذة الانتصار ,ومرارة الهزيمة,وأبلوا معه في جميع المعارك أحسن البلاء. وكان بونمرسي يضن بأواصر القرابة ويخشى أن تعصف بها أعصاير السياسة , ولكن جيلنورمان كان شيخاً عنيداً يعتبر الخصومه السياسية ضرباً من الخصومة الشخصية ,واشتد حنقة على زوج ابنته حين أنعم عليه الامبراطور بلقب بارون ,واستحال الحنق إلى كراهة حين توفيت ابنته. ولكنه تعهد ماريوس بالعناية وحرص على أن يمحو من ذهنه صورة أبيه.
وكبر ماريوس وترعرع ,والصلة بينه وبين جده كأفضل ماتكون الصلات بين الأجداد والأحفاد .
وتوفي بونمرسي بعيداً عن ولده ,وتحدث أحد الخدم إلى ماريوس بقصة الخلاف الذي شجر بين جده وأبيه ,وعرف الفتى المزيد من قصة أبيه فأكبره,وأحل ذكراه محلاً مقدساً.
وفي أحد الأيام عثر جيلنورمان الشيخ في غرفة صغيرة على بطاقة باسمه كتب فيها:
"البارون ماريوس دي بونمرسي"
وكان قد كتم عنه هذا اللقب الذي أنعم به نابليون على أبيه .
فثارت ثائرته ودعا إليه ماريوس وصاح وهو يلوح بالبطاقة:مامعني هذا ياسيدي؟
فأحمر و جه ماريوس وأجاب :معناه ...أنني ابن أبي.
فضحك الشيخ ,وقال بصوت خشن :إنني ابوك.
فقال ماريوس دون أن يرفع عينيه إلى وجه جده.
-لقد كان أبي فقيراً ولكنه...ولكنه كان شجاعاً وقد أراق دمه في سبيل الجمهورية الفرنسية ومات منسياً,ولم يرتكب في حياته إلا جريمة واحدة,هي أنه أحب شيئين جاحدين ,هما وطنه و ابنه.
وكان ذكر اكثر مايطيق الشيخ سماعةو فصاح:
-ماريوس .إنني لا أعرف من كان ابوك ,ولا أريد أن أعرفه ,وبحسبك أن تعلم أن الذين خدموا روبسبيير كانوا لصوصاً ,والذين خدموا نابليون كانوا قطاع طرق .جميعهم مجرمون خونة لأنهم تنكروا لمليكهم الشرعي .وجميعهم جبناء لأنهم فرّوا أمام النمساويين في عهد روبسبيير ,وأمام الإنجليز في واترلو.
هذا كل ما أعلمه .وإذا كان أبوك قد شاترك مع هؤلاء الخونة الجبناء فذلك ما أجهله وما لاسف له.
وكان الفتى يرجّف حنقاً وغضباً ,فقد أُهين أبوه على مسمع منه. ومن ذا الذي أهانه؟جده.
ولم يدر كيف يمحو هذه الإهانة ,ولا كيف يعاقب المهين .ووجد نفسه واقفاً ة القبر المقدس عن يمينه ,والشعر الأبيض عن يساره.فترنح كالثمل ثم نظر إلى جده بحدة وصاح:
-ليسقط آل بوربون !ليسقط لويس الثامن عشر.
وكان لويس الثامن عشر قد توفي منذ أربعة أعوام ,ولكن ذلك لم يرقّه من غضب الشيخ الذي أحمر وجهه في الحال,ثم مشى إلى الباب ببطء حتى إذا بلغه تحول إلى حفيده وقال في هدوء:
-إن باروناص مثلك وصعلوكاً مثلي لايستطيعان البقاء تحت سقف واحد.
وهكذا ترك ماريوس بيت جده.

وفي اليوم التالى قال جيلنورمان لابنته:
-أرسلي إلى هذا الثائر ستين جنيهاً كل ستة اشهر وحذار أن تذكري اسمه على مسمع مني.
ولكن ماريوس رد المبلغ الذي أرسل إليه وقنع بالمرتب الضئيل الذي كان يتقاضاه من أحد المحامين.
وانقضت بضعة اشهر لم يسمع الشيخ في خلالها كلمة واحده عن حفيده, رغم حنانه عليه وشوقه, إلى أن كانت إحدى الأمسيات أذ دخل عليه خادمه وقال :
-هل يسمح سيدي بمقابلة مسيو ماريوس؟
فاعتدل الشيخ في جلسته,ومرت في جسده وفي نفسه هزة عنيفة .هتف:
-من هو ماريوس هذا؟
-لا أعلم قالت لي الخادمة إن مسيو ماريوس يرجو مقابلتك.
فأجاب الشيخ بصوت خافت :دعه يدخل.
ووقف ماريوس بالباب ,كأنه ينتظر أن يدعوّه جده إلى الدخول ولم ير الشيخ ثوبه الرث فقط ورأى وجهه الشاحب الحزين , وشعر برغبة شديدة أن يبسط له ساعديه,ويضمه إلى صدره.
كان قلبه يذوب حناناً ,ولكنه لما تكلم انبعث صوته قاسياً.
قال:ماذا جئت تفعل هنا؟ هل جئت تطلب صفحي,ومغفرتي؟
هل أدركت خطأك؟
فضم ماريوس يديه فوق صدره,وقال بصوت خافت مرتجف:
-رحمة بي ياسيدي!
-تكلم! ماذا تريد مني؟
-أنا أعلم ,ياسيدي ,أن وجودي هنا يزعجك ,ولكني جئت أطلب أمراً واحداً,ثم أنصرف.
فقال الشيخ :أنك أحمق .من ذا الذي طلب إليك أن تنصرف؟
ثم عقد ساعديه فوق صدره بكبرياء,وقال:
-لنضع حداً لهذا الحديث ياسيدي.قلت إنك جئت في طلب شئ .فماهو؟
فقال ماريوس ,و في عينيه النظرة التي تتراءى في عين المشرفة على هوة سحيقة.
-سيدي ,إنني جئت أطلب موافقتك على زواجي.
فدق جيلنورمان الجرس, فأقبل الخادم فقال له :أدْعُ ابنتي.
ولزم الصمت إلى أن جاءت الآنسه جيلنورمان فقال لها ساخراً:
-لقد دعوتك لكي أقول إن هذاالسيد يريد أن يتزوج.والآن اذهبي.
وكان صوته ينم عنالغضب الهائل الذي يعصف في صدره, فنظرت ابنته إلى ماريوس من قمة راسه إلى أخمص قدميه , وانصرفت دون أن تنطق بكلمة.
وأخذ الشيخ يمشي في الغرفة جيئة و ذهاباً , ثم ادار ظهره إلى حفيده,وقال وهو يسند مرفقيه على حافة الموقد:
-تريد أن تتزوج وأنت في الحادية و العشرينط ولا ينقصك إلا أن تخبرني بذلك على سبيلالعلم بالشئ, تفضل بالجلوس ياسيدي. ثم أردف قبل أن يتمكن ماريوس من الكلام أو الجلوس:
-هل لك مهنة ياسيدي ؟ هل تملك ثروة؟ كم تربح الآن من عملك ؟ فأجاب ماريوس بحدة: لاشئ يذكر.
-في هذه الحالة لابد أن تكون الخطيبة العزيزة واسعة الثروة.
-إنها مثلي ,لاتملك شيئاً.
-مثلك ؟ لاتملك شيئاً و ليست لها بائنة؟
-نعم وما اسمها؟
- اسمها مدموازيل فوشليفان.
فقال الشيخ بلهجة من يتحدث إلى نفسه:
-عمره إحدى و عشرون سنه ولا عمل له,ولا ثروة,وزوجته البارونه مونمارسي لاتملك قوت يومها .هذا بديع!
وشعر ماريوس بيخر آماله ينهارو فصاح :سيدي ! إنني ضرع إليك وأرتمي تحت قدميك متوسلاً أن تسمح لي بالاقتران بها.

فانفجر الشيخ ضاحكاً ,وقال:
-آه...أكبر الظن أنك قلت لنفسك : "إنني الآن دون الخامسة و العشرين من عمري,ولاحق لي في الزواج بغير إذن وليّ أمري , فلأذهب إلى هذا الشيخ ناقص العقل لأقول له : ايها الشيخ ! إنك تكاد تطير فرحاً برؤيتي ,لذلك يجب أن تسمح لي بالاقتران بالآنسة كذا,فإنها جديرة بي ,وأنا على استعداد لأن ألقي في النهر بشبابي و مستقبلي وحياتي,مادامت تحبني, ذلك هو ما حزمت أمري عليه, فيجب أن توافق ,فيبتسم الشيخ ناقص العقل,ويوافق".
-أبي!
-أبداً.
وبهذه الكلمات تبددت آمال ماريوس وفأطرق راسه ,ومشي إلى الباب مترنحاً ترنح المحتضر ولكنه ماكاد يفتح الباب حتى لحق به الشيخ ,وأمسك بخناقه,واجتذبه معه ,والقي به في أحد المقاعد وجلس أمامه وهو يقول :حدثني بكل شئ.
كان الفضل في هذا الانقلاب الذي طرأ على الشيخ لكلمة "أبي" التي افلتت من بين شفتي ماريوس:
قال الشيخ مرة أخرى:
-تكلم وحدثني بقصة غرامك .يا إلهى ,ما أشد غباوة الشباب ! فرد ماريوس:
أبي.
واضاء وجه الشيخ.وغمغم :نعم.نعم.نعم. أدعُني أباك.
وانبسطت اساريره بعد عبوس ,وسالت عيناه حناناً بعد قسوة.
قال وهو ينظر إلى حفيده في دهشة:
-أحقاً أنك لاتملك ملاً ؟ إنك ترتدي ثياباً كثياب اللصوص .إليك مائة جنيه لتبتاع قبعة جديدة.
-ما أطيب قلبك يا أبي ! لو تعلم فقط كم أحبها ! إنني رأيتها للمرة الأولى في حدائق لكسمبورغ فلم ألق إليها بالاً في أول الأمر ثم غرقت في حبها إلى أذني دون أن اشعر ,وقابلتها مرتين في حديقة بيتها تحت جنح الظلام دون أن يعلم ابوها. فتصوّر هذا يا أبي ! ولكن
أباها يريد الآن أن يرحل إلى انجلترا .فقلت لنفسي "لأذهب إلى أبي و أحدثه بكل شئ". و لابد أن أقترن بها وإلا اصاب بالجنون. واصغى الشيخ إلى حديث حفيده . حتى إذا فرغ من كلامه , نظر غليه في رفق وقال: اصغ ياولدي , إن الإنسان يستطيع ان يستمتع بالحب دون أن يقتل نفسه بالزواج. فهل فهمتني؟!
فهز ماريوس رأسه سلباً وصاح الشيخ :ايها البله .لماذا لا تتخذها عشيقة؟
فامتقع وجه ماريوس ,ونهض واقفاص,وتناول قبعته,ومضى إلى الباب بخطوات ثابته,وهناك تحول إلى جده,وأحنى قامته باحترام, وقال:
-إنك منذ بضعة اشهر أهنت أبي ,و اليوم أهنت زوجتي.فليس عندي ما أقوله لك ياسيدي ,وداعاً !
فجمد الشيخ في مكانه و فتح فمه ليتكلم وحاول أن ينهض .
وقبل أن يفعل شيئاً من ذلك ,كان ماريوس قد أغلق الباب وراءه ومضى في سبيله.
وقصد مسيو جيلنومان إلى الباب باقصى سرعة شيخ في التسعين من عمره وفتحه ووصاح : النجدة ! النجدة !
ولما اسرعت إليه ابنته قال لهاا بصوت متحشرج:
-اسرعي في اثره,أمسكي به إنني اهنته , فجن جنونه,ومن المؤكد أنه لن يعود بعد هذه المرة.
واطل من النافذة ,وجعل يلوّح بيديه المرتجفتين وويصيح:
-ماريوس .ماريوس .ماريوس .
ولكن الفتى كان قد غاب عن الأبصار.



هبط جان فالجان حديقة المنزل ووراح ينتقل بين أشجارها,وهو مستغرق في التفكير.
كان الحادث الذي وقع له اخيراً مع تيناردييه ق ازعجه,و أزعجه أن يمر جافير بحياته مرة اخرى,وعلى الرغم من أنه كان واثقاً من أن جافير لم يلمحه في بيت جوندريت المزعوم فإنه لم يشعر بالطمانينة, واشتد قلقه حين احس بأن الجو السياسي اصبح مشحوناً بالكهرباء,وسمع في الطرقات وفي كل مكان ذهب إليه همساً عن ثورة تدبر لإسقاط الحكومه وإعلان الجمهورية. ولهذا كله .قرر أن يبرح فرنسا إلى انجلترا,وطلب إلى كوزيت ان تستعد لهذه الرحلة.
بيد أنه كان مهموماً دائم التفكير في العقبات التي تحول دون حصوله على جواز للسفر وتعب من السير بين الأشجار وهمّ بالجلوس على القعد الحجرى ,وعندئذ وقع بصره على هذه الكلمات "(رقم16 شارع لافيراري) محفورة على المقعد بخط يختلف عن خط كوزيت. قطب حاجيبه,وزاد قلقه. هذه الكلمات لم تكتب هناك في اليوم السابق ,وإذا فلا بد أنها حفرت على المقعد الحجري اثناء الليل و وذلك دليل على أن شخصاً أو اشخاصاً اجتازوا سور الحديقة في ظلام الليل.
ثم هذه الكلمات , مامعناها؟!
أما ماريوس فإنه خرج من بيت جده في حالة يرثي لها . ذهب إلى البيت بأمل ضعيف و انصرف منه بياس عظيم وقضى النهار كله هائماً على وجهه في انتظار الموعد المتفق عليه مع كوزيت.
ووصل إلى سمعه ,وهو يسير على غير هدى وضجيج عظيم منبعث من انحاء المدينة ,وحمل النسيم إلى أذنيه صياح الغوغاء و الطلقات النارية وفسأل نفسه:
مامعني هذا؟ هل ثمة معركة؟
وصادفه في الطريق صديقة "كورفيراك",الذي يشاطره غرفته,وكان يعدو ويلهث وفسأله إلى أين أنت ذاهب؟
فأجابه كورفيراك و على شفتيه ابتسامه ذات مغزى:
-أنا ذاهب لإسقاط الحكومة .هذا وقت النظال في سبيل الحرية و الإخاء و المساواة.أتضن بدمك على هذه المبادئ الثلاثة يجب ان يتألف منها الدستور الإنساني؟
فصاح ماريوس وقد لمعت عيناه :
-على مذبح هذا الدستور جاد ابي بدمه ,فحدثني إلى اين أنت ذاهب ؟
-إلى المتاريس في شارع انطوان.
ومضي كورفيراك في سبيله.
وشعر ماريوس بالقلق وعدم الاستقرار .وودّ لو يغمض عينيه فيرى النهار قد انصرم و الليل قد أقبل فيخفف إلى مقابلة كوزيت وينعى إليها امله في الحياة و السعاده في الحب ,ويودعها الوداع الاخير.
ولكن شاءت الأقدار ألا ينعم بهذه السعادة المريرة ووسعادة توديعها ,وضمها إلى صدره للمرة الأخيرة.فإنه لما ذهب إلي بيت كوزيت بعد ساعات طويله مرت كانها دهر ,ورأى الباب مفتوحاً,والمنزل يسبح في الظلام الدامس ,ولا اثر فيه أو في الحديقة لإنسان . هتف من قلب يتمزق حزناً ,ويأساً: كوزيت ,كوزيت. ولكنه لم يسمع جواباً.
وبعد دقائق كان يعدو كالمعتوه في الطريق إلى شارع سان أنطوان حيث اقام الثائرون المتاريس ,وتأهبوا لمقاومة رجال الحرس الوطني.



أما ما حدث ,فهو أن جان فالجان ماكاد يقرأ ذلك العنوان على المقعد الحجري في حديقة المنزل حتي ملكته الوساوس والهواجس ,وشعر شعوراً غامضاً بانه لك يعد في مامن.

وراح يقلب وجود الرأي ,وانتهى من تفكيره إلي وجوب الانتقال من ذلك المنزل في الحال.

وما إن اختمرت لديه هذه الفكره حتي انصرف من المنزل.وعاد إليه بعد ساعة وقال لكوزيت إن لديه من الاسباب مايحتم انتقالهما في الحال إلى المنزل رقم 7 بشارع "لوم آرميه".

وبهتت كوزيت و فكرت في موعدها مع ماريوس ,وحاولت أن تثني جان فالجان عن عزمه, أو ترجئ الانتقال إلى اليوم التالي على الأقل. ولأول مرة في تاريخ سعادتهما المزدوجه تعارضت إرادة كوزيت مع إرادة جان فالجان,ولم يسع الفتاة في النهاية إلا الإذعان . واجتمع الاثنان في المساء حول مائدة الطعام , فلم تأكل كوزيت إلا القليل واعتذرت بصداع ,وانطلقت إلى غرفتها ,وبقي جان فالجان وحيداً. كان مطمئناً ,ناعم البال فقد زالت مخاوفه وشكوكه ,ولم يزعجه "صداع" كوزيت", وأدرك انها غضبة سوف تهدأ قبل بزوغ شمس اليوم التالي.

وبينما هو يسير في إحدى الغرف متفقداً , إذا بعينيه تستقران على شئ غريب.قرا بوضوح وجلاء هذه الكلمات منعكسه على مرأة في الجدار :

"مسيو ماريوس بونمرسي , بمنزل مسيو كورفيراك, رقم 16 شارع لافيراري,

"يؤسفني أن انهي أليك نبأ إصرار أبي على الرحيل من البيت في الحال ,وستكون الليلة بالمنزل رقم 7 بشارع "لوم آرميه" وبعد اسبوع نرحل إلى لندن".كوزيت.

جمد جان فالجان في مكانه.كانت هذه الكلمات منعكسة على المرآة من ورقة نشاف نسيتها كوزيت على مائدة أمام المرآة.واقترب جان فالجان من المرآة و قرأ الرسالة مرة أخرى ,ولم يصدق عينيه. وتناول و رقة النشاف و قلبها بين يديه ,ثم ترنحّ ,وسقطت الورقة من يديه وسقط جسمه على أحد المقاعد. لم يخطر بباله أن كوزيت يمكن أن تغيب من حياته في أحد الأيام إلا إذا أمكن أن يغيب النور من الدنيا. كانت تلك هي المحنة العظمى.وهل من محنة أعظم من أن يفقد في لحظة واحدة كل مايحب في هذه الحياة؟ووجد جان فالجان نفسه بباب المنزل دون أن يشعر . كان عاري الراس مشعث الرأس وشاحب اللون ,وفي عينيه نظرة ذاهلة شاردة.وجلس دون أن يشعر , على مقعد خشبي بجانب الباب.

وكان الظلام حالكاً والشارع مقفراً إلا من بعض السابلة و هم يهرولون إلى بيوتهم ,وطلقات البنادق تدوي من بعيد, ويحمل النسيم دويها إلى آذانهم. ولكن جان فالجان لم يَرَ ولم يسمع شيئاً ,و انقضت ساعة أو بعض ساعة وهو قابع في مكانه كتمثال من رخام لايتنفس ولا يتحرك.

واشتد دوى الرصاص فجأة وفرفع جان فالجان رأسه ,ونظر حوله كأنه يبحث عن مصدر الدوىّ,وعندئذ وقع بصره على غلام من غلمان الأزقة وهو يروح ويجئ أمام المنزل وينعم النظر ببابه كأنه يبحث عن شئ .

فخرج جان فالجان عن ذهوله ,وسأل الغلام في رفق:ماذا بك يابني؟

فأجاب الغلام : ليس بي من شئ. هل أنت من أهل هذا الشارع؟

-نعم,لماذا ؟

-هل تعرف أين يوجد المنزل رقم 7 ؟

-و ما شأنك و المنزل رقم 7 ؟

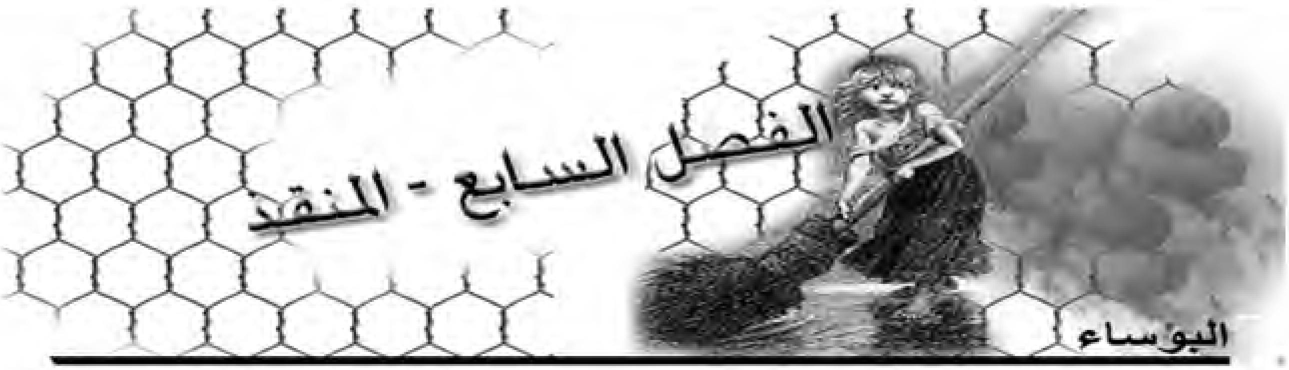
فهّم الغلام بالكلام , ثم تردد وصمت.

وبدا لجان فالجان خاطر فسأل :هل جئت بالرسالة التي أنتظرها؟

-التي تنتظرها أنت ؟ إن الرسالة لامرأة.

-إنها للأنسة كوزيت.أليس كذلك؟

-كوزيت ؟ نعم . أظن أن هذا اسمها .
فقال جان فالجان:إذاً فاعطني الرسالة.
-مادمت تعرف بأمر هذه الرسالة,فيجب أن تعلم كذلك أنني قادم بها من المتاريس.
-طبعاً,أعلم ذلك.
فدسّ الغلام يده في جيبه .وأخرج ورقة مطوية دفع بها إلى جان فالجان وهو يقول:
-يخيل إلى أنك رجل أمين ,وأنك ستوصل الرسالة إلى صاحبتها. وتركه ومضى.
ودخل جان فالجان المنزل ,وبسط الورقة بين اصابعه,ولم ير من محتوياتها غير هذه العبارة:
"...إنني أموت...وعندما تقرأين هذه الرسالة تكون روحي بمقربة منك".
قرأ هذه العبارة ,واستولى عليه ذهول مخيف,وكأنما هدته الانفعالات الهائلة التي عصفت في اعماقه.
نظر إلى رسالة ماريوس بشئ من الارتياح ,كأنه يرى فيها مصرع هذا الإنسان البغيض,وأحس بأن حملاً ثقيلاً قد ارتفع فجأة عن صدره. نعم, قد زال غريمه,واتصلت سعادة مستقبله بسعادة ماضيه و لن يقف بينه و بين كوزيت منافس بعد الآن.ليس عليه إلا أن يطوي الورقة ويخفيها في جيبه فلا تعلم كوزيت إلى الأبد بما صار إليه أمر ذلك الشاب.
بمثل هذا كان يتحدث إلى نفسه ,وهو مطرق رأسه ,وقلبه مفعم بالسى.
وبعد ساعة شوهد وهو يغادر المنزل في ثوب جندي من جنود الحرس الوطني جاءه به البّواب.
رابط الثوار في شارع سان أنطوان ,وأقاموا فيه متاريس عظيمة من الأخشاب والأحجار وأكياس الرمل ,واتخذوا من إحدى الحانات مركزاً للقيادة ,تأهبوا لمقابلة جنود الحرس الوطني.
وقد وصل ماريوس . في الوقت المناسب , حين كان الثوار ينظمون صفوفهم ,ويضعون خطط الهجوم و الدفاع.
ولم يكن جنود الحكومة قد وصلوا بعد لإجلاء الثوار عن معقلهم فلم يجد ماريوس صعوبه في الوصول إلى المتاريس , والانضمام إلى صديقه كورفيراك. ولفت نظره وهو يسير بيا أكياس الرمل رجل طويل القامه متين البناء,يشتغل بنشاط في غقامة الحواجز ووخُيل إليه أنه يعرف هذا الرجل ثم اسعفته ذاكرته فأمسك بساعد كورفيراك وسأله :
هل تعرف هذا الرجل؟
واشار إليه , فأجاب كورفيراك :كلا!
-إنه جاسوس .إنه من رجال الشرطة.
-إنني عرفته منذ بضعة أيام.
فأسرع كورفيراك إلى صديقه "أنجولراس" الذي أشرف على إقامة المتاريس,وتولى الدفاع عنها,ولعب دوراً خطيراً في تلك الثورة الدامية,فهمس في أذنه كلاماً .فدعا أنجولراس ثلاثة من رجاله الأشداء ,وقصد بهم إلى حيث كان الرجل الذي أومأ إليه ماريوس ,وسأله:من أنت يا هذا ؟
ولاشك في أن الرجل لم يكن يتوقع هذا السؤال لأنه رفع رأسه بحدة و حملق في عيني أنجولراس وعلى شفتيه ابتسامة سخرية واحتقار ثم قال :لقد عرفت مايدور بخلدك.
-هل أنت جاسوس؟
-إنني من رجال الحكومة.
-و اسمك؟
-جافير.
فأشار أنجولراس إلى أعوانه فانقضواعلى جافير وطرحوه أرضاً وشدوا وثاقه ثم فتشوه ,ووجدوا في جيبوبه بطاقة بأسمه , وبعض النقود ,ورسالة بخط مدر الشرطة تتضمن هذه العبارات:
«على المفتش جافير بعد الفراغ من مهمته السياسية أن يراقب ضفة "السين" اليمنى بالقرب من قنطرة "يينا" حيث يلجأ المجرم "تيناردييه" الذي تمكن من الفرار أثناء نثله إلى السجن"
وأمر أنجولراس بنقل المفتش جافير إلى الحانة.



كانت المعركة التي وقعت بين الثوار ورجال الحرس الوطني في شارع سان أنطوان ,والشوارع المحيطة به من المجازر الدموية الخالدة في تاريخ الثورة الثانية ونحن لا يهمنا من أمر هذه المعركة إلا مايتصل بابطال هذه القصة. فنقول إن جنود الحرس استطاعة بعد معركة عنيفه شغلتهم الليل كله,واستخدموا فيها السيوف و البنادق و المدافع ,أن يبيدوا الثوار ويهدموا حصونهم ومتاريسهم .فلما بزغت الشمس لم يكن قد بقي على قيد الحياة من زعماء الثورة غير تسعة اشخاص ,اعتصموا بالحانة ونشطوا للدفاع عنها.

ثم ضيق الجنود الحصار على الحانة وتأهبوا لنسفها وفجمع أنجولراس أعوانه لاستطلاع رأيهم فإما الجلاء وإما الدفاع إلى النهاية ,والموت تحت انقاض الحانة. وانتهى الراي إلى أن الجلاء أولى بهم,وأجدى على قضية الثورة ,وتم الاتفاق على أن تكون الأسبقية في الجلاء لصحاب العائلات ,على أن يبقي الآخرون لمناوشة الجنود ومنعهم من الهجوم

وكان بينهم خمسة من أرباب العائلات و لديهم أربعة ثياب رسمية غنموها من رجال الحرس الوطنى الذين وقعوا في اسرهم ,وكانت هذه الثياب هي عدتهم للفرار ,والخروج من نطاق الجنود .فصار من الضروري أن يبقي مع المدافعين عن الحانة واحداً من أرباب العائلات.

و البقاء في الحانة معناه الهلاك .فأي الخمسة يجب أن يبقى؟

صاح كل من الرجال الخمسة: أنا أبقى.

وصاحوا جميعاً: ليحى الموت .

قال انجولراس:ايها الخوان ,إن الجمهورية ليست غنية بالرجال و التصحية بلا سبب جريمة,ومتى كانت للإنسان اسرة عولها فليس من حقه أن يضحي بنفسه .أتريدون أن تموتوا؟ هذا حسن.موتوا أذاً وليتضور أطفالكم جوعاً غداً إن المسألة مسألة امهات ورزوجات وبنات , فالرجل إذا جاع استجدى ,أما المرأة فإنها إذا جاعت باعت.

فصمت الرجال الخمسة وأطرقوا رؤوسهم .

قال انجولراس محدثاً ماريوس:

اختر من هؤلاء الأبطال واحداً يبقى معنا, و لنصرف الآخرون.

فوقف ماريوس حائراً

وفجأة,هبط من السماء ثوب من ثياب الحرس الوطنى,وبذلك نجا الرجل الخامس.

وكان جان فالجان قد تمكن من اختراق الحصار و الوصول إلى المتاريس بفضل الثوب ,وقد قضى الليل كله في جحيم المعركة ولكنه لم يشترك في القتال,وقنع بنقب القتلى,ومساعدة الجرحى.

سأل انجولراس:من هو هذا الرجل ؟

وهمس ماريوس :إنني أعرفه.

وكتن في ذلك مايكفي وفالتفت أنجولراس إلى جان فالجان وقال:

-إنني أرحب بك ايها المواطن.

ثم استطرد:ولكن هل تعلم أنك تبرعت بالدرع الذي يقيك شر الموت؟ فصمت جان فالجان.

وارتدى الرجال الخمسة ثياب الحرس ووصاح أنجولراس:

-والآن .إلى العمل! سنطلق الرصاص من النوافذ ونلفت أنظار الأعداء إلينا ريثما ينصرف زملاؤنا الخمسة, ثم نتراجع في اثرهم الواحد بعد الآخر. وقصد الرجال الخمسة إلى الباب ,والدموع تترقرق في عيونهم.

و التفت أنجولراس إلى جافير ,وكان مايزال موثق اليدين و القدمين ,وقال له:

-لا اظن أنني نسيتك.

ووضع غدّارة على إحدى الموائد وقال:يجب على آخر رجل يبقى على قيد الحياة أن يُلهب رأس هذا الجاسوس بهذه الغارة.
فسأل سائل :أيقتل هنا؟
فأجاب أنجولراس :كلا .إن دمه يلوث جثث ضحايانا . فليقتل على سلم الحانة أو في الخارج .
وهنا اقترب جان فالجان من أنجولراس وسأله:
-هل أنت القائد هنا؟
-نعم.
-هل تظن أنني فعلت شيئاً يستحق المكافأة؟
-لاشك في ذلك .
-إذا فإنني أطلب مكافاتي.
-وماتطلب؟
-أريد أن ألهب رأس هذا الجاسوس بنفسي
فرفع جافير رأسه ,ورأى جان فالجان ,ودهش ولكنه غمغم:
هذا هو الإنصاف.
ونظر أنجولراس إلى أعوانه وسأل : هل من يعترض؟
ثم تحول إلى جان فالجان وقال: خذه! إنه لك!.
فتناول جان فالجان الغدارة.
وفي هذه اللحظة دوّى في الخارج صوت برق ,أعقبه انطلاق مئات العيارات النارية فتفرق الثوار في سائر قاعات الحانة, وتأهبوا للدفاع .وما كاد جان فالجان ينفرد بجافير حتى حلّ وثاق قدميه ,وأمره أن ينهض ,ثم أمسك بعنقه وقاده كما يقود الحيوان للذبح. وكان ماريوس يطل من إحدى النوافذ,فرأى جافير وجلاده يخرجان من الباب الخلفي الصغير,ويغيبان في الظلام. ومر جان فالجان واسيره بين أكياس الرمل وأكوام الجثث,حتى وصلا إلى زقاق مظلم قريب من منطقة القتال,فوقف جان فالجان .وحدج جافير بعينين تتألقان في الظلام كأنهما شعلتنان.
قال الشرطي :انتقم لنفسك.
فدس جان فالجان يده في جيبه,واخرج سكيناً.
قال جافير :أحسنت !فذلك اشفى لِغِلّك.
وقطع جان فالجان وثاق جافير.وقال له في هدوء :اذهب فأنت حر.
فجمد جافير في مكانه,وحبس أنفاسه دهشة وذهولاً.
واستطرد جان فالجان: لاأعتقد إنني ساخرج من هذا المكان على قيد الحياة.ولكن غذا حدث وخرجت ,فإنك تستطيع أن تجدني في المنزل رقم 7 شارع "لوم آرميه"
فزمجر جافير,وهو يعض على نواجذه:
-كن على حذر!
-اذهب.
-قلت إنك تقيم بشارع "لوم آرميه"؟
-نعم بالمنزل رقم 7.
فردد جافير بصوت خافت : رقم7, رقم 7.
وأصلح ثوبه,وعقد ساعديه ,فوق صدره ومشى مرفوع الراس. بيد أنه ماكاد يبتعد بضع خطوات,حتى دار على عقيبه وقال:
-إنك تزعجني.كنت اؤثر أن تقتلني.
-اذهب .
فاستأنف جافير سيره ببطء ,ومالبث أن توارى في الظلام.
وفي هذه الأثناء ,كانت المعركة على اشدّها بين الجنود و بقايا الثوار .فقتل أنجولراس ,كورفيراك,ولماعاد جان فالجان إلى الحانه ,وجد ماريوس ممداً على الأرض وقد اصيب برصاصة في عنقة ,وفقد الرشد.

قلنا إن جان فالجان لم يشترك في القتال,وإن يكن قد استهدف مراراً للموت ,ويقول الذين أبصروه إنه لم يحول بصره قط عن ماريوس .فلما سقط الفتى .اختطفه جان فالجان اختطافاً,وانطلق به من الباب الخلفي للحانة في اللحظة نفسها التي كان فيها الجنود يقتحمون الباب الأمامي.
وأسرع جان فالجان الخطى في شارع كورنيت ولكنه ماكاد يتوسط هذا الشارع ,حتى سمع خطوات الجنود الذين أحاطوا بذلك الحى كله منذ بدء القتال وشرعوا الآن في تضيق الحصار لإبادة الثائرين.
واقترب الجنود من كل صوب ,فتراجع جان فالجان بضع خطوات ,وأرهقه حمله وفوضع جسم الفتى على الأرض ,وراح يفكر بسرعة للخلاص من مأزقه.كان الموقف شديد الحرج ,فالتقدم مستحيل ,و التقهقر انتحار, فماذا يصنع؟
وحانت منه التفاته فرأى كومة من الأحجار أعدها الثوار ليعتصموا بها وقد حجبت هذه الكومة جزءا من فوقة سرادب للمجارى,فأقبل على الأحجار ,وراح يرفعها بسرعه البرق وقوة العمالقه وقد نشطت فيه مواهب السجين الذي عرف كل وسائل الفرار وتذوق حلو المغامرات ومرها.
ثم حمل جثة ماريوس وهبط بها من الفوهة ووجد نفسه في ظلام السرداب وأوحالها .
تريث وهو يلهث ,وانتظر حتي الفت عيناه الظلام ,ثم واصل السير ببطء وحذر ,مسترشداً بانحدار السراديب آملاً أن ينتهي إلى النهر حيث المجاري. وجد نفسه وسط شبكة من السراديب و الأزقة الأرضية لا أول لها ولاآخر ,ليس ثمة صوت يهتدي به,أو ضوء يرشده.وطالت رحلته ,وأنهكه التعذيب ,واستولت عليه الوساوس والأوهام.
ترى هل ظلّ في هذه المدينة الأرضية ,وهل يهلك جوعاً,وتنزف دماء ماريوس قبل أن يتمكن من تضميد جراحه؟
وفجأة لاحت له وسط الظلام الدامس حلقة من الضوء فتنفس الصعداء ,ودخل في روعة أنه أشرف على نهاية الرحلة و فوسع الخطى حتي بلغ تلك الحلقة.فإذا هي ضوء منبعث من كوة مفتوحة في سقف السرداب .
على أنه رحب بهذه الضوء فمدد ماريوس على الرض ,ومزق قميصه ,ضمّد جراحه وثم فتش جيوبه ,فعثر على ورقة عليها هذه الكلمات:
"أسمي ماريوس بونمرسي ,فأرجو نقل جثتي إلى بيت جدي مسيو جيلنورمان بالمنزل رقم 6 بشارع كالفير".
وكان ماريوس قد كتب هذه الورقة على سبيل الحيطة ,حتى إذا قتل في المتاريس نقلت جثته إلى بيت جده.
ورد جان فالجان الورقة إلى جيب صاحبها ,وجلس يلتمس الراحة.
وعاد بعد قليل إلى أستئناف رحلته الشاقة في تلك السراديب البغيضة.
وبعد نصف ساعة أحرى تبلج له ضوء ضئيل أخذ ينتشر كلما اقترب ثم بدا له مخرج السرداب ,حتى ألفاه مغلقاً بباب مشبك بالقضبان الحديدية ,فأسند ماريوس إلى الجدار ,وامسك القضبان الحديدية بيديه القوتيين وهزها بعنف إلى الجدار ,ولكنها لم تتحرك ,فأسقط في يده وتصبب العرق البارد على جبينه.
هاله مجرد التفكير في العودة من حيث اتى .وانصرف ذهنه في هذا المأزق لى كوزيت.
يا إلهى ! ايمكن أن تفقدهما معاً ,هو و ماريوس ؟
وإنه غلب عليه الياس,إذا به يشعر بيد توضع على كتفه .وإذا بصوت يقول في همس :
-لنقتسم الغنيمة.
وخيل إلى جان فالجان أن يحلم ,فإنه لم يسمع وقع خطوات المتكلم زنظر إليه و عرفه ,وأدهشته هذه المقابله الفجائية.
كان المتكلم هو تيناردييه.
ولم ير تيناردييه وجه غرمه.لأنه كان و اقفاص في الظلام ,وكان جسم ماريوس يحجب نصف وجهه.
قال: كيف تنوي الخروج من هنا؟
فلزم جان فالجان الصمت .
قال تيناردييه :يستحيل عليك أن تزحزح الباب من مكانه, ومع ذلك فإنه من الضروري لك أن تخرج من هذا الجحيم.
فأجاب جان فالجان:هذا صحيح.
-إذاً فلنقتسم الغنيمة!
-ماذا تعني؟
-إنك قتلت هذا الرجل ,واستوليت على نقوده ,أمت أنا ,فقد استوليت على مفتاح هذا الباب.
واستطرد بعد قليل كإنني لا أعرفك ,ولكن لا أشك في أنك من أهل المهنة , ومن واجبي أن أعاونك.
ففعم جان فالجان غرضه,وأدرك أن تيناردييه يحسبه لصاً وقاتلاً.

قال تيناردييه :أصغ ايها الزميل!لابد أنك فتشت جيوب الرجل بعد أن قتلته .فأعطني نصف الغنيمة فافتح لك الباب . هاهو المفتاح!
وقدم مفتاحاص حديدياً ضخماً ,فتناول جان فالجان المفتاح و انبسطت اسارير وجهه .لقد أرسلت إليه العناية الإليهية ملاكاً في صورة شيطان.
ودسَّ تيناردييه يده في جيبه الواسع ,وأخرج حزمة من الحبال دفعها إلى جان فالجان و هو يقول : خذ هذا مع نصيبك من الصفقة.
-وماذا أفعل بهذا الحبل؟
-انك ايضاً في حاجة إلى حجر ,ولكنك ستجد كثيراً من الأحجار في الخارج.
-وماذا أفعل بالحجر؟
-يالك من جاهل !كيف تلقي بالجثة في ماء النهر دون أن تربطها بحجر لكي تغوص ؟
فمد حان فالجان يده بحركه آلية ,وتناول الحبل.
قال تيناردييه :الآن دعنا ننهي الصفقه .إنني أبرزت لك المفتاح والحبل فابرز لي نقودك.
بحث جان فالجان في جيبوبهوولم يجد غير جنيه واحد و بضعة فرنكات فقدمها إلى تيناردييه.
ال هذا في دهشة: لاشك أنك لك تقتل الرجل لأجل هذا المبلغ التافة.
وتقدم جان فالجالن ببساطة ,وراح يفتش جيوبهوثم بحث في جيوب ماريوس.وعثر على ثلاثين فرنكاًوفاستولى على المبلغ كله, وقد تناسي نظرية الاقتسام:
-الآن تستطيع ان تذهب ايها الزميل.
وساعده على حمل ماريوس وفتح باب السرداب .
وما إن خرج جان فالجان من السرداب وسقط على وجهه الضوء المنبعث من أحد مصابيح الشارع و حتي فتح تيناردييه فمه,وحبس أنفاسه دهشة و عجباً!
وترك جان فالجان وراءه تلك السردايب المخيفة,واستقبل نسيم الليل و تنفس ملء رئتيه.
مدد ماريوس على ضفة النهر ,وفرك صدغيه بالماء .وإذا به يحس بالغريزة ,كمايحس الحيوان في الدغل وبأن هناك عيناً ترقبه من الوراء.فنظر خلفة بسرعة ,و وقع بصره على رجل طويل القامه يرتدي معطفاً طويلاً ويمسك بيدع عصا ثقيلة, وقد عقد ساعديه فوق صدرهووجعل يرقبه بإمعان. عرفه جان فالجان وعرف فيه غريمه الابدى جافير.
وهكذا سقط جان فالجان من صخره إلى صخرة,وجاءت مقابلة جافير بعد مقابلة تيناردييه ,فكانت صدمة عنيفة زلزلت أعصابه. على أن جافير لم يعرف غريمه ,فقد قضى جان فالجان ليلته في المتاريس ,وقضى نهاره في السردايب زفمزقت ثيابه ,وتلوث و جهه بالرماد و الأوحال. ولم يحرك جافير ساعديه ,ولكنه ضغط مقبض العصا باصابعه.
سأل :من أنت؟
-انا جان فالجان .
فأمسك جافير العصا باسنانه,وألقى بيديه على جان فالجان ,وأمعن النظر في وجهه وعرفه.
كاد و جههما ان يتلامسا.ورأى جان فالجان في عينى مفتش الشرطة نزره مخيفة.
قال :أيها المفتش جافير,إنني في قبضة يدك .أنا اسيرك منذ الصباح .ولم أذكر لك عنواني لكي أحاول الفرار ,فألق القبض علي رجاء واحد فبدا على جافير أنه لم يسمع ,ولم يحوّل عينيه الثاقبتين عن و جه جان فالجان ولكن لوحظ عليه في تلك اللحظة أن جبينه تغضن ,وأنه دفع ذقنه إلى الامام ,وألقى رأسه إلى الأرض.
وبعد صمت قصير ,ترك كتفي جان فالجان ,وامسك العصا بيده,وسأل بصوت الحالم:ماذا تصنع هنا؟ ومن هو هذا الرجل؟
فأجاب جان فالجان بصوت ايقظ محدثة: لقد أردت أن أحدثك عنه ,فأفعل بي ماشئت ,ولكن ساعدني أولاً على نقله إلى منزله . ذلك هو رجائي الأوحد.
فأخرج جافير من جيبه منديلاً غمسه في الماء ,ومسح بهد الدم عن جبين ماريوس .وقال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:
-لقد كان هذا الرجل بين الثوار
-نعم و هو جريح .

-إنه ميت.
-كلا لم يمت بعد.
-إذاً فقد حملته من المتاريس إلى هنا؟
ولابد أنه كان مستغرقاً في تفكير عميق .فلم يلفت نظره هول المرحلة التي قام بها جان فالجان في سراديب المجاري , ولم يفطن إلى صمت هذا الاخير وإمتناعه عن الإجابة.
كذلك كان جان فالجان في شغل بالتفكير.
قال بعد قليل :إنه يقيم مع جده في شارع كالفير.
وبحث في جيب ماريوس عن القصاصة التي كتب عليها الفتى عنوانه, فعثر عليها,ولكنه عثر في هذه المرة ايضاً على الرسالة التي بعثت بها كوزيت إلى ماريوس.وتسلمها الشاب وهو يقاتل في المتاريس .
قال جان فالجان :هوذا عنوانه.
فتناول جافير القصاصة و حملق إليها بعنين فوسفوريتين كعيون طيور الليل .
وكان جافير قد جاء إلى تلك الناحية في إحدى مركبات الأجره ,امر الساق أن ينتظره, فقد يحتاج إلى مركبته في مطاردة تيناردييه .
صاح: تعال ايها الحوذي.
فاقترب الحوذي بالمركبه وصعد إليها الرجلان ووظل جان فالجان ممسكاً بماريوس من ساعده.
وانطلقت المركبة في الظلام,وفي جوفها ابطال الماساة أحدهم كالجثة و الثاني كالشبح ,وجافير تمثال من رخام.
ووقفت المركبه بباب المنزل رقم 6 بشارع كالفير.و وثب منها جافير وطرق الباب بعنف.
وفتح البا بعد لحظة ,واطل البواب.
فسأله جافير بخشونة رجال الشرطة ك هل يقيم هنا رجل يدُعى جيلنورمان ؟
-نعم .هذا منزله.فماذا تريد؟!
-لقد جئنا بابنه.
فصاح البواب في دهشة:ابنه؟!
-نعم .وهو ميت.
وعجز البواب عنفهم كلمةواحدة...فاستطرد جافير:
-إنه كان مع الثوار في المتاريس .اذهب و ايقظ اباه.
فقنع البواب بإيقاظ الخادم "باسك".و قنع "باسك" بإيقاظ الآنسه جيلنورمان,ولم يجرؤ أحد على إيقاظ الشيخ.
وحمل ماريوس إلى غرفة الطابق الأول ,وانطلث "باسك" في طلب الطبيب.
وظل جان فالجان واقفاً ينظر إلى الجثة كمن هو في حلم,إلى أن شعر بيد جافير تمس كتفه ,ففهم وانصرف ,سار جافير في أثره وصعدا إلى المركبة.
قال جان فالجان :أيها المفتش جافير,إنّ لي رجاءً آخر : إسمح لي بقضاء بضع دقائق في بيتي, ولك أن تفعل بي بعد ذلك ماتريد.
فصمت جافير لحظة,ثم صاح بالسائق :إلى المنزل رقم 7 شارع لوم آرميه.
ولم يدر بينهما حديث اثناءالطريق . ففيم كان جان فالجان يفكر؟وماذا كان يبغي؟
كان يريد ان ينذر كوزيت برحيله,وأن يطلعها على مكان ماريوس ويرتب شؤونه للمرة الآخيرة.
ووصلت المركبة إلى شارع لو آرميه ووقفت في اوله لضيقه فنقد جافير السائق اجره ,و رافق جان فالجان إلى باب البيت.
وكان الشارع مقفراً من المارة كالمعتاد . ففتح جان فالجان الباب ونظر إلى جافير.
قال الشرطي:اذهب ! وسأنتظرك هنا.
فدهش جان فالجان ولك تكن عادة جافير.
ولكنه دخل المنزل متمهلاً ,وصعد السلم ببطء.
وكان للسلم نوافذ يستمد منها الضوء فحانت من جان فالجان نظرة غير مقصودة إلى إحدى هذه النوافذ و أدهشه ألا يرى جافير بالبا حيث تركه.
أما جافير فإنه انتظر حتى توارى جان فالجان داخل المنزل ثم سار بالشارع ببطء ,وقد سقط رأسه على صدره لأول مرة في حياته. ولو لمرة في حياته كذلك .كانت يداه معقودتين خلف ظهره.

قبل ذلك اليوم .لم يكن جافير يعرف من الحركتين اللتين امتاز بهما نابليون وغير الحركة التي تعبر عن السطوة وقوة الإرادة و الجبروت. وهي رفع الرأس ,وعقد الساعدين فوق الصدر.

أما الحركة التي تنم عن الشك و القلق ,وهي عقد اليدين خلف الظهر فإن جافير لم يعرفها في حياته إلى أن كانت تلك الليلة.كان موقفه لايطاق.

نعم. كان ما لايطاق أن يضع نفسه في مستوى و احد مع سجين هارب من الليمان وويقابل معروف السجين بمعروف مثله.

شئ واحد ادهشه, هو ان يعفو عنه جان فالجان وشئ واحد أخافه ,هو أن يعفو عن جان فالجان .

على أنه لم يغفل عن حقيقة ثابته هي أن ارتكب مخالفة خطيرة

للقانون .فقد أغمض عينيه عم مجرم عائد وسجين هارب ,و انتزع من قبضة القانون رجلاً من حق القانون.

فعل ذلك, ولم يدرِ كيف فعله, وشعر بأنه اخل بواجبه فلم يبق ثمة معنى لحياته.

فهل ذلك ما يطاق؟كلا...

كان موقفه دقيقاً ,ولامخرج منه إلا بإحدى وسيلتين:إما القبض على جان فالجان وأيداعه السجن,وإما ...

كان السكون شاملاً ,والظلام دامساً ,والشوارمقفرة من المارة .وهذا الرجل الذي يعتبر الواجب و القانون جزءاً من كيانه ,

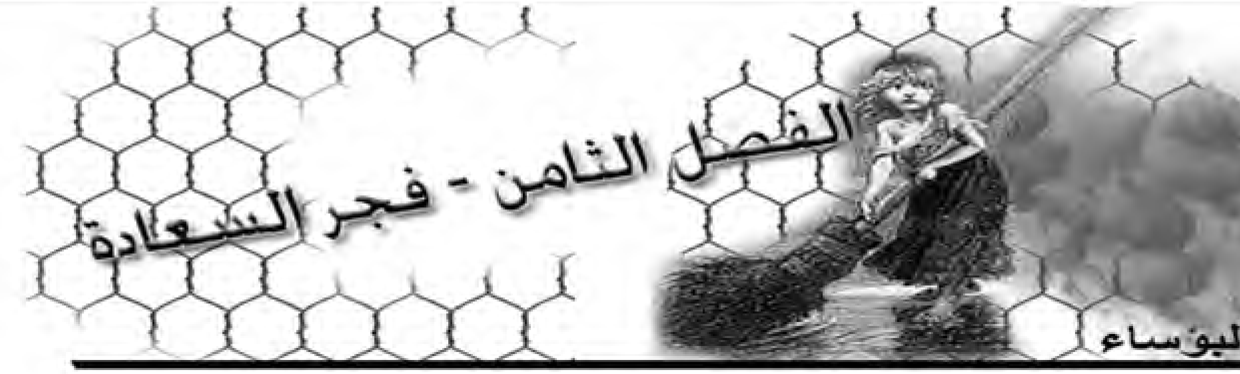
بل كل حياته ويسير على مهل فوق جسر "ينا"

و وقف فوق الجسر ,وأطل من فوق حاجز ,ورأى ماء "السين" ينحدر في تلك البقعة بقوة,تاركاً تلاقيف سريعة لاتلبث أن تتلاشى.

وظل جافير في مكانه بعض الوقت ووعيناه لا تتحولان عن الماء المظلم.

ثم خلع قبعته ,و وضعها على حافة الجسر.

وبعد لحظة ,شوهد شبح طويل ينهض فوق الحاجز وينحني نحو النهر , ثم يهوي نحو الماء فيبتلعه الماء و الظلام.



أقبل الطبيب على عجل وفحص ماريوس فوجد ان الرصاصة اصابت العنق و كسرت عظم الترقوة,أما سائر الجسم فلم تصب بأذى .ولكن ماسال من دم الشاب بعد إغمائه اضعفه كثيراً.

كان الطبيب مايزال يغسل الجرح حين فتح باب الغرفة فجأة ودخل مسيو جيلنورمان ,وهو في قميص النوم.

كانت الضجة التى أحدثها الخدم قد ايقظت الشيخ وفنهض من فراشه. وقصد إلى الغرفه التي خيل إليه أنها مصدر الاضطراب.

وتقدم خطوة إلى الأمام .ثم جمد في مكانه ,ونظر إلى الفراش,وإلى الطبيب ,وإلى ابنته.و وضع يده فوق فمه كأنما يمنع صرخة اوشكت أن تفلت منه.

هتف فجأة بصوت ثاقب :ماريوس!

فقال الخادم باسك :لقد جئ به في التو و اللحظة ياسيدي.

والظاهر أن ذهب إلى المتاريس...

فصاح الشيخ إنه مات .مات.إنه أورد نفسه موارد التهلكة انتقاماً مني.ويل للتعس.ويل لشارب الدماء .ويل لي!

واقترب من الفراش وونظر إلى الشاب ,وتناول ساعده,وراح

يهزه ,ويغمغم في الوقت نفسه بصوت لايكاد يسمع:ايها الوغد, ايها القاسي القلب.

كان كمحتضر يعتب على جثة.

ثم سال الكلام من فمه بعد ذلك بقوة وصاح:

-ذلك لايهمني ايها الشقي وفسأموت مثلك.وما دمت لم تشفق على نفسك فإنني لن أحزن لموتك .هل سمعت ايها القاتل؟!

وفي هذه اللحظة تحركت اهداب ماريوس ووفتح عينيه ببطء والقي حوله نظرة تحجبها غشاوة.

فصاح الشيخ ماريوس ! ياولدي العزيز! يا ابنى المحبوب! إنك فتحت عينيك .إنك تنظر إلى .إنك على قيد الحياة ,شكراً لله وأغمي عليه.

وقضى ماريوس بضعة اسابيع بين الموت و الحياة ,ولم يكف في هذيانه عن ترديد اسم كوزيت,ولم يبرح الشيخ بدوره فراش حفيده وهو كحفيده يتردد بين الموت و الحياة .

وفي كل يوم ,بل ومرتين كل يوم,كان الشيخ اشيب الشعر نظيف الهندام يتردد إلى المنزل ويستفسر الرجل عن حال الجريح,ويترك عنده ضمادات و عقاقير للجروح.

وأخيراً,وبعد أربعة أشهر من تلك الليلة المشهودة التي حملت فيها جثة ماريوس إلى بيت جده ,أعلن الطبيب أن الجريح تجاوز الخطر ,وعندئذ فقط عاد الشيخ جيلنورمان إلى غرفته.

وبزوال الحمّى ,كف ماريوس عن ترديد اسم كوزيت,ولكنه لم يكف عن التفكير فيها.

وفي أحد الأيام ,انحنى جيلنورمان فوق حفيده وقال بلطف:اصغِ إلى ياصغيري ,لو كنت في مكانك لما ترددت في تناول لحم الضأن بدل السمك.فالترحيب بأكل السمك دليل على النقاهة ,ولكن أكل الضأن يساعد المريض على الوقوف على قدميه.

فاعتدل ماريوس في فراشه,ونظر إلي وجه جده بإمعان ,ثم قال بلهجة جدية:

-ذلك يحملني على أن اقول لك شيئاً.

-ماهو؟

-هو أنني أريد أن أتزوج.

فانفجر الشيخ ضاحكاً وصاح :اتفقنا,ستقترن بصاحبتك الصغيرة.

فلم يصدق ماريوس اذنيه ,
ومضى الشيخ يقول:نعم وستقترن بهذه الصغيرة البديعة .إنها تستفسر عنك كل يوم في صورة رجل كهل.
وقد حصلت على جميع المعلومات الضرورية ,فالفتاة تقيم في شارع لوآرميه أليس كذلك؟!وأنت تريدها زوجة لك .فليكن ذلك.اضغِ إلى ,إنني لاحظت أنك لاتحبني .فقلت لنفسي "ماذا يجعل هذا الحيوان يُحبني؟"
ثم فكرت في كوزيت وقلت إذا جئته بها ,فربما أحبني وسأجيئك بها .وعليك أن تتحمل عناء الزواج.
فأطبق ماريوس بساعديه على عنق جده و غمغم الكلمة التي يتوق الشيخ دائماص إلى سماعها :يا ابي المحبوب.
-أتحبنني إذاً ؟ لقد دعوتني اباك.
فأجاب : لقد شفيت الآن يا أبي.واظن أنني استطيع ان أراها
-ستراها غداً...
فهتف محتجاً :أبي!
-ماذا؟
-ألايمكن أن أراها اليوم ؟
-بل ستراها اليوم.إنك دعوتني اباك ثلاث مرات وهذا يكفى .
وتلاقى العاشقان...ولن نحاول وصف لقائهما ,فهناك اشياء لايمطن تصويرها,والشمس إحدى هذه الأشياء.
وكان جيلنورمان و ابنته وخادمه وخادمته في غرفة ماريوس ,حين أقبلت كوزيت و فيَ ثرها كهل حسن العندام تتلاعب على شفتيه ابتسامة شاردة مؤلمة.
كان هذه الكهل هو مسيو فوشليفان ,كان جان فالجان.
كان يرتدي ثوباً جديداً ,ورباط عنقه ابيض وويحمل تحت إبطه شيئاً ملفوفاً في ورقة.
وقد وقف مسيو فوشليفان بباب الغرفة كأنه يخي الدخول .ورمقته الآنسة جيلنورمان بنظرة فاحصة وثم همست في أذن وصيفتها نيكوليت:
-إنه يحمل تحت إبطه كتاباً.
فأجابت نيكوليت:لعله من العلماء.
أما جيلنورمان فإنه أحنى قامته باحترام وقال :
-هل لى الشرف بالتحدث إلى مسيو فوشليفان؟
فأحنى جان فالجان قامته بدوره ولم يُجب.
قال الشيخ:
-إن لى كل الشرف ان أطلب يد ابنتك لحفيدي البارون ماريوس بونمرسي.
فأحنى جان فالجان قامته مرة اخرى.
وتعانق العاشقان.
وتأملت الآنسه جيلنورمان هذه السعادة التي ظهرت في الغرفة ,لا كما تنظر البومة إلى حمامتين ,وإنما كما تنظر عانس في السابعة و الخمسين من عمرها ,إلى شئ اقفرت منه حياتها الخالية.وهو الحب ...بمعناه الصحيح.
وتحول جيلنورمان إلى كوزيت ,وقال:
-هذه الابنه بديعة حقاً ,إنها فتاة صغيرة ولكنها سيدة عظيمة ,ومما يؤسف له أنها بارونه فقط,وليست مركيزة ,فما أبدع أهدابها الطويله!
ثم استطرد بحزن ك من سوء الحظ أنني استثمر كل ثروتي في احد المصارف,ولا يجوز لي أن استردها قبل انقضاء عشرين عاماً فإذا مت قبل ذلك... وكف عن الكلام ,وأحزنه هذا الخاطر.
وعندئذ قال قائي:إن الانسة كوزيت فوشليفان تملك ستمائة ألف فرنك.
كان المتكلم هو جان فالجان الذي قبع منذ دخوله في أحد الأركان فلم يشعر به احد.
فردد جيلنورمان في دهشة: ستمائة ألف فرنك!
فأجاب جان فالجان:أقل من ذلك بضعة آلاف.
وتناول الحزمة التي كانت تحت إبطه,وفتحها ,فإذا بها تحوي على رزمة من الأوراق الماليه.
واحصيت تثلك الأوراق ,فإذا قيمتها 584 ألف فرنك.
فغمغمت الآنسه جيلنورمان :ما أثمن هذا الكتاب!

و لابد أن يكون القارئ قد عرف مصدر هذه الثروة ,وأدرك سر الرحلات الغامضة التي كان يقوم بها جان فالجان في بعض الأحيان ز ذلك انه كان قد استطاع في الوقت المناسب أن يسحب الثروة التي أودعها بنك لافيت باسم الأب مادلين, ثم وضع هذه الثروة مع شمعداني السقف في صندوق صغير ,واخفى الصندوق في دغل بالقرب من قرية "بولاجيه" ومنذ بضعة ايام وسافر إلى بولاجيه وعاد بالكنز كله.
وبدا الاستعداد للزفاف .فمهد جان فالجان كل شئ و ذللك كل صعب ,واستطاع بفضل اضطلاعه السابق بوظيفة العمدة ان يجعل هذا الزواج ممكناً .وقد كان من المستحيل أن يصرح بنشأة كوزيت, فزعم أنها ليست ابنته.ولكنها ابنة شقيقة فزشليفان الآخر ,الذي كان يشتغل بستانياً في حديقة سان أنطوان ولم يكن في ساتطاعة راهبات الدير بطبيعة الحال أن يفرقن بين الأخوين .فقررن أن كوزيت هي ابنة فوشليفان البستاني الذي توفي منذ بضعة اعوام.
وهكذا لمت كوويت انها ليست بنة الرجل الذي طالما دعته أباها ولو علمت ذلك في وقت آخر لحزنت اشد الحزن,ولكنها كانت وقتئذ في غمرة السعادة وفمرت هذه السحابة دون أن تترك في نفسها أثراً وظلت بالرغم من ذلك تدعو جان فالجان اباها.وتقرر أن يقيم العروسان في بيت جيلنورمان .وأصر الشيخ على النزول لها عن غرفة .وكانت اثمن غرفة في المنزل.
ولم تشغل السعادة ماريوس عن العمل لإرضاء ضميرة وإشباع فضوله.
كان يريد أن يعرف الرجل الباسل الذي خاطر بحياته وأنقذه من المتاريس ووحمله إلى بيت جده ,وتركه ومضي دون أن يذكر اسمه أو ينتظر كلمة شكر.
بيد أن جميع الجهود التي بذلها لمعرفة هذا الباسل المجهول ذهبت ادراج الرياح .فقنع بأن يحمل له في قرارة نفسه اسمى معاني الشكر و العرفان الجميل.ولما فاض قلبه بالسعادة وعاودته ذكرى منقذه اكرم .فاهتم بالبحث عنه بمعونة الخادم "باسيك" واهتدى أخيراً إلى الحوذي الذي نقله في مركبته.وذكر الحوذي كيف أن احد رجال الشرطة استاجر المركبة منذ الساعة الثالثة حتي منتصف الليل . و كيف أنه قضى اكثر هذا الوقت في انتظر الشرطي على ضفة نهر السين أما فوهة المجاري .وكيف رأي باب الفوهة يفتح ويخرج منه رجل حاملاً جثة إنسان ميت .ثم كيف ألقى الشرطي القبض على الرجل ونقل الجثة إلى شارع "كالفير" وكيف غادر الرجل و الشرطي المركبة في شارع لوم آرميه و غابا عن بصره.
وسمع ماريوس هذه القصة ,فراجع رايه واستغرق في تفكيره.إذا كان منقذه قد خرج به من فوهة السرداب فمعنى ذلك انه اجتاز باريس كلها من الشرق إلى الغرب و في ظلام السراديب ,و الجثة على كتفه .فما السر في هذا الإخلاص العجيب؟!
و ذات مساء سرد ماريوس قصة هذا المنقذ على مسمع موزيت وجان فالجان .وختم حديثة بأن صاحك
-لقد كان نبلاً من الرجل أن يجازف بحياته في المتاريس ,وان يتجشم عناء حملي على كتفه و السير بي في السراديب الأرضية المظلمة بضعة اميال .فلماذا فعل ذلك؟ لابد أنه قال لنفسه حينما رآني "ربما مايزال في هذا الشاب رمق من الحياة فلأجازف بحياتي ,فربما أنقذت حياته".
وجازف بحياته لا مرة و احدة بل عشرين مرة, فهل ثمة أنبل من ذلك؟!.
أواه ! لو كنت أملك ثروة كوزيت!
وكفّ عن الكلام .فقال جان فالجان:إنك تملكها.
فأجاب ماريوس :إذا ليس أحب إلى من أن أنفقها إلى يخر سنتيم في سبيل العثور على هذا الرجل.
فصمت جان فالجان.



كانت ليلة 16 فبراير من الليالي الخالدة في حياة كوزيت. في هذه الليلة ليلة زفافها ,كانت ربيبة جان فالجان ملاكاً يشع حوله الحب و الجمال و السعادة.وقد مدت المائده الكبرى في بهو واسع أضيئت في جوانبه الشموع المعطره.وانتشرت في انحائه باقات الزهر.

وراح الشيخ جيلنورمان يتنقل بين الغرف متبختراً مختالاً كأن الليلة ليلة زفافه.

وجلس جان فالجان على مقعد وراء أحد الأبواب ,وقد شدّ ساعده إلى عنقه.

كان قد جرح إصبعه منذ ايام ,و رفض أن يسمح لكوزيت أن ترى الجرح.

واقتربت الفتاة من الشيخ الذي وفر لها كل هذه السعادة ,وسالته بصوت رقيق , فيه دعابة الطفل وسخريتهك هل انت سعيد يا ابي؟

فأجاب جان فالجان :نعم .

-إذاً فاضحك.

فضحك.

وبعد بضع دقائق,دُعي القوم لتناول الطعام , فداروا حول المائدة.

وكان هناك مقعدان كبيران حول مقعد العروس,أحدهما لجيلنورمان و الثاني لجان فالجان .فجلس الأول في مقعده ,وبقي المقعد الثاني خالياً من صاحبه .

وانقضت بضع دقائق ,ولم يحضر فوشليفان زفصاح جيلنورمان بخادمه:

-ألاتعرف اين ذهب مسيو فوشليفان؟

فأجاب باسك :نعم ياسيدي.إنه طلب إلى أنبئك بأنه يشعر بألم في إصبعه ويعتذر لعدم قدرته على تناول الطعام.

فوجم المدعوون ولكنهك أقبلوا على الطعام بعد ذلك ,وأغناهم وجود جيلنورمان عن وجود فوشليفان.

أما جان فالجان فإنه بعد أن ضحك كما طلبت منه كوزيت, نهض واقفاً دون أن يشعر به أحد ,تسلل إلى الغرفة المجاورة التي دخلها منذ ثمانية اشهر ,عندما نقل إليها جثة ماريوس ,وهناك صادفه باسك.فأشار إلى ساعده المشدود إلى عنقه, وطلب منه أن يبلغ المدعوين اعتذاره وثم عاد إلى منزله واضاء المصباح.

كان المنزل خلواً مقفراً .فأحدث وقع اقدامه على الأرض جلبه غير عادية

نظر إلى الجدران وأغلق الخزانة ,وانتقل من غرفة إلى غرفة أخريوثم عاد إلى غرفته,و وضع المصباح على المائدة,وحل الرباط الذي يشد ساعده إلى عنقه,واستخدم أصابع يده كما لو لم تكن بها إصابة.

ثم انتقل بصره إلى حقيبة صغيرة في أحد الأركان فتناولها وفتحها وأخرج منها الثياب التى كانت كوزيت ترتديها منذ عشرة أعوام,يوم غادرت معه حانة تيناردييه.

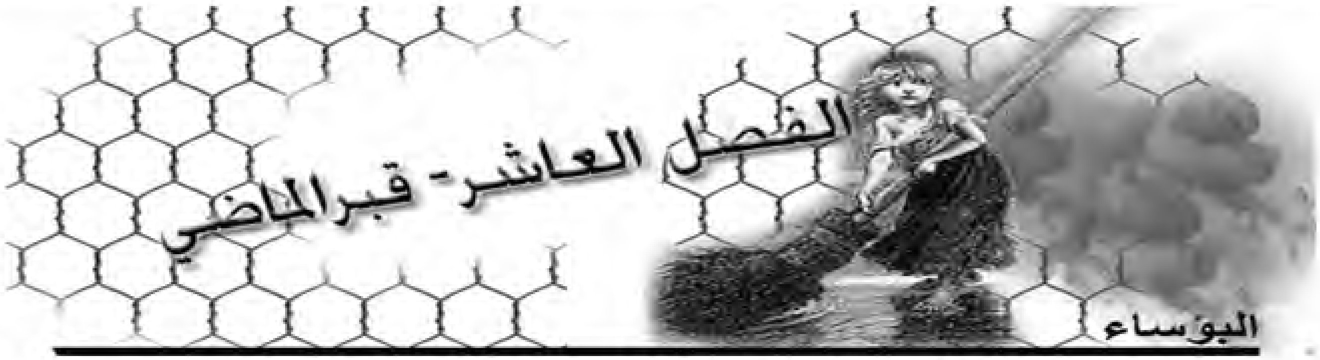
أخرج الثوب ,والمئزر والمنديل,والحذاء الضخم و الجوارب ,وبسطها جميعاً على الفراش .فوضع المئزر فوق الثوب ,و وضع المنديل في جيب المئزر,والجوارب تحت الثوب ,والحذاء تحت الجوارب ,ونظر إليها جميعاً,وخيل إليه أنه يرى كوزيت أمامه ,كأول عهده بها ,طفلة في الثامنه من عمرها,تمسك يده بإحدى يديها,ودميتها باليد الأخرى,وهي تضحك ,وليس لها في الحياة سواه.

تأمل الثياب طويلاً . ثم سقط رأسه الأبيض القوقور فوق الفراش,ودفن وجهه بين تلك الثياب ,وتداعى قلبه الكبير فبكى بكاء الأطفال.

شعر جان فالجان في تلك الليلة بأنه يقاتل في المعركة الأخيرة و قد احتل ذهنه سؤال واحد هو:كيف ستكون صلته بسعادة كوزيت وماريوس؟

إنه أراد تلك السعادة ,وعمل لها ,و أوجدها ,وهو الآن ينظر إليها كما ينظر صانع السيوف إلى اسمه منقوشاً على نصل السيف الذي طعن به نفسه .فماذا تكون صلته بهذا السعادة بعد الآن؟

ولقد اصبحت كوزيت مُلكاً لرجل آخر: فهل من حقه أن يحتكر لنفسه منها أعظم قسط يستطيع احتكاره؟
هل من حقه أن يفرض نفسه على سعادتها فرضاً بالصفة التي كانت له قبلاً كوالدها؟!
هل من حقّه أن يثُقل مستقبلها بماضيه دون أن ينطق بكلمة؟
قضى الليل كلّه, وهو يُلقي على نفسه هذه الأسئلة ويحاول أن يجد لها جواباً .و انبثق الفجر وهو مايزال في مكانه أمام الفراش.
اثنتا عشر ساعة قضاها كذلك دون أن يأتي بحركة أو ينطق بكلمة.
كان يُخيل للناظرين إليه أنه رجل ميت ,فإذا ألصق فمه بثوب كوزيت وقبّله,عندئذ فقط تبدو عليه علامات الحياة.



خيم على بيت جيلنورمان في اليوم التالي ذلك السكون العميق الذي يعقب السهرات الصاخبة.
وكان "باسك" يعمل في ترتيب الأثاث ,حيث سمع طرقاً على الباب ففتحه فإذا الطارق مسيو فوشليفان.
سأله جان فالجان:هل استيقظ سيدك؟
-أيّهما ؟ العجوز أو الشاب ؟
-البارون بونمرسي.
-آه...لا أعلم...سأتحقق من ذلك .هل أقول له أن مسيو فوشليفان يريد مقابلتك؟
-كلا, لاتقل له إنني زائر .قل له إن شخصاً يطلب التحدث إليه على انفراد,ولاتذكر له اسمي.
ولاحظ جان فالجان دهشة الخادم فأستطرد:إنني أريد مفاجأته.
وبقي جان فالجان جاداً في مكانه حيث تركه الخادم.
كان غائر العينين من تاثير التعب والانفعال و البكاء ,وقد تهدل ثوبه الجديد بعد تلك الليلة المسهدة الطويله.
وماهي إلا لحظة,حتي أقبل ماريوس ,وهو منتصب القامة مرفوع الرأس ,ضاحك الثغر لامع العينين.
لم يكن بدوره قد تذوق طعم النوم في تلك الليلة.
هتف الشاب:أهذا أنت يا أبي,لماذا إذاً لم يذكر الأحمق "باسك" اسمك؟
ولكنك جئت مبكراً يا أبي ,فالساعة الآن الثانية عشر,ولاتزال كوزيت نائمة.
كانت كلمة "أبي" التي ترددت في فمه دليلاً على مبلغ سعادته و فرحه .ذلك أن الصلة بين الرجلين كان يخالطهما دائماً شئ من البرودة و الفتور,ولكن حرارة
السعادة التي تعمل في نفس الفتى,أذابت هذه البرودة,وجعلته يرى في فوشليفان "أباً" له ,مثل كوزيت.
واستطرد ماريوس: ما أشد سعادتي بلقياك !كيف حال إصبعك؟
ولم ينتظر جواباً,وأردف على الأثر:
-لقد تحدثنا عنك طويلاً,لأن كوزيت تحبك كثيراً,فلا تنسّ أن لك غرفة هنا.نحن لاتريد أن تقيم في شارع لوم آرميه,إنه زقاق ضيق صغير يفتقر إلى اسباب الصحة
,ويجب أن تنتقل للإقامة معنا منذ الآن ,وإلا حاسبتك كوزيت حساباً عسيراً إننا أفردنا لك الغرفة المجاورة لغرفتنا,وهي غرفة فيحة تطل على الحديقة ,وسوف يرحب جدي بإقامتك معنا ,ثم إن كوزيت قد تحتاج إليك لتستند على ساعدك إذا خرجت للنزهة ,كما كانت تفعل في حدائق لكسمبورغ.
إننا مصممون على أن نكون سعداء ,ويجب أن تشاطرنا سعادتنا,أسمعت يا أبي؟ وبهذه المناسبة ويجب أن تتناول طعام الإفطار معنا.
قال جان فالجان :إن لي ملاحظة واحدة ,ياسيدي هي أنني كنت من نزلاء الليمان.

توجد اشياء تستحيل على العقل,وأشياء تستحيل على الأذن ,وقد كانت العبارة اتي نطق بها جان فالجان مستحيله على العقل و الأذن معاً فلم يعها عقله ,ولم تعها أذنه ,وقد شعر بأن شيئاً قيل له ولكنه لم يدر ماهو.وقف مفتوح الفم , فيما أخذ جان فالجان يحلّ رباط يده ,حتى إذا فرغ من ذلك وبسط اصابعه أمام عيني ماريوس,وقال:
-ليس بيدي شئ.فقد كان من الضروري أن أتوارى من حفلة الزفاف فاخترعت حكاية الجرح ,لكيلا أرتكب جريمة تزوير تلغي عقد الزواج.
فغمغم ماريوس وهو يترنح في مكانه:ماذا تعني؟
فأجاب جان فالجان:أعني أنني سجين سابق ,وأنني كنت من نزلاء الليمان.

فصاح ماريوس في ذعر :أتريد أن تفقدني عقلي؟
-أصغِ إلى يامسيو بونمرسي ,إنني قضيت في الليمان تسعة عشر عاماً بتهمة السرقة,وحكم على بالسجن المؤبد لسرقة أخرى .فأنا الآن سجين هارب.
وكان جان فالجان يتكلم بلهجة جادة ورزينة.فانكمش الفتى , وهاله ماسمع.
وانقضت بضع دقائق, قبل أن يتمكن عقله من هضم الحقيقه المستحيلة.
ثم صاح في ذُعر وهو يتراجع إلى الوراء :أنت...أنت...والد كوزيت ؟
فرفع جان فالجان قامته بكبرياء حتي كأن طوله تضاعف ,وقال:
-يجب ان تصدق كل كلمة أنطق بها باسيدي,وإن يكن قسمنا أمام الحاكم لا قيمة له ولا وزن. إنني لست والد كوزيت , كلا ,بحق السماء لست و الدها.إنني فلاح بسيط من أهل فافيرول ,واسمي جان فالجان ,لافوشليفان.ولا قرابة من اي نوع بيني و بين كوزيت ,فكن مطمئناً.
فغمغم ماريوس وقد أثملته الدهشة:وأين الدليل؟
-كلامي هو الدليل.
فنظر ماريوس إلى الرجل ,فألفاه حزيناً,هادئاًولايمكن أن يصدر الكذب عن مثل هذا الهدوء.
قال :إنني اصدقك.
فأحنى جان فالجان رأسه كأنما ليسجل هذه الحقيقة واستطرد:
-هل تريد أن تعرف صلتي بكوزيت؟ ما أنا إلاعابر سبيل في حياتها ,ومنذ عشرة أعوام لم أكن أعلم لها وجوداً,ولكني احبها كما يحب كبار الشيوخ صغار الأطفال.كانت يتيمة الأبوين ووبحاجة إلى فأوقفت عليها حبي و حناني.أما الآن فقد خرجت من حياتي , وانقطعت أسباب دنياي من اسباب دنياها ,وتفرقت بنا السبل واصبحتُ لاأملك لا نفعاً.
أراك لاتنطق بكلمة عن الست مئة ألف فرنك, ولكنى أعرف ما يدور بخلدك ,فأعلم إذا أن هذا المبلغ وديعة بين يدي .لاتسألني عن مصدر هذه الوديعه .أو كيف انتهت إلى .فذلك لايهم في قليل أو كثير ,وبحسبي أنني رددتُ الوديعة إلى أصحابها.
فزادت دهشة الشاب ,ثم مالبث أن صاح:
-ولكن لماذا تقول لي كل هذا؟ من ذا الذي يرغمك على أن تقوله؟ أما كان أجدر بك أن تحتفظ لنفسك بهذا السرّ, ما دمت بمأمن من الفضيحة والمطاردة؟
-أتسألني لماذا أصارحك بكل هذا ؟ وتقول إنني بمأمن من الفضيحة و المطاردة ؟ كلا. إنني مطارد,ومن ذا الذي يطاردني؟ ضميري يطاردني.فهو الذي يتعقبني ,ويقبض عليّ,ويحاكمني,ومتي سقط الإنسان في قبضة ضميره فلا مفر له.
وأمسك عنقه بقبضة يده واستطرد :
-انظر إلى هذه اليد .أترى أنها تقبض على العنق بحيث لا يستطيع منها خلاصاً؟!يختلف كثيراً عن قبضة اليد .فاذا شئت أن تعيش سعيداً ياسيدي , فحاول ألا تفهم الواجب لأنك إذا فهمته وقعت تحت نيره.
وكف عن الكلام قليلاً , ثم أستطرد في هدوء و سكينة:
-يامسيو بونمرسي,إنني رجل أمين .وأنا أرفع نفسي في نظري بتحقيرها في نظرك.
وصمت مرة أخرى وابتلع ريقه بصعوبة كأنما تؤلمه مرارته.
-متى كان للإنسان اض كماضيّ,فليس من الإنصاف أن يحمل الآخرين أهواله دون أن يشعروا.
لقد أعارني فوشليفان اسمه .ولكن لاحق لي في أن أحمل هذا الاسم,لأن الاسم يعبر عن الشخصية .و الرجل يحمل اسماً غير اسمه هو جريمة تزوير مجسمه في لحم و دم.و التقط انفساه بصوت مسموع وقال في هدوء:
-في مامضى سرقت رغيفاً لكي أعيش ,ولكني اليوم اسرق اسماً اعيش.
-لكي تعيش ؟ إنك لست بحاجة إلى هذا الاسم أو أي اسم آخر لكى تعيش.
فهز جان فالجان راسه مراراً وقال : إنني أفهم نفسي.
وساد بين الرجلين صمت عميق: فقد أمسك كل منهما عن الكلام و استغرقا فيالتفكير.
وأخيراً غمغم الطريد: لقد زال الآن عن صدري حمل ثقيل!
وأخذ يسير في الغرفه جيئة و ذهاباً إلى أن وقف فجأة أمام ماريوس وقال:
-هب الآن ياسيدي أنني اصارحك بالحقيقة ,وأنني مازلت فوشلفيان,وأنني احتللت مكاني في بيتك واصبحت واحداً من اسرتك.وهب أننا -نحن الثلاثة - قد خرجنا للنزهة ,أو دُعينا إلى سهره فمينا جنباً إلى جنب ,لأنك تعتقد أنني

لا أقل عنك شاناً وكرامة.
وأخيراً وهب أن صوتاً صاح فجأة - ونحن نحدثك ونضحك- "هوذا جان فالجان" ,وأن يد الشرطة امتدت فجأة من الظلام و أماطت اللثام عن و جهي... فماذا يكون؟
وصمت. وأحس ماريوس برعدة قوية تمشي في جسده.
قال جان فالجان:ماذا تقول في هذا ؟
فلم يُجب ماريوس ,وأردف الطريد:هل أنت ترى ياسيدي أنني أحسنت صنعاً أذ صارحتك بالحقيقة؟ فعس أنت عيداً,وكن ملاكاً , وانعم بالحب في ضوء الشمس,ولا يزعجنك اعتراف شقي يرى من واجبه أن يعترف أن أمامك رجلاً بائساً ياسيدي.
فاجتاز ماريوس الغرفة ببطئ حتى إذا اقترب من جان فالجان بسط إليه يده.
ولكن جان فالجان لم يحرك ساكناً فاضطر ماريوس أن يتناول يده .
وجدها كقطعة من الرخام,وقال:
-إن لجدي اصدقاء من ذوي النفوذ,وفي استطاعته أن يحصل لك على عفو.
فأجاب جان فالجان :لافائدة من ذلك ياسيدي ,فهم يعتقدون أنني مت,وذلك يكفي فالموتى لا يوضعون تحت الرقابة ,والموت أشبه بالعفو.
وخلص يده من ماريوس وأردف:وبعد فإنني لا أعرف من الأصدقاء غير الواجب .ولا أطلب إلا عفواً,واحداً ,هو عفو ضميري.
وفي هذه اللحظة ,فتح أحد أبواب الغرفة بلطف وأطل منه رأس كوزيت .كان شعرها المضطرب يزيد جمال و جهها .و كانت حركتها اشبه بحركة الطير حين يطل براسه من وكره.نظرت أولاً إلى زوجها ,ثم نظرت إلى جان فالجان وصاحت وهي تضحك :أراهن على أنكما تتحدثان في السياسية ,أما كان الأجدر بكما أن تقضيا الوقت معي؟
فبهت جان فالجان و هتف ماريوس :كوزيت.
ثم صمت ,واصطدمت عيناه بعيني جان فالجان.
وقال كوزيت ,وهي ماتزال تبسم ابتسام الوردة النضرة.
-لقد فأجاتكما,وسمعت الأب فوشليفان يتحدث عن الواجب و الضمير ,وذلك حديث سياسيّ لاأسمح به قط.
فأجاب ماريوس: إنك مخطئة ياكوزيت,فحديثنا يدور حول شؤون اخرى لاتتصل بالسياسة,إننا نفكر في افضل وسيلة لاستثمار ثروتك.
فقالت :سأدخل ,وإن كان يُخيل إليّ أن وجودي غير مرغوب فيه.
فلم ينطق جان فالجان بكلمة.وتحولت إليه كوزيت وهي تقول:
-إني أطالبك أولاً يا أبي ,بأن تسرع لمقابلتي و تقبلني.مامعنى صمتك هذا؟ أرأيت أباً كهذا الأب يا ماريوس؟تعال و قبلني في الحال. وقدمت إليه جبينها ,فاقترب منها خطوة ,ولكنها اعتدلت فجأة و هتفت:
-ماذا بك يا أبي؟ إنك ممتقع الوجه.ألاتزال إصبعك تؤلمك؟
فأجاب :كلا.
-هل أصابك أرق الليلة؟
-كلا.
-هل أنت حزين؟
-كلا.
-قبلني إذاً.
وقدمت إليه جبينها ,فقبله.
وقالت :ابتسم.
فأطاع جان فالجان,ولكنها كانت ابتسامة الأشباح.
قال كوزيت :والآن سأبقي معكما.
فأجاب ماريوس متوسلاً:كلا يا كوزيت,إننا نتحدث في أمر مهم.ويجب أن نفرغ منه .
-يالك من زوج قاس!وأنت يا أبي, لماذا لاتضم صوتك إلى صوتي؟! ماأشد قسوتكما! سأشكوكما إلى جدي.
وأنطلقت من الغرفة كالغزال النافر.
كان قدومها و انصرافها اشبه بومضة البرق في غرفة مظلمة.
وهز ماريوس رأسه وقال :مسكينة كوزيت .متي علمت...

فارتجف جان فالجان من قمة راسه إلى أخمس قدميه...ونظر إلى ماريوس بعينين شاردتين ,وقال :كوزيت؟ آه.صحيح أنك ستحدثها بكل شئ,ولكن صبراً إنني لم أفكر في ذلك .إن الإنسان قد يحتمل صدمة تزلزل كيانه قد لايحتمل صدمة أخرى في ذلك أتوسل إليك ياسيدي . عدني بألا تحدثها بشئ ,أتقول لها إنني سجين هارب ؟!كلا!كلا!أوه يا إلهي!
وغاص في أحد المقاعد ,ودفن وجهه بين كفيه.
لم يسمع أحد صوت بكائه.ولكن اهتزاز كتفيه دل على أنه يبكي.
كانت دموعه صامته,دموعاً رهيبة.
وسمعه ماريوس يتمتم بصوت خافت كأنه منبعث من جوف هاوية لا قرار لها:
-اواه ,ما احب الموت!
-رَفِّه عن نفسك ياسيدي,فسأكتم سّرك.
وكان في صوته شئ من الخشونة فإن الفظاعات التي سمعها خلال الساعة الاخيرة على غير انتظار,جعلته يرى الهوة العميقة التي تفصل بينه و بين هذا الرجل .وقال بعد لحظة:
-لكنى أرى أنه من المستحيل ألا أقول كلمة في صدد الوديعة التي رددتها ,فتلك أمانة تحمد عليها ,وتستحق من أجلها أن تثاب فاذكر المكافأة التي تطلبها .أطلب المبلغ الذي تريده ,ولا يهمك أن يكون جسيماً
فأجاب جان فالجان بلطف:إنني اشكرك ياسيدي.
وأطرق راسه مفكراً ,ثم قال بعد لحظة:أنتهى كل شئ تقريباً يا سيدي,ولم يبق إلا شئ واحد.ثم تمتم بصوت خافت مرتجف:
-الآن وقد علمت كل شئ ياسيدي,فهل تعتقد -وأنت السيد هنا-بأنه لايجدر بي أن أحضر مرة أخرة لزيارته كوزيت .
فأجاب ماريوس ببرود:أظن ذلك.
فتمتم جان الجان:إذاً لن أزورها مرة أخرى.
ومشى إلى الباب ,و وضع يده على مقبضه ,وفتحه ,وهم بالخروج وثم عاد فأغلقه فجأة,ثم فتحه مرة اخرى وتحّول إلى ماريوس.كان شاحب اللون...وفي عينيه بريق مخيف.
قال بصوت هادي:مهلاً ياسيدي...إذا سمحت لى فإنني أحضر لرؤيتها ,أؤكد لك أنني أتوق كثيراً إلى رؤيتها .ولولا ذلك ما اعترفت لك بما اعترفت ولذهبت في سبيلى دون أن أقابلك ,ولكنني أردت البقاء حيث توجد كوزيت.أردت البقاء لكي أراها دائماً فصارحتك بالحقيقة كلها!فإذا لم يكن ثمة مانع ,فإنني أحضر لرؤيتها بين وقت وآخر .وأعدك بألا أطيل زيارتي .
نعم يا سيدي إنني أودّ أن أرى كوزيت لو نادراً .ثم إن انقطاعي الفجائي,قد يبدو في نظرها غريباً,وقد يترك في نفسها أثراُ سيئاً.فقال ماريوس : في استطاعتك أن تأتي لزيارتها كل مساء وستجدها في انتظارك.
-أنت طيب القلب ياسيدي.
ورافقت السعادة اليأس إلى الباب ,وافترق الرجلان.
ذهل ماريوس ,وفهم سر النفور الذي كان يشعر به نحو هذا الرجل كلما قابله مع كوزيت.
إذاً ففوشليفان هو جان فالجان.
ولكن اكتشافه هذه الحقيقه وهو في عنفوان سعادته كان اشبه باكتشاف عقرب في وكر حمامه.
وخيل إلى الشاب بعد أن سمع اعتراف جان فالجان إلى المتاريس في تلك الليلة المؤومه مع أنه لم يشترك في القتال , وتذكر كيف رآه وهو يسوق جافير إلى مصرعه كما يساق الحيوان للذبح .لا بد أنه كانت بين الرجلين عداوة وطبيعي أن تكون هناك عدواة بين الشرطي و المجرم الهارب من الليمان ,وإذاً فهذا المجرم لم يذهب إلى المتاريس إلا لينتقم من غريمه, ومن يدري؟ فلعله سمع نبأ وقوعه في اسر الثوار.فكر في ذلك وفكر طويلاً ,وامتلأ ذهنه باسئلة أخرى كثيرة .
سأل نفسه:ماهي الظروف العجيبة التي جمعت بين جان فالجان و كوزيت.بين الذئب و الحمل؟وكيف قضت كوزيت طفولتها,ثم فتوّتها ,وشبابها,في كنف هذا المجرم العنيد.
وفي مساء اليوم التالي, طرق جانفالجان الباب ففتح طباسك" وحيّا الزائر,وقال له:
-لقد أمرني سيدي البارون أن أستفسر منك عما إذا كنت ترغب في البقاء هنا أو الصعود إلى الطابق الأول؟
فأجاب جان فالجان : بل سابقي هنا.
فذهب به الخادم إلى غرفة استقبال في الطابق الأرضي,وقدم له مقعداً.كانت غرفة مظلمة تنبعث عفونة الرطوبة من جدرانهاووقد رأى جان فالجان النار تستعر في موقدها .فأدرك أن بقاءه في الطابق الأرضي كان منتظراً.
وأقبلت كوزيت ,فلم يرها جان فالجان ,ولكنه شعر بوجودها,فنهض واقفاً,ورمقها بنظره إعجاب.

كانت جميلة كالشمس المشرقة.
قالت له مؤنبة:مامعني هذا يا أبي؟ أنا أعلم أنك غريب الأطوار,ولكن لك أتوقع أن تبلغ غرابة أطوارك إلى هذا الحد.
لقد قال لي ماريوس إنك ترغب في زيارتي هنا.
فأجاب :هذا صحيح.
قالت:لقد كنت أتوقع هذا الجواب.فكن على خذر ,وإلا أنزلت بك اشد عقاب ,ولكن لنبدأ من البداية, قبلني أولاً يا أبي.
وقدمت إليه خدها ,ولكنه ظل جامداً لايتحرك.
قالت:يخيل إليّ أن الموقف يتطور تطوراً خطيراً,لماذا أنت ناقم عليّ, هل أسأت إليك؟هلّم معي إلى غرفة الأستقبال الأخرى في الطابق الأول.
-مستحيل.
فذهلت ,وهتفت:ولكن لماذا؟ لماذا يقع اختيارك على أحقر غرفة في المنزل؟
-أتتعلمين يا سيدتي؟ هذه نغمة جديدة وفما معني كل هذا؟
فابتسم لها جان فالجان ابتسامة كسيرة وقال :إنك أردت أن تكوني بارونة,وقد صرت كذلك.
-ولكني لست بارونة بالنسبة إليك يا أبي.
-لاتدعيني اباك.
-وكيف أدعوك إذاً؟
-أدعيني مسيو جان فالجان ,أو جان فقط.
-ألم يعُدْ من حقي أن أدعوك أبي, ومن حقك أن تدعوني
كوزيت! ماذا حدث ؟ انظر في عيني إذا استطعت ز،ماذا أسأت إليك؟
لابد أن في الأمر شيئاً
-لاشئ.
-إذاً مابك ؟
ولما لم يجب ,تناولت يده و ضمتها إلى صدرها وتمتمت:
-ماذا يغضبك مني؟ أيغضبك أنني سعيدة؟
قالت ذلك ببساطة نفذت إلى أعماق نفسه. فاصفر وجهه ,وبقي لحظة لايتستطيع الكلام.

وانقضت بضعة اسابيع شغلت فيها كوزيت بسعادتها,وحياتها الجديدة ,واحتكر فيها ماريوس كل عنايتها و حبها.
وكان جان فالجان يتردد عليها كل يوم ,فيقضي معها بضع جقائق ,ثم أخذ يطيل البقاء .
كان يطيب له أن يراها ,وأن يانس بقربها,وكانت ابتسامتها بلسماً لجراح قلبه.
وكثيراً ماحدث خلال هذه الزيارات الطويلة,أن كان الخادم ياتي مراراً ليذكرها بأن الطعام قد أعد.
وفي أحد الايام ,لاحظ جان فالجان عدم وجود نار في موقد الغرفةوولكنه راح يقنع نفسه بقوله:أية غرابة في هذا ,فنحن في شهر ابريل وقد انقضى موسم البرد؟
و أسرعت كوزيت لمقابلته وهتفت :يا إلهي,ما اشد البرد هنا!
فأجاب :كلا.كلا.إت الجو دافئ في هذه الغرفة.
-إذاً فأنت الذي طلبت إلى "باسك" ألايشعل النار في الموقد؟
فأحاب كذباً:نعم.
فهتف:ما أغرب أطوارك يا مسيو جان !
و في اليوم التالي ورأى جان فالجان النيران تستعرفي الموقد ,لكنه وجد المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه موضوعاً بمقربة من النار,
ففكر :مامعنى هذا؟
وقابلته كوزيت كالمعتاد ,ولما همّ بالانصراف قالت له:
-لقد حدثني زوجي بالأمس حديثاً مضحكاً.
-ماذا قال؟

-قال:أصغي إلي يا كوزيت .إن إيرادنا من جدي ثلاثة آلاف فرنك في العام ,وإيرادك من ثروتك سبعة و عشرون ألف فرنك .
فهل تستطعين الاكتفاء بالثلاثة آلاف؟ فأجبتُه بالإيجاب ,واستفسرت منه عن السرّ في هذا السؤال ,
فأجاب "أردتُ أن أعرف".
فلم يُجِب جان فالجان بكلمة,ولعل كوزيت كانت تنتظر منه ايضاحاً .بيد أنه أصغي إليها لإي سكون ,وانصرف إلى بيته وهو مكتئب حزين.
كان من الواضح ان ماريوس داخلته الريبة في مصدر الست مئة ألف فرنك ,ولعله ظن أنها جمعت بوسائل غير مشروعة.
أو اكتشف أن جان فالجان هو صاحبها فنفر منها,وآثر أن تعيش كوزيت في فقر , على أن تنعم بثروة مشكوك في أمرها.
وبدأ جان فالجان يشعر بأنه اصبح غير مرغوب فيه فأنه لما ذهب لزيارة كوزيت, لم يجد في الغرفة مقاعد على الإطلاق .
و وجدته كوزيت واقفاً في انتظارها,فصاحت :يا إلهي , اين المقاعد؟
-لقد قلت لباسك إنني لا أريد الجلوس ولأن زيارتي الليلة قصيرة.
-يا إلهي ! ما أغرب أطوارك!
فغمغم محطماً كسير القلب لأنه فهم.
ولم يذهب لزيارتها في اليوم التالي, فانزعجت كوزيت وقالت:
-إن مسيو جان فالجان لم يحضر الليلة.
ولكن ماريوس طمانها بقبلة.
وانقضى يومان ولم يأت جان فالجان لزيارتها .فأرسلت وصيفتها للاستفسار عنه, وعادت الوصيفة تقول أنه يبلغها تحيته ,وإن بعض الؤون أقعدته عن زيارتها,ولكنه سيزورها في فرصة قريبة. على أنه لم ينقطع يوماً عن الذهاب إلى شارع كالفير ,أذ كان يطوف بالبيت مراراً ,ولايرفع عينيه عن نافذة كوزيت.
ثم ما لبث صحته أن اعتلن فحُرِمَ من النعمة الأخيرة,نعمة الطواف ببيتها ,والتطلع إلى نافذتها.
و أراد الخروج في أحد الأيام, فعجز لضعفه ,وانتهت رحلته عند باب منزل فقضى بضع دقائق جالساً على المقعد الخشبي, ثم عاد أدراجه إلى غرفته. وهذه كانت رحلته الأخيرة.
و في اليوم التالي لم يبرح غرفته ,وفي اليوم الثالث لم يبرح فراشه.
وكانت زوجة البواب تُعد له الطعام ,فأدهشها في أحد الأيام أن تجد الطعام كما وضعته.
هتفت :ماذا دهاك ياسيدي المسكين,إنك لم تتناول أمس شيئاً من الطعام؟
فأجابها :بل تناولت.
-إن آنية الطعام ملى كما وضعتها.
-أنظري إلى بنية الماء ,إنها فارغة.
-ذلك معناه أنك شربت,ولكن ليس معناه أنك أكلت.
قال:هي أنني لم اشعر بغير الجوع إلى الماء.
و انقضى أسبوع ولم يبرح جان فالجان غرفته. فقالت زوجة البواب تحدث زوجها:
-هذا الشيخ لاينهض من فراشه,ولايأكل ,ولن يعمر طويلاً.
إن الحزن يأكل قلبه,و أكبر الظن أن ابنته لم توفق في زواجها.

وذات يوم...لم يقوَ جان فالجان على الجلوس في فراشه,ولوحظ أنه هزل وضعف.ولكنه مع ذلك بذل جهداً عنيفاً حتى استطاع مغادرة الفراش . ثم تناول ثياب كوزيت وبسطها امامه ,و وضع الشموع في اشعة الشمس .
وكان في كل خطواته يستند إلى إحدى قطع الأثاث ,وانتهى به الطواف أما المرآة التي عكست رسالة كوزيت .فتهالك على مقعد هناك و نظر إلى المرآة ولم يعرف نفسه. رأى على جبينه شيئاً آخر غير تجعدات الشيخوخة. رأى عليه طابع الموت. وقضى في جلسته أمام المرآة زمناً طويلا ثم نهض واقفاً وأخذ يجرُّ نفسه جراً حتى و صل إلى طاولة الكتابة , و هناك أُغمِيّ عليه .و لما أفاق من إغمائه , شعر بظمأ شديد و لكنه لم يستطع رفع الآنة إلى فمه , فأحنر رأسه فوقها , وبلل شفتيه بمائها .ثم حول يده نحو الفراش , و نظر طويلاً إلى ثياب كوزيت , ذلك الكنز العزيز المحبوب.
و فجأة , مرت بجسده رعدة قوية , و شعر ببرد شديد فغمغم وهو يترنح في مكانه : ياإلهي! انتهى كل شي ولن أراها مرة أخرى .و في هذه اللحظة و سمع طرقاً على الباب.



في ذلك المساء كان ماريوس يهمّ بالخروج من قاعة الطعام حين قدم له باسك رسالة و هو يقول : إن صاحب هذه الرسالة ينتظر في قاعة الاستقبال.

فتح ماريوس الرسالة و قرأ مايلي :

"سيدي البارون .كاتب هذه الرسالة يعرف سراً يهمّك , وهو على استعداد لأن يضع معلوماته في تصرّفك"

تيناردييه

دهش ماريوس . و أعاد تلاوة هذه الرسالة , ثم تذكر أنه سمع هذا الاسم قبل الآن . و لكن أين ؟ نعم إنه سمعه في غرفة جوندريت . إنه اسم جوندريت نفسه . و لكن ما نوع السر الذي يعرفه هذا الشقي ؟

و على الرغم من عناية تيناردييه بتغيير زيّه وملامحه , فقد عرفه ماريوس حالما وقع بصره عليه .

حيّاه ببرودة,وقال دون أن يدعوّه إلى الجلوس : ماذا تريد؟

فأجاب تيناردييه : هل تفضل سيدي البارون و قرأ رسالتي؟

- نعم . ولكنها سراً و أريد أن أبيعه.

- وهل يهمّني أن أعرف ذلك السرّ؟

-أظن ذلك.

-تكلم اذاً

-إن سيدي البارون يؤوي في منزله لصاً وقاتلاً.

فدهش ماريوس وهتف : في منزلي!

فارتسمت على وجه تيناردييه ابتسامة عريضة وقال:

-نعم ياسيّدي في منزلك . وإني لا أتكلم عن اشياء قديمة طوتها الأيام , وإنما اتكلم عن حقائق حديثة مايزال رجال العدالة يجهلونها.ياسيدي البارون .إن الرجل الذي أعنيه قد اكتسب ثقتك و تسلّل إلى كنف اسرتك تحت اسم مستعار..وقد رأيتهُ معك و مع عروسك في مركتبك في حفلة الزفاف , ساذكر لك الآن اسمه الحقيقي و أذكره مجاناً وبلا ثمن .

- تكلّم .

-إنه يدعى جان فالجان .

-أعلم ذلك

-وسأكشف لك عن حقيقة أمره مجاناً كذلك . إنه سجين سابق .

-أعلم ذلك

فدهش تينارييه و ولكنه لم ييأس .

قال ذلك دليل على أنني استقي المعلومات من مصادرها.

والآن يبقي السر الذي لايعرفه سواي و هو سر خطير من شأنه أن يؤثر في مركز سيدتي البارونة . ولكنني سابيعك هذا السرَّ لقاء أربعين ألف فرنك فقط.

فقال ماريوس ببرودة: إنني أعرف هذا السرّ أيضاً

فذعر تينارييه و هتف: يا إلهي! هل معنى ذلك أنني لن أتعشي الليلة ؟ إن السر عجيب جداً ياسيدي و سأذكره لك . أعطني عشرين فرنكاً.

فنظر إليه ماريوس بإمعان , وقال ك إنني اعرف سرك الخطير أيضاً.

ألا تريد أن تقول إن جان فالجان لص لأنه لص سرق اموال رجل من اصحاب المصانع يدعى الأب مادلين ؟ و إنه قاتل لأنه فتك بالمفتش جافير .فنظر إليه تينارييه في دهشة , وقال : إنني لا أفهمك ياسيدك البارون.

- سأذكر لك الحقائق بالتفصيل . فاصغِ إليَّ .حدث منذ بضعة أعوام أن رجلاً في "با دو كاليه" ارتكب جريمة سرقة , فأرسل إلى السجن , وقضى مدة العقوبة, ولكنه سلك سواء السبيل بعد ذلك , و أطلق على نفسه اسم الأب مادلين , وأنشأ مصنعاً و جلب الرخاء إلى مدينة برمتها , ثم عين عمدة لتلك المدينة. و اتفق أن سجيناً آخر وقف على سر للأب مادلين يوقعه تحت طائلة العقاب وفوشى به , و انتهز فرصة إلقاء القبض عليه , فذهب إلى باريس وسحب من بنك لافيت - وبتوقيع مزور - جميع اموال الأب مادلين وهي تزيد على نصف مليون فرنك و تلك هي الحقائق التي وقفت عليها من صراف البنك نفسه . أما السجين الذي سرق الأب مادلين فهو جان فالجان , وأما جريمة قتل المفتش جافير, فإنها وقعت تحت سمعي و بصري و في ظروف أعرفها كما لا يعرفها سواي . أليس هذا هو سرك الخطر؟

فلمعت في عيني تيناربيه نظرة فوز , وقال كلا ياسيدي البارون , إنك مخطئ.

- ماذا؟ هل تعرف ماينقص هذه الحقائق ؟

- إن الحق حق ياسيدي . وأنا لا أحب أن تصبَّ التهم على الناس جزافاً . فجان فالجان لم يسرق الأب مادلين , و جان فالجان لم يقتل المفتش جافير , وذلك لسببين .

-ما هما ؟تكلم.

-إنه أولاً لم يسرق الأب مادلين, لأن جان فالجان هو الأب مادلين.

-ماهذا الجنون؟

-وهو ثانياً لم يقتل المفتس جافير, لأن المفتس جافير انتحر .

- أتسخر مني أيها الوغد ؟

- صبراً وصبراً ياسيدي البارون و خذ ,اقرأ.

وقدم له صفحة من جريدة قديمة وأخرى من جريدة جديدة فقرا ماريوس في الأولى النبأ الذي اذاعته الصحف عقب اعتقال جان فالجان في باريس , وقرأ في الثانية نبأ العثور على جثة المفتش جافير في نهر السين .

ودهش ماريوس و غمغم :إذاً فالرجل لم يقتل ولم يسرق!

- بل قتل وسرق ياسيدي . فأصغي إلي.

و قصّ عليه فاجأ جان فالجان في سراديب المجاري حاملاً جثة شاب قتله و سرق نقوده .

فصاح ماريوس وقد بدأت تنبلج له الحقيقة:أتذكر متي حدث ذلك؟

فاجاب تيناربيه طبعاً اذكرُ ذلك و لا أنساه . لقد ارتكب جان فالجان جريمته في ليلة الثورة .

فصاح ماريوس وهو ينهض على قدميه:

- إنني الشاب الذي قتله جان فالجان ..قبحك الله من وغد يتاجر باسرار الناس , إنك أنت القاتل و أنت اللص يا تيناربيه , أو يا جوندريت و لقد رايت بعينّي راسي كيف نصبت في غرفتك شركاً لسرقة جان فالجان .

قال ذلك بلهجة تنم عن الغضب و ولكن قلبه كان مفعماً بالشكر و الامتنان.

و استطرد قائلاً: إنك لاتملك ثمن عشائك؟ خذ,و أغرب عن وجهي ايها النذل وألقى إليه من ذوات المائة فرنكاً فاختطفها ولاذ بالفرار.

واسرع إلى غرفة كوزيت .. و صاح و هو يلهث :

- كوزيت ..كوزيت ... هلمّي بنا... و أنت يا باسك , مر بإعداد المركبة . إنه الذي أنقذ حياتي يا كوزيت فلنذهب إليه . لنذهب في الحال !

فلم تفهم كوزيت كلمة من هذا الهذيان و لكنها أطاعته.

وصاح مايروس بالحوذي : هلّم بنا إلى شارع لوم آرميه.

فانبسطت اسارير كوزيت . إنه ابوك اكثر مما كان في أي وقت مضى, لقد عرفتُ الحقيقة.



طرق ماريوس الباب , فسمع من الداخل صوتاً يهمس : أدخل .

ففتح الباب , ووثبت كوزيت إلى الداخل.

هتف جان فالجان:كوزيت !

وبسط يديه النحيلتين المرتجفتين . فألقت كوزيت بنفسها فوق صدره , وهي تصيح : أبي!

و غمغم الشيخ:كوزيت ,كوزيت , أهذه أنت ؟ ياإلهي.

وتقدم ماريوس ,وهو يُطرق راسه , و الدموع تنهمر من عينيه, وتمتم:أبي!

فقال جان فالجان : وأنت أيضاً ؟هل صفحت عني؟ شكراً لك .

فصمت ماريوس ولم يقوَ على الكلام.

وخلعت كوزيت قبعتها و معطفها , وجلست على ركبتي جان فالجان , و رفعت خصلة الشعر عن جبينه و قبلته .

فقال بصوت مرتجف :

-مااشد غباوة الإنسان , لقد كنت أقول لنفسي في التوّ و اللحظة إنني لن أراها بعد الان , ولكني اغفلتُ إرادة الله , و هأنذا أرى كوزيت مرة أخرى.ثم التفت إلى ماريوس وقال : هل تسمح لي أن أدعوّها كوزيت؟

سيكون ذلك لمدة قصيرة فقط.

فقالت كوزيت : ما أقسى قلبك يا أبي ! لماذا أمسكت عن زيارتنا كل هذا الوقت. أنظر ياماريوس , إن يده باردة . إنه كان مريضاً وكتم عنّا نبأ مرضه.

وقال جان فالجان مرّددًا:

- إذا قد صفحت عني يا مسيو مونمارنسيزشكرا لك شكراً لك .

وعندئذ تعذر على ماريوس ان يضبط العاطفة التي تعصف في أعماقه فصاح:

- هل سمعت يا كوزيت ؟ إنه يشكرني . فهل تعلمين ماذا فعل من أجلي ؟ إنه أنقذ حياتي , بل فعل اكثر من ذلك . إنه تخلى عنكِ لي , ضحَّى بسعادته في سبيل سعادتنا , وهاهو الآن يشكرني.

إن لهذا الرجل كل حسنات الملائكة ,يا كوزيت ,

فقال جان فالجان في همس كفى !كفى!

- لماذا لم تحدثني بكل شيء ؟ لماذا لم تقل لي إنك الأب مادلين , وإنك أخليت سبيل جافير . لماذا لم تقل لي إنك أنقذت حياتي؟!

لأنني رأيت مثلك أنه من الضروري أن أتركما , لو صارحتك بحادث السرداب لأبيت عليّ الرحيل لذلك فضلت السكوت.

- وهل تظن أنك ستبقي هنا؟ إنك ستعود معنا! يا إلهي ! يا إلهي ! كلّما فكرت في انني لم أعرف الحقيقة إلا مصادفة .

إنك لن تقضيّ يوماً آخر في هذا المنزل المخيف , فلا تتوهم أنك ستكون هنا غداً.

فأجاب جان فالجان: غداً لن أكون في بيتكما.

-ماذا تعني؟ كلا.كلا. إننا لن نسمح لك بالسفر , و لن نفترق بعد اليوم.

فقالت كوزيت: إن المركبة في انتظارنا بالباب و و في نيتنا أن نلجأ إلى القوة إذا قضت الضرورة!

وضحكت , و تظاهرت بأنها تهم بحمل الشيخ , واستطردت:

- إن الغرفة التي أعددناها لك في بيتنا ماتزال في انتظارك فتعال معنا , ولننس "سيدتي البارونة "و"مسيو جان" ولأكن كوزيت...

ولتكن ابي.

واصغى إليها جان فالجان و وسمع موسيقي صوتها , و أكثر مما وعى معني كلامها , وانحدرت من عينه دمعة و احدة كبيرة , وغمغم :

- ليس ادل على كرم الله من وجودها هنا هذه الساعة .

ثم استطرد بصوت مرتفع ك جميلٌ أن اقيم معكما , وجميل أن أرى كوزيت في كل وقت و أن أدعوها ابنتي ,وتدعوني اباها ولكن ..

فأحاطت يدُه بيدها , وقالت : ولكن ماذا يا أبتاه؟! إنّ يدك تزاد برودة . فهل أنت مريض ؟!

- أنا؟ كلا . ليس بي شئ , و فقط..

وكفَّ عن الكلام مرة أخرى . فسألتهُ : فقط ماذا؟!

فأجاب : فقط سأموت في الحال.

فذعر الشاب و هتف ماريوس : تموت؟!

فأجاب : نعم , ولكن ذلك لاقيمة له.

و ابتسم و استطرد : كنتِ تتحدثين إليّ ياكوزيت , فامضي في حديثك لكي أسمع صوتك.

فاشتد ذعر ماريوس . و صرخت كوزيت في فزع :

- أبي!أبي! إنك ستعيش ! ستعيش! لابدَّ أن تعيش!

فرفع جان فالجان رأسه وقال:

- ليتني أستطيع أن أطيعك . إنني كنت في طريق الموت عندما دخلت.

فهتف ماريوس :

- إنك ما زلت في عنفوان الحياة . أتحسب أن الإنسان يموت هكذا؟

إنك عرفت الأحزان .ولكنّك لن تعرفها بعد اليوم. هأنذا أركع تحت قدميك واسالك الصفح و المغفرة , فهل تأتي الآن معنا؟

فأجاب جان فالجان و هو مايزال يبتسم:

- هل يُجديني ذلك ؟ كل شئ قد انتهي .

فدفنت كوزيت وجهها في صدره , و انفجرت باكية . و لكنه تناول طرف ثوبها و قبله , و التفت إلى ماريوس و قال:

- لقد آلمني أن تمتنع عن مال زوجتك يامسيو بونمرسي . إنه مالها و وقد آل إليها من صناعة الخزف و الحليّ الزجاجية , هل إدلك كيف تُصنع هذه الحليّ؟

وكان صوته يزداد خفوتاً و اضطربت انفاسه, و ثقلت اجفانه , فتعاون ماريوس وكوزيت على نقله غلى فراشه.

قال وهو يلهث ك شكراً لكما, لقد كنت واثقاً من أنك تحبينني يا كوزيت . إنني أترك لك هذين الشمعدانين . إنهما من الفضة ولكنهما كانا بالنسبة إليّ أثمن من الذهب و أثمن من الماس.

لاتنسيا يا و لديّ أنني رجل فقير . فلتوضع جثتي في قبور الفقراء . ولا أريد أن يُنْقَشَ اسمي على قبري.

هل ترين هذا الثوب الأسود الصغير يا كوزيت ؟ هل تعرفينه ؟ إنه كان ثوبك منذ عشرة أعوام فقط , فما اسرع مرور الايام!

أتذكرين قرية بولانجيه يا كوزيت ظ هناك قابلتك للمرة الأولى, و كنت خائفة مذعورة , و هناك تناولت آنية الماء من يدك.

ثم اتذكرين الدمية الكبيرة ؟ كانت مدام تيناردييه شديدة القسوة عليك ولكن يجب على الإنسان أن يتعلم الصفح .

اظن أن الوقت قد حان لأذكر لك اسم امك يا كوزيت .

إنها تُدعى فانتين , فتذكري هذا الاسم . فانتين. و اجثي على ركبتيك كلّما ذكره. فهو اسم امرأة قاست كثيراً و أحبتك كثيراً و عرفت من معاني الشقاء بقدر ما عرفتِ أنتِ من معاني السعادة و هكذا يوزّع الله النعيم و الشقاء.

إنني اموت سعيداً , فاقتربا, لأضع يدي على رأسيكما العزيزين فركعا حوله , و العبرات تخنقهما , ووضع جان فالجان يديه على راسيهما .

ولم تتحرك اليدان بعد ذلك.